
إبراهيم القاضي
عزبة
الباشا
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

عزبة الباشا

عزبة الباشا

إبراهيم القاضي

■ الطبعة الأولى......... يناير 2014

الغلاف: أحمد مراد

التصحيح اللغوي: ايمان الدواخلي

رقم الإيداع: 19786 / 2013

الترقيم الدولي: 5 - 42 - 5153 - 977 - 978



3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing



رواية

إبراهيم القاضى

الرواق للنشر والتوزيع



الجزء الأول

عزبة الباشا



نلهث خلف السعادة، كظمآن يطارد سراب، حتى نقترب وتظهر الحقيقة جلية، لكن بعد فوات الأوان.. فلم يعد لدينا طاقة لمواصلة المسير.

أتحدث عن قريتي تلك، في ذلك المكان البعيد عن الإنسانية، والبعيد كل البعد عن الأحلام. لا ترى فيها غير الكوابيس، وأبو رجل مسلوخة والعفاريت، والجنية التي تمشط شعر أطفالها على شاطئ المصرف الكبير، والنداهة التي تظهر كأجمل نساء القرية..

في تلك القرية المشحونة بالأفكار، يتناقض فيها الأشخاص بما يحملون من الآراء والأهواء.. فيها المثقف الأفندي، الذي زار البندر، وأتى ببعض ما لديهم من أفكار، يقرأ لأفلاطون وأرسطو وابن خلدون.. منهم من يحفظ آراء كارل ماركس، ومنهم من يحفظ عن ظهر قلب الوصايا العشر لحسن البنا.. تدور بينهم المعارك الفكرية، في ذلك المكان على الترعة القبلية، بجانب ساقية مدبولي، التي أصبحت ساحه للنقاش، يأتي إليها الأفندية، ليتباروا بأفكارهم، ويعلو صوتهم، فيختلط بصوت غناء الفلاحات في الحقول، أيام جني القطن..

وعلى النقيض من هؤلاء الأفندية، سكان تلك القرية الهادئة، البعيدة عن صخب البندر ومشاكل القصر والوفد والإنجليز، لا يعرفون عن "السياسة" إلا أنها رجس من عمل الشيطان، أو أنها وسيلة يستخدمها بعضهم لترويض الأب أو الابن أو الأم أو الزوجة الشرسة.. أو الباشا أو العمدة أو شيخ الخفر، وصولا إلى الخفير. لكنها تفرض عليهم، عندما يأتي موعد انتخابات مجلس

الأمة، (انتخابات الباشا كما كان يطلقون عليها)، فتجهز لهم تلك السيارات الكبيرة، التي تمشى على أربع عجلات، ولكنها تسبق الحمير والبغال، وتسبق حتى حصان الباشا، يشحن فيها هؤلاء الفلاحون. في ذلك اليوم، يجتاح أهل القرية شعور يمتزج فيه الخوف بالمتعة والاضطراب والقلق، مع بعض من الفخر، فهم يركبون مركوبا أسرع من حصان الباشا. ولكن ـ لاقدرالله ـ إذا لم يوفق الباشا في الانتخابات، كما حدث قبل ذلك، فستكون تلك السيارات، التي يتباهى بها الرجال أمام نسائهم، حتى أن بعض النساء يشعرن بالغيرة من الرجال لأنهم فقط من يستطيعون ركوب تلك السيارة، سيكون عدم توفيقه وبالا عليهم.

أفضل من يعلم هذا المصير هو الحاج درويش، ذلك الرجل الذي بلغ من العمر عتيا، والذي لقى مصيرا مؤلما، ظل يعاني منه حتى أتته المنية... ففي انتخابات مجلس الأمة، بعد عودة سعد باشا من المنفى، كانت القرية جميعا مع سعد باشا وحزبه الوفد، وشحن أهل القرية في تلك السيارات، إلى مقر لجان الانتخابات في قرية مجاورة لقريتنا، كانت تابيع المنافس. وحدث ما حدث، عندما علم أهل تلك القرية بأن درويش، هذا الرجل ذو الحظ العاثر، انتخب الوفد، وخرج من اللجان الانتخابية مهلالا ومفتخرا، ومرددا بسذاجة بعض القرويين: سعد سعد يحيا سعد.. سعد سعد يا وش السعد. ما أثار غضب أهل القرية، فانهالوا عليه ضربا بالفئوس والشوم والعصي، حتى خر مغشيا عليه.

وتحكي القرية بتهكم عن الانتخابات التي فاز فيها صدقي باشا على النحاس.. في تلك الانتخابات، التي صوّت فيها الأموات أكثر من الأحياء؛ حين أتى بهم العمدة وشيخ الخفر، بتعليمات من الباشا تيسير، ليقفوا على جانب الطريق العمومي، ويحملوا لافتات تأييد لرئيس الوزراء الجديد، فامتطى كل منهم حماره، حتى وصل إلى الطريق العام حاملين اللافتات المرحبة بزعيم الأمة. وبعد أن اشتد بهم التعب، وبلغ العرق مبلغه من شدة الحرارة، أرشدهم

أحدهم أن يربطوا تلك اللافتات على ظهور الحمير، ويرقدوا تحت ظل شجرة بعيدة عن أنظار معالي رئيس الوزراء وحرسه.

ومر صدقي باشا وركابه، ورأوا اللافتات المهنئة لدولته ومرحبة به على ظهور الحمير، فبلغ بصدقي الغضب الشديد والامتعاض أن أخذ يعض على شفتيه، وقرر أنه لابد أن تتعلم تلك القرية (المارقة)، التي يسكنها الحمير الأدب، عندما تتعامل مع صدقي باشا، فيبدو أنه لم يصل إلى مسامعها، ولم تعرف من هو صدقي باشا (السفاح).

وخز مدير الأمن، الذي كان يجلس بجواره، موبخا ومعاتبا ومهددا إياه بأنه لابد أن يعمل في وظيفةأخرى، غير تلك التي لا يجيدها. انحنى مدير الأمن أمام صدقي باشا صاغرا، معتذرا عما حدث لدولته، مبررا بأنها تبدو مكيدة من الوفد لتحرجه، ومؤكدا أنه من رجاله الأوفياء، وسوف يبذل قصارى جهده، ليعرف من وراء ذلك العمل الشنيع، وسوف يبلغه بذلك، بعدما ينتقم منهم أشد انتقام..

على الفور، استدعى مدير الأمن العمدة هواري، وأمر بحلق نصف رأسه اليمنى، ونصف شاربه الأيسر، الذي كان يتباهى به.. وبحلق حاجبيه أيضا. جلس العمدة تحت يدي الحلاق، مستسلما لأمره، ولذنبه الذي لم يقترفه، بل إنه لابد أن يكون دسيسه من منافسه على العمودية، شاهين.. تسرب الخبر إلى القرية، كتسرب مياه النيل أيام فيضانه، وسخر الجميع مما حدث لهواري، لكنهم لم يكونوا يعلمون تبعات ذلك الحادث المؤسف على القرية وأهلها، وخصوصا الأفندية المتعلمين، فقد تودي بكرامتهم جميعا، عندما يعلم الباشا.

وفي الحقيقة، فإن القرية لا تعرف صدقي ولا غيره، ولا يعرف معظمها إن كان صدقي هذا في مرتبة العمدة أم لا، ولكنه بالتأكيد ليس بمستوى تيسير باشا!..

وصل العمدة إلى مدخل القرية، ملثما بتلفيعته مثل الهجامة الذين يأتون لسرقة القرية ليلا، ممتطيا حماره الأبيض، تحته تلك البردعة القديمة البالية، التي لا تتناسب مع قدر عمدة. هو ليس مهتما بمظهره مثل منافسه شاهين، الذي يمتطي حصانا.. ومن خلف حمار العمدة يركض عبدالباسط الخفير، وقد قطع نفسه، ويكاد يسقط مغشيا عليه من التعب.

- ريح شوية يا حضرة العمدة

استدار إليه العمدة..

- كرامتى يا ولا يا عبدالباسط!

عندما رأى حضرة العمدة وماحدث له، حاول جاهدا إخماد تلك الضحكات المتمردة، التي قد تصيبه بكثير من اللعنات والسباب من العمدة، الذي يسبق لسانه تفكيره؛ ولكن دون جدوى. استشاط العمدة غضبا، وسدد بعض اللكمات لعبدالباسط، الذى مازالت أثار الضحكات مرسومة على وجهه.

- بقى يا ابن الكلب يا ابن تفيدة العمشة تتمسخر عليّ؟.. باقولك كرامتى تضحك عليّ؟ انى بقيت مسخرة على آخر الزمن!!

رد عبدالباسط، محاولا كتمان تلك الضحكات اللعينة، واسترضاء العمدة هواري:

- مين قال كده.. يتقطع لسانه اللي يقول كلمة على عمدة بلدنا.. دا أنت سيد الناس كلها والله يا عمدة.. اياكشى بس الحظ كان زمانك باشا زى تيسير باشا.. هو أحسن منك في ايه يعنى!!؟؟

تنفس العمدة الصعداء، وبدأت أساريره في الانفراج. برز صدره قليلا وهو يمتطي حماره، وإن كان كرشه مازال هو الأبرز، مهتزا أمامه. فجأة، وقعت عيناه على قصر تيسير باشا القبلي، فبدأ وجهه يصفر ويسود، وقال محدثا

نفسه بصوت مرتفع، سمعه عبدالباسط..

- يا وقعه سوده! يا مرارى الطافح يانى! هو الباشا تيسير وصل من مصر يا ولا؟؟

رد عبدالباسط وهو يراقب عيني العمدة الفزعتين..

- ايوه وصل يا حضرة العمدة.

- شم خبر؟؟

- ماعرفشى يا حضرة العمدة.

- الطف يا اللي بتلطف.

وصل العمدة إلى دوار العمودية، فوجد في انتظاره فرج..

- حمد لله على سلامتك يا حضرة العمدة..

قالها فرج مرحبا بالعمدة هواري مبتسما.. رد عليه العمدة، وقد بدأ يتصبب عرقا، بصوت فيه مزيج من الخوف من الباشا والرجاء في فرج، لعله أتى لأمر آخر غير تلك المصيبة..

- خير يا فرج؟!

رد فرج وهو يشير بيديه:

- مش باين لها خير يا عمدة

رد عبدالباسط، محاولا التخفيف على حضرةالعمدة

- ليه كفى الله الشر يا فرج؟!

- الباشا زرابينه طالعة.. زعقلى وقال لى تجيبلي العمدة من قفاه الوقتي حالا

ـ رووف بيه معاه؟

ـ رووف بيه مش معاه.. الباشا مش عاوزه يقعد في البلد.. ما أنت عارف خايف عليه!! ههه

ـ يبقى وقعتنا سودا.. جالك الموت يا تارك الصلاة

ـ آجي معاك يا حضرة العمدة؟

ـ تعالى ياواد عبدالباسط.. ولا أقول لك بلاش.. أصل أني عايز الباشا على انفراد.

تبادل عبدالباسط الخفير وفرج النظرات، اعتلت وجهيهما ابتسامة ساخرة، فهما يعرفان أن العمدة تنتظره الإهانة وقلة الكرامة في قصر الباشا. اصطحب فرج العمدة إلى قصر الباشا البحري، وفي طريقهما دار بينهما حديث..

ـ يا ترى أنت فين يا رووف بيه؟!

ـ ما انت عارف يا حضرة العمدة..

ـ في ايه يا ولا؟؟ جراله حاجة كفى الله الشر وللا أصابه مكروه؟

ـ ايـــــــه يا عمدة.. هو في حاجة بتستخبى في البلد الفاجرة دي!

ـ في ايه يا واد قول؟

ـ الباشا شم خبر.. عرف أن بنت عبدالتواب لايفة عليه

ـ علشان كده الواد عبدالتواب ساب القصر، ونزل يعلف البهايم؟.. بس ربك والحق.. البت ليلى دى فرسة عايزة خيال.. دتك البلا يا فرج نستني الهم اللي أنا فيه.

وصلا إلى القصر، فطلب منه خفر القصر انتظار الباشا في الغرفة البعيدة، القريبة من حظيرة المواشي.. لابد أن الأمر جلل.. تيسير باشا لم يقابل العمدة في

تلك الغرفة من قبل.. لا يقابل الباشا في هذه الغرفة إلا الضيوف غير المرحب بهم. انتظر العمدة تيسير باشا، وقد بدأت فرائصه ترتعد، حتى دخل الباشا، فنهض العمدة على الفور، منحنيا ومادًا يده ليصافحه. لكنه لم يمد يده إليه.. فسحب العمدة يده ببطء..

تيسير باشا، ذلك الرجل السبعينى، ذو الملامح الغربية، التي تبدو رومانسية، ولكنها تخفي قلبه القاسي الفظ.. نظر إلى العمدة، الذي كان واقفا مطأطأ الرأس، عيناه تنظر إلى قدمي الباشا، كأنه تلميذ فاشل يقف خاشعا ذليلا أمام معلمه. حدق الباشا بعينيه الزرقاوتين في العمدة، وانفجر بركان الغضب في وجهه، وهو يحاول أن يلملم بقايا كرامته التي أهدرت، ولكن دون جدوى.. حتى بدأ البركان في الهدوء، فقال له العمدة، وهو مازال مطأطىء الرأس:

- ده ملعوب يا سعادة الباشا ومقام سيدي السيد البدوي
- ملعوب من مين يا خرونج؟
- مش مصدقني؟.. طيب إياك اتشل الملعوب ده ماخرجشي من ايد شاهين.. وبعدين أني من رجالتك يا معالي الباشا..
- دا اللي انت فالح فيه.. تقب وتغطس وتعرف مين وز الفلاحين على كده وإلا انت عارف شاهين مستني نظرة..
- أمرك يا سعادة الباشا.

خرج العمدة مصابا بلعنات الباشا، التي قد تفقده منصبه الرفيع بين أهل القرية. في انتظاره كان مراد بيه، ابن تيسير باشا، ذلك الشاب الذي يشبه أباه بالخلق والخلقة، فنال العمدة من الإهانات ما فيه النصيب، قبل أن ينصرف وحيدا، ممتطيا حماره الأبيض، ملثما، محاولا إخفاء هيئته عن الفلاحين في الحقول. حتى مر على نسوة يشتلن الأرز، فلما رأونه تعالت ضحكاتهن

الساخرة من حضرة العمدة، فوخز مؤخرة حماره بعصاه، وعلا صوته غليظا..

ـ آه يا بلد حافية يا ولاد الكلب.. على آخر الزمن يحصل لي كده!

* * *

لا أحد من أهل القرية يملك فيها شبرا.. ولا حتى بيته الذي يأويه، إلا العمدة هواري، فلديه خمسة أفدنة من الأرض، ومنافسه شاهين، الذي يمتلك مثلهم، وإن كانوا على أطراف القرية ـ أو أرض الباشا. فلذلك سميت القرية (عزبة الباشا تيسير).. أما الباقون، فيعملون في زراعة أرض الباشا، وأقصى ما يحلم به أحدهم أن ينال رضاه، ويصبح خولي أنفار، ليرحم من العمل الشاق، والعمل في السخرة أيام فيضان النيل..

لكن لتنال رضا تيسير باشا، لابد أن تمر على قلب مدبولي، ملاحظ العزبة، وإن كان الطريق إلى قلبه وعرًا، تتحطم عليه آمال هؤلاء الطامحين. لدى مدبولي ثلاث بنات، خلقهم الله صورة مطابقة لأبيهم، برأسه الكبير، وأنفه العريض، وشعره الأسود الداكن الأشعث، وبشرته السوداء.. حتى إنه إذا قابل أحدهم في ليل القرية الكاحل وابتسم، ظن أنه جني أو عفريت، لا يظهر منه سوى أسنانه البيضاء.. لهذا، يفضل شباب القرية العمل في السخرة، وحمل الرمال أثناء فيضان النيل، تحت شمس حارقة وملاحظين قساة لا يرحمون؛ ولا الزواج من إحدى بناته، اللائي فاتهن القطار. كما يقولون: (مرة حلوة ولا فدان أرض).. ومع إغراء هذا المنصب الرفيع في قرية الباشا، لم يتقدم لهن أحد إلا مغاوري الأُجري، الشاب الثلاثيني، عريض المنكبين الطويل، ذو العينين الحادتين. ألصقت به القرية صفة (الجديد)، لأنه وافد عليها حديثا من الصعيد، ويقال إن عليه ثأرًا، وفر هاربا معتصما بقرية الباشا، البعيدة عن أنظار طالبي الثأر. وبالفعل، تزوج مغاوري ست الحسن، الابنة الكبرى لمدبولي، وأصبح خولي أنفار، يشخط وينطر، يمقته الفلاحون لطبعه الفظ الغليظ.

* * *

وصل خبر توبيخ الباشا لهواري إلى مسامع شاهين، بواسطة عبد النبي الخفير، الساعد الأيمن له. شاهين هو عمدة القرية السابق، الذي حل محله هواري، ولكنه محسوب على الحزب المنافس لهواري، فإن فاز حزب شاهين، عين عمدة، وإذا فاز حزب هواري، عين هواري عمدة.. كأنها لعبة كراسٍ موسيقية، لا تدوم لأحدهما كثيرا.

يهتم شاهين بمظهره كثيرا وبهندامه، أما هواري، فهو لا يهتم بتلك الأشياء.. لكن يجمعهما حبهما لكرسي العمودية وعشق النساء، فكل منهما متزوج بأربعة نساء.

ضحك شاهين كثيرا من هذا الخبر، وإن جاشت لديه بعض المخاوف والهواجس من تصرف تيسير باشا، إن ظن أنه المسئول عما حدث لرئيس الوزارة. عزم على الذهاب إلى الباشا ليبرئ ساحته من تلك الجريمة النكراء. وإذ هم بالخروج، فوجئ بهواري يطرق الباب.

فتح له مرحبا، مبتسما ابتسامة المتشفي، ثم قال بلهجة مليئة بالسخرية:

- يا أهلا بعمدتنا!!

حدق هواري في شاهين، محاولا كتم غيظه الذي فاض.. لكن لابد أن يتماسك..

- اتفضل يا هواري يا اخويا.. الشاي المخصوص يا بت

رد هواري، وهو يزم شفتيه غيظا:

- شكرا يا شاهين يا اخويا

- يا مرحبا.. خير يا هواري يا اخويا؟

- خير إن شاءالله.. أنا لسه لتوى جاى من حدا الباشا.. كان عايزني بخصوص العيال ولاد الحافية اللي كانواع السكة العمومية

- هو شم خبر؟؟

رد هواري، وهو يراقب عيني شاهين الماكرتين:

- ايوه وقال لي لازم تعرف مين اللي انشك في قلب اللي جابوه و كأنه وز العيال البهايم ولاد الحافية دول.

- مافيش حاجة بتستخبى في البلد دي.. كله هيبان

- الباشا بيقول لي أكيد شاهين هو اللي عمل كده.

تغير وجه شاهين، المبتسم دائما بابتسامة المكر، والغرور أحيانا.. عاود هواري الكلام..

- بس انى قلت له مستحيل شاهين يعمل كده.. ده البحر الكبير ممكن ينشف إنما شاهين لأ يا سعادة الباشا أبدا!

زاد اضطراب شاهين وبهت.. يعلم ما يمكن أن ينزل به الباشا.. لكنه قاوم شعوره، ليبدو متماسكا أمام غريمه اللدود..

- انى! ايا كش اتشك في قلبي لو حصل مني..

ثم نادى زوجته أن تحضر المصحف، يقسم عليه..

أراد هواري أن ينهي ذلك الجدل، فقال مازحا:

- مصحف ايه يا راجل يا لعبي!!.. هو أنت استحميت الأول؟!..

ثم أطلق ضحكاته، لتطفئ ـ ولو قليلا ـ نار الخوف الموقدة في قلب شاهين، ودخل الرجلان في وصلة من المزاح، حتى قال شاهين، محاولا مساعدة هواري، ليقي نفسه وأهله عذاب الباشا، الذي لا يؤمن جانبه..

- اياكش أعدم نسواني الأربعة.. الموضوع ده مخرجشي من ايد العيال الأفندية

ضحك هواري، وقال ساخرا:

- جاتلك على الطبطاب علشان تتجوز غيرهم.

ضحك شاهين، وقال:

- ده انت دهنك رايق يا اخويا!

- يوسف أفندي ومحمد أفندي؟!

- ايوه.. اني بعت الواد اتصنت عليهم أصلهم عيال فاضية ماوراهمش شغلة ولا مشغلة الا الكلام في السياسة والتقطيع في جتة أفندينا والحكومة ع الزراعية وسمعهم بيضحكوا على اللي حصل

- وقعتهم منيلة بنيلة أسود من وش مدبولي. أستاذن اني بقى.. علشان انهض اخطف العشا.. أصل الشيخ صديق بيجري في الصلاة كأن هيلدغه تعبان.. والصباح رباح.

* * *

أذن الشيخ صديق للفجر بصوته الجهوري، الذي تسمعه القرية كلها، منبها لمولد يوم جديد. ينهض الخلق من فَرشاتهم، وتذهب الفتيات لتملأ القلل والزلعات من الزراعية، ومعهم ليلى بنت عبد التواب، الذي يعمل سفرجي في القصر. تمشين على ضفاف الترعة البحرية في طابور، يتمايلن ويداعبن شعرهن، ويطلقن ضحكات فيها كثير من قلة الحياء، كما يقول الشيخ صديق. يذهبن دائما دون الرجال، فيكن أكثر حرية.. وتدب بينهن الغيرة، وخصوصا من ليلى، تلك الفتاة ذات العينين السوداوين، والنهدين المتمردين على صدرها، والشفاه المكتظة قليلا، والخصر النحيف. كم ألهبت ليلى مشاعر رجال القرية، بما فيهم المتزوجين.. هي حقا ملهمة بالجمال، فضلا عن صوتها الملائكي، حين تطلب منها رفيقاتها أن تغني، ويرددن من خلفها وهن يتمايلن ويتبخترن..

ياللي ع الترعة حوِّد ع المالح

وشوف الحلوه اللي عودهاسارح

رجلي بتوجعني... من إيه؟

رجلي بتوجعني من مشى امبارح

ياللى ع الترعة حوِّد عالمالح

إيدي بتوجعني... من إيه؟

إيدي بتوجعني من غسيل امبارح

ياللي ع الترعة حوِّد عالمالح

راسي بتوجعني.. من إيه؟

راسي بتوجعني من لف امبارح

ياللى ع الترعة حوِّد عالمالح

شعري بيوجعني... من إيه؟

شعري بيوجعني من شد امبارح

ياااللي ع الترعة حود عالمالح

وسطي بيوجعني... من ايه؟

وسطي بيوجعني من رقص امبارح

ياااللي ع الترعة حود عالمالح

نادرا ما تكمل ليلى تلك الأغنية، حيث يفاجئها الشيخ صديق ورفيقاتها، فينهرهن ويسبهن..

- بنات آخر زمن.. بنات باكسه.. عينهم ميتة.. دتك وجيعه منك لها.. بنات قلالات الربايه صحيح!!

أو ربما يفاجئها رؤوف بيه.. فأحيانا يختبىء في حقل الذرة، وينتهز فرصة ابتعاد ليلى عن رفيقاتها، فيقتنص منها النظرات والهمسات، وربما أحيانا القبلات، التي يلح في طلبها، ليطفئ نار فؤاده العليل بعشق ليلى. لقاءاتهم أصبحت مؤخرًا مشوبة بالحذر، بعدما تهامست الفتيات مع بعضهن البعض عن علاقة (الولا البيه) بليلى، وتسرب الخبر إلى الباشا... علاقة كتلك أزعجت الباشا، وأعطت المجال لخيال عبد الرحيم الحلاق لينطلق، وأصابت ليلى بغيرة صديقاتها المقربات.

يضحكن ويتمايلن ناحية ليلى، بينما تهمس ست الدار إلى كويسة، وهى تنظر إلى ليلى، متعمدة أن يصل كلامها إلى أذنيها

- متعرفيش يا بت؟

- خير يا جلابة المصايب..

تقولها وهى تضحك، وتتطلع إلى ليلى هي الأخرى..

- روؤف بيه ساب البلد.

- يا حوستى.. ازاي يا بت..

ارتبكت ليلى، رغم علمها المسبق.. لكنها لا تطيق الكلام عن عشقها، الذي لن يبعدها عنه الباشا، ولا حتى الملك فاروق ذات نفسه.. هكذا كانت تحدث نفسها.

- دي كده في ناس هتموت بحسرتها.

ثم دخلت الاثنتان في وصلة من الضحك، قطعها يوسف أفندي، ممتطيا حماره الأسود، الذي يجلب عليه سخرية الفتيات.

- العواف..

ألقى عليهن التحية، وأرسل عينيه تفتش عن ليلى وسط طابورهن، يمشين، وزلع الماء فوق رؤوسهن، يسندنها بيد، والأخرى ممسكة بطرف الطرحة، يخفين وجوههن عن يوسف أفندي، مدعيات للحياء. يفتضح ذلك الحياء المصطنع مع أول ضحكه تطلقها إحداهن، فتنتشر عدوى الضحك للجميع، مما يصيب يوسف أفندي بحرج شديد، فيحاول أن يعدل طربوشه، وكأن لا شيء هناك..

تحلم فتيات القرية الزواج من أفندي، يرتدي قميصا وبنطلون، ويضع فوق رأسه طربوش. يذهب يوسف أفندي إلى المدرسة يوميا، متخذا طريق شاطىء الترعة القبلية، برغم إنه يستطيع أن يقلل المسافة إذا (شرّد) من طريق المصرف العمومي. لكنه قلبه، الذي أتعبته ليلى!. رغم علمه بعلاقة رؤوف ابن الباشا بها.

* * *

إذا أردت معرفة أي شيء عن القرية، فعليك بعبدالرحيم، حلاق الصحة. عنده مفاتيح الأسرار ومخازنها - مثل مخزن حبوب الباشا الكبير - يضع فيها الزبائن الأسرار. إلا أن هذا المخزن يفتح، مع أول سيجارة لف يمنحها له أحدهم.

لقد مر يومان، ولم يحدث جديد.. ولا زال العمدة يبحث عن الفاعل الأساسي، المجرم المستحق للشنق، الذي زن على آذان الفلاحين وحرضهم على إهانة رمز الأمة، دولة رئيس الوزراء صدقي باشا. اليوم، استدعى الباشا تيسير العمدة. وبعد وصلة السباب والإهانة المعتادة، متهما إياه بالتستر على المجرمين، أمره أن يجمع أهل القرية، برجالها ونسائها، وكل من زاد سنه عن اثني عشرة عاما في الجرن، بعد صلاة الضهر، ولا يستثني أحدا، وإلا سوف يلاقي مصيره الأسود..

بالفعل خرج أهل القرية جميعا بعد صلاة الظهر، التي أنهاها الشيخ صديق بالدعاء للملك وصدقي باشا وتيسير باشا.. يدعو والمصلون يؤمنون خلفه.. آمين.. حتى إذا جاء ذكر الباشا في دعاء، يمدون آميـــــن. هم في الحقيقة لا يسمعون الدعاء؛ ولكن ذكر كلمة الباشا هو الأهم. ولا ينسى الشيخ صديق الدعاء لله أن يمر ذلك اليوم على خير.

اجتمعوا في الجرن الواسع أمام الجامع.. الشمس حارقة، والعرق يتصبب من جباههم، ولا يعرفون سببا واحدا لمجيئهم هنا، والعمدة لا يفصح.. أخيرًا، حضر الباشا ممتطيا حصانه العربي الأبيض.. فوق رأسه قبعة أفرنجية، لتقيه شر شمس حامية الوطيس، ومن خلفه يلهث فرج ومغاروي مسرعين. بدا على وجهه ذو الملامح الغربية الغضب، وصاح بالحاضرين وهو مازال على صهوة جواده أن يصطفوا في صفين متقابلين.. حيث كل رجل أمامه زوجته.

نفذوا الأمر دون تردد، خصوصا بعدما غاب الأفندية المحرضون دوما على التمرد على الباشا. ثم كان أمر الباشا لعبد الرحيم الحلاق أن يحلق للرجال الجانب الأيمن من رؤوسهم، والجانب الأيسر من شواربهم ورموشهم!.. تعالت ضحكات مراد بيه وأصحابه بهوات البندر، وسخريتهم وهم يشيرون بأصابعهم تجاه الرجال، الذين بدوا كمهرجين، بينما النساء يتكتمن البكاء، يخفين دموعهن المنهمرة بطرحهن السوداء على وجوههن الحزينة.

انتهى الحلاق من عمله، فأمر الباشا أهل القرية إذا نادى على أحدهم، أن يرد باسم زوجته.. وأشار أولا إلى الشيخ صديق..

- اسمك ايه؟؟

رد الشيخ صديق، والدموع تملأ عينيه..

- خدامك صديق يا معالي الباشا.

اقترب منه الباشا، وصفعه على وجهه، وسط استغراب الحاضرين، وقد

بدا عليهم الانهيار، فهذا الرجل شيخ الجامع!

- انت مابتفهمش.. مراتك اسمها ايه؟؟

- خدامتك منجدة

- يبقى لما أنادى عليك اسمك ايه ترد منجدة.. اسمك ايه؟

رد الشيخ، بعد أن أخذ برهة من الوقت يستجمع الكلمات، والدموع تنساب على وجهه، وقد ثقل لسانه..

- منجدة..

ضحك مراد وأصدقاؤه، وأخذوا يرددون.. منجدة ههههه منجدة ههههه.. اسمه منجدة ههههه

تابع الباشا سؤاله المهين للفلاحين، فيردون بأسماء زوجاتهم، حتى لم تعد بشرته البيضاء تتحمل الشمس، فانصرف ومراد بيه إلى القصر، متوعدا الأفندية بحساب عسير لا قبل لهم به، وتركا الفلاحين في الجرن، يتلقون لعنات حر السماء، كأنها تواطأت عليهم هي الأخرى لتنتقم لدولة رئيس الوزراء.. دائما يحدثهم الشيخ صديق أن السماء تغضب عندما يهان ولي الأمر..

أمر الباشا أخيرًا بانصراف الجميع. انهمرت الدموع من عيني العمدة هواري.. حاول كتمانها، لكن القهر كان أقوى من محاولاته.. نظر عبدالباسط الخفير إلى العمدة، فانهمرت دموعه هو الآخر، بينما حاول شاهين إخفاء عينيه الدامعتين وقال ممازحا:

- مالك يا عمدة.. بقى يا راجل هتعيط زي الولايا!؟

كانو ا يمشون في طابور، وكأنهم أسرى حرب، يتلقون السخرية والتهكم من مغاوري الجديد، الذي نجا من تلك الفاجعة.. لقد أودي بكرامتهم إلى الأبد أمام نسائهم.. فانصرفوا إلى بيوتهم، منكسي الرؤوس.

مصمص الشيخ صديق شفتيه، وهو ينظر إلى مغاوري، وقال وهو يتنهد بحسرة..

- آه يا زمن!!

رد عويضة أبو شلتوت، وفي حلقه مرارة..

- ماعادش إلا الأجرب الهربان من التار يتكلم..

عاود الشيخ حديثه بصوت منخفض يملؤه الحزن والأسى

- آه يا بن الكلب لو كنت أعرف.. مكنتش فكيت ربطك.

كان مغاوري مثار سخرية الفلاحين، وخصوصا الشيخ صديق.. فقد ظل أكثر من شهرين لم يمس زوجته، وأحضر له مدبولي(ملاحظ الأنفار) المشايخ من القرى المجاورة، لكنهم عجزوا عن علاج المسكين من أجل عروسه البائسة، إلى أن شحب وجهها، ولم تعد تأكل.. فلم يعد غير الشيخ صديق، رغم الخوف من أن يفشى السر.. لم يود مغاوري أن تعرف القرية أمره، لكن ما باليد حيلة.. المشايخ يأتون، ويظفرون بذكور البط والأوز بدون طائل، وهو يرقد بجانب ست الحسن كأختها..

قضي الأمر، وحضر الشيخ صديق بعد صلاة العشاء، حيث تكون القرية جميعها قد خلدت إلى النوم. دخل الشيخ وأخذ يقرأ بعض الكلمات غير المفهومة، من ورقة فيها كلمات تقرأ بالمقلوب.. ثم طلب من العريس أن يقرأ الفاتحة على إناء ماؤه مر، ثم يشربه.. ويغلي ورق الغار، ويستحم به، وينام على حجاب مكتوب، ملفوف تحت مخدته. وطلب من مدبولي أن يذبح عشر ذكور بط ثقال.. ولا يستخسر.

ذبح مدبولي البط، فأمره برش دمائها على العتبة، لتمر عليها ست الحسن عشرين مرة.. ثم غمز بعينه لمغاوري وهو يضحك..

- ادخل واحنا مستنين يا سيد الرجالة..

وخرج مغاوري وست الحسن، وقد أقبلا على الدنيا، والضحكة مرسومة على محياهما، وكأنهما ليسا هما الشخصين اللذين دخلا الغرفة منذ لحظات.

حضن مدبولي الشيخ صديق، وزغردت أم ست الحسن، وأبدت ست الحسن خجلا مصطنعا. وهمس مغاوري في أذن الشيخ صديق:

- محدش يعرف حاجة يا شيخ

- سرك في بير أرض الباشا التحتانية يا مغاوري

سألت أم ست الحسن الشيخ، وهى تعقد حاجبيها على شكل سبعة وتشمر عن ساعديها متوعدة

- قوللى مين المرة الواطية الكيادة اللي عملت كده؟

- القرين ماقالشي.. بس انتو تحمدوا ربنا..

سأله مدبولي..

- ألف حمد.. بس ليه؟

- ده كان معمول له عمل.. مربوط في سمكة في البحر الكبير.. كل ماتتحرك.. يتعفرت ويتجنن ومايعملش حاجة.. الواد ابوالعلا ابن وجيهة الداية قعد سنتين مربوط.. المرة مرات عمه كانت عايزاه لبنتها اللي بارت وهو راح خاب وجاب بت غريبة عن البلد.. قامت عملت له عمل وحطاه في بؤ ميت. الواد اتعذب.. مراته قدامه ومش ساجر يقرب لها.. لحد ما ربنا قدرني....

استاذن مغاوري مبتسما، وهو يبرم شاربه..

- عن إذنك يا سيدنا..

ـ إذنك معاك يا سبع السباع.. اوعى الحجاب تحت المخدة

دخل مغاوري، تتبعه ست الحسن بطشت الماء، وانصرف الشيخ صديق، محملا بذكرين بط سمان.

ولم تنته حكايات مغاوري والشيخ صديق!

* * *

عاد رؤوف بيه إلى القرية، بعد غياب عنها دام تسعة أشهر، أمام امتعاض الباشا من مجيئه المفاجىء من فرنسا، حيث يدرس. انتشر الخبر في القرية، حتى وصل إلى مسامع كويسة، التي ساءتها الحالة النفسية السيئة لليلى بعد رحيل البيه، فهي لم تعد تضحك ولا تمرح ولا تغنى بصوتها العذب، كما كانت، وأصبح وجهها شاحبا، كأنها ابنة الأربعين.

طرقت كويسة باب دار عبد التواب، ولا أحد يرد.. وجدت الباب مغلقا بـ (عصفورة).. فزاد قلقها، فهى تعلم أنها بالداخل. أزاحت العصفورة من الخارج بعود حطب، ودخلت إلى ليلى في حجرة المعاش، فوجدتها تدمع دون صوت، فاحتضنتها، وجففت دموعها. بشرتها بأن لديها مفاجأة لها، قد تعيد إليها روحها وقلبها الغائب عنها منذ تسعة أشهر.. نظرت إليها ليلى باستغراب، متلهفة لسماع تلك المفاجأة، وتمني قلبها أن تكون ما خمنته..

ـ الولا الحيلوه ابن الباشا..

ـ حصل له ايه؟؟

ـ رجع البلد.. لسه سامعة عبد الرحيم الحلاق بيتكلم مع الزباين

ـ بجد يا بت يا كويسة؟؟؟

ـ ايوه بجد يا نعيمة!!

ثم أطلقت ضحكاتها، لتحفز ليلى على الضحك.. فابتسمت ليلى ابتسامة حذرة، بينما تواصل صاحبتها..

- حسن جالك يا نعيمة هياخدك على حصان أبيض ويتدلى ع البندر..

لا يقوى رؤوف على مفاتحة أبيه لخطبة ليلى بنت عبد التواب.. يعلم أن العاقبة ستكون وخيمة عليها وعلى عبد التواب، الذي ترك القصر، ليعمل في حظيرة المواشى.. سوف ينتظر حتى ينتهي من دراسته ويتزوجها، بعدما يكون قادرا على اصطاحبها وعبد التواب بعيدا عن يد الباشا الطائشة الباطشة.. مسكين عبد التواب.. ليس لديه غير ليلى، التي أنجبها عن عمر كبير، تعيش معه بعدما ماتت زوجته.

ولعبد التواب طبيعة مسالمة، كل ما يحلم به أن يرى ابنته الوحيدة (في كوشة الفرح، جنب عريسها، ابن الحلال اللي يصونها) وخصوصا أنها سوف تكون مقطوعة من شجرة بعد وفاته. كم يحلم عبدالتواب بذلك اليوم.. سوف يجهز لها فرحا لم تشهده القرية من قبل.. سوف يجلب عوالم من البندر لتحي الفرح.. سوف يعزم الباشا تيسير وكبار الناحية..

يتوافد على داره الخطاب من كل مكان، يمنون أنفسهم بموافقة ست الحسن والجمال، التي ألهبت مشاعرهم جميعا بحبها.. ليلى، تلك الجميلة، ذات العينين الناعستين.. كم من صديقين حميمين أصبحا عدوين لدودين، لمنافستهما على قلبها، الذي يملكه رؤوف بيه.

بحث رؤوف عن طريقة لرؤية ليلى.. اشتاق إليها كثيرا.. يريد أن يطمئن على قلبه، الذي تركه معها منذ سافر.. لكن لابد أن يلتقيا بعيدا عن أنظار الباشا، وعيونه في كل مكان. سوف يستخدم مغاوري، ليصبح عميلا مزدوجا بينه وبين الباشا. يعلم أن مغاوري قد يسجد "للقرش صاغ"، فما بالك بالجنيه ربه الأعظم.

استدعاه، قائلا إنه يريده في مهمة سرية، سوف يجني منها جنيها كاملا، فقط إذا نجح في مهمته.

بالطبع وافق مغاوري دون تردد ولا تفكير، فأعطى له خطابا مغلقا، فيه رسالة من العاشق الحائر المتلهف:

إلى ليلى، ملكة الحب والجمال وإلهة العشق.. شمس النهار وقمر الليل.. معبودك يسألك اللقاء في محرابك أيتها الآلهة، يتوسل إليك ألا تتأخري.. فقلبه توقف انتظارا لطقوس الحب والعبودية لك، أيتها الآلهة المقدسة.

أخذ مغاوري الرسالة خفية، مخافة أن يعلم الباشا تيسير، الذي طلب منه من قبل أن يراقب البيه في كل تصرفاته. استلمت ليلى الرسالة، فكاد قلبها يتوقف من الفرحة.. كانت قد أصابها اليأس من رؤيته.. مازال يتذكرها.. سوف تبذل قصارى جهدها، لتذهب إلى شجرة الصفصاف البعيدة عن الأنظار.. سوف تتحجج لأبيها بزيارة كويسة. ارتدت فستانها المزركش الملون، ذا الكرانيش الزاهية الألوان، الضيق عند خصرها، فيظهر نحوله مع أردافها المتناسقة.. فوق رأسها طرحتها، تظهر خصلتين من شعرها الناعم بالجانب.

هناك تحت الشجرة، قبل غياب الشمس بقليل.. ينتظر رؤوف متلهفا، ينظر إلى الزراعية. هناك، من بعيد، يطل طيف جميل.. قلبه يكاد ينخلع من مكانه.. إنها ليلى!! تنظر ناحية الشجرة هي الأخرى.. يكاد قلبها يرقص..

همس اليها بلوعة محب:

- ليلى!!

لم تنطق ليلى ببنت شفة.. لا تصدق أنها تلتقي به ثانية..

- وحشتينى قوي..

مد ذراعيه ناحيتها، فلم تردهما، حتى التفا حول خصرها، فأجهشت في

البكاء، وهو يقبلها، وتحتضنه بشدة، تخاف أن يتركها ثانية. يمسح دموعها، يطالبها بالكف عن البكاء، لأنه لن يتخلى عنها أبدا

- يعني مش هتسيبني تاني؟؟

- مش هسيبك..

- طب أحلف بسيدي السيد البدوي؟؟

- وسيدي السيد البدوي.. خلاص؟

- الدنيا من غيرك كانت ضلمة يا سي رؤوف

- مش اتفقنا بلاش سيدي

- ازاي دا.. أنت سيد قلبي وسيد دنيتي

- ياسلام على الكلام الحلو

- آني كنت زي اللي غرقانة في البحر الكبير من غيرك.. اوعى تسيبني وتنساني.

- أنساكِ ازاي بس.. حد ينسى قلبه!!

- عن إذنك بقى.. أروح قبل ما ابويا يستعوقني.

- نتقابل بكرة زي الوقتى

أومات ليلى برأسها بموافقة خجولة، وانصرفت، لتجد أباها ينتظرها، وقد أصابه القلق على وحيدته. سألها عن سبب تأخرها، فتحججت أنها كانت تساعد كويسة في الخبيز.

يخاف عبد التواب على ابنته من الليل، ويتمنى ألا تخرج، وخصوصا عندما

تذهب إلى دار عوضين والد كويسة، لأن الجرن المطل على داره مسكون من زمان بعفاريت، بعد مقتل سامبو هناك وسفح دمه..

القرية كلها تعرف أن هذا المكان مسكون، لذلك لا يقوى الكثير منهم على المرور من تلك المنطقه ليلا، وخصوصا إذا كان القمر غائبا.. أما الذين أكلوا كبد الذئب، فهم لا يهابون العفاريت. ويقال إن عوضين كان ساهرا على ري الأرض البحرية (معلق الساقية).. فوجد امرأة جميلة، تضفر شعرها الطويل، وترضع طفلها، على شاطىء الزراعية. ارتبك عوضين، ولم يقو على الحديث ولا الحركة، حتى أصيب بالصمم والشلل، وهي تضحك مع رضيعها، ثم التفتت ناحيته، وأشارت إليه بإصبعها أن يقترب منها، لكنه لم يستطع.. فنهضت ناحيته، فكت ضفائرها، تدلى شعرها حتى لامس الأرض.. حاول أن يستجمع بعضا من شجاعته، التي اكتسبها من قبل من أكله كبد الذئب.. بدت حسناء، نادت عليه بغنج العاشقات..

- ماتخافشي يا سي عوضين

ردد عوضين..

- يا وقعة سودا.. دى عارفة اسمي!!

ضحكت الجنية

- ايوه.. احنا نعرف كل حاجه عنكم

- عايزه مني ايه؟؟

- رايداك يا سي عوضين

- رايداني ازاي!!

- تتجوزني وتيجي تعيش حدانا

- وعيالي ومراتي أعمل فيهم ايه؟!

- انساهم

- ابوس ايديكِ يا ست الجنية.. العيال لسه يدوبك زي الكتاكيت الخضرة عايز أربيهم

- خلاص آني موافقة.. بس تتجوزني هنا في الغيط.. وتجيلي كل يوم تلات وخميس بالليل

- هو مافيش غيري يعني؟ ماعندك رجالة العزبة كتير اشمعنى اني؟!

- آني مش رايده غيرك وهاتجوزك قلت ايه؟

- أمري لله

تزوج عوضين من الجنية، تلك الزيجة التي منحته الثقة والبقاء بجوار الجرن المسكون. يتحاكى الأطفال عن شجاعته وقوته في مواجهة (أبورجل مسلوخة) والجنيات والعفاريت الزرق، وحتى النداهة تخشاه..

ذات مرة، كان معلق الساقية ليلا ـ كعادته ـ ليقابل زوجته الجنية الجميلة، التي تحبه وهو يبادلها المشاعر، بل وأنجب منها طفلة جنية.. في تلك الليلة، إذا بحمار أسود يأتي من بعيد، يتجه ناحيته. ظل عوضين ثابتا، فهو لا يخاف، وزوجته الجنية سوف تحميه لو تعرض لمكروه.. أحضر مسلة، كان يستخدمها في حياكة أجولة القمح.. أخفاها وراء ظهره، حتى اقترب منه الحمار، ووضعها خلسة في مؤخرته، وامتطاه، ولا زال يستخدمه إلى الآن..

أطفال القرية يحكون الأساطير، جاعلين عوضين بطلا، لا يهاب العفاريت، حتى ولو ظهرت على هيئة قطط وكلاب سوداء. يحكون عنه حبه للعفاريت والجنيات، بعكس رجال القرية، الذين يرتعدون من سيرتها.. يحكون عن عليوة، حين مر بجوار الساقية المهجورة، بعد عودته من البندر في ساعة متأخرة

من الليل، ووجد طفلا يبكي، فحمله، عسى أن يكون أحد أبناء القرية. حتى إذا وصل إلى القرية، تحول الطفل إلى قالب من الطوب اللبني، فبهت عليوة، وانتفض جسده النحيل، وأصيب بالخرس، وظل حبيس الفراش قرابة الخمسة أشهر، وربطته تلك الواقعة، ولم ينجب إلا بعد سنين طويلة!!

الأطفال يخافون تلك الحكاوى، وخصوصا عندما يجن الليل، ويسود الظلام.. لكنهم عندما يجتمعون، تتسرب هذه الحكايات إلى حديثهم.. تبدأ، ولا تنتهي إلا بتوسل الصغار للكبار أن يرجعوهم إلى بيوتهم، قبل أن تقابلهم عفريتة!!ويعيشون ليلهم في قلق من الجنية وعفاريت القتلى، وحين يغلبهم النعاس يبللون فراشهم.

* * *

انتظر رووف بيه ليلى في مكانها المعتاد. لكنها تأخرت.. الشمس تهم بالرحيل، ليحتل الظلام موقعها، وينسج خيوطه السوداء. وأخيرا أتت. لهفتهما للقاء تبقى كما هي.. ورؤوف عطشان للحب، الذي لن يروي قلبه به سوى ليلى..

- لما نتجوز

- بحبك ومش قادر

اقترب منها.. جذبها ناحيته بعنف.. شعرت بسخونة أنفاسه تلفح رقبتها.. حاولت أن تبعده، وهو يتوسل إليها أن تسقي عطشه.. ألح أكثر، أخذ يقبل رقبتها بجنون، وهى تتوسل إليه

- ابعد ياسي رؤوف اعمل معروف

التصقت شفتاه بشفتيها، التهمها كجائع لم يأكل منذ سنين.. سقطت على الأرض.. ظهر ساقاها الرائعين.. لم يعد يحسب العاشقان مايفعلاه، وغرقا في الحب كالسكارى..

وحين انتهيا من سكرتهما، أفاقت ليلى على الدماء بين فخذيها.. صرخت.. هو العار إن لم يتزوجها رؤوف. أخذ يهدئ من روعها، ويؤكد لها أنه لن يتخلى عنها، وأنها من الآن زوجته..

* * *

اليوم ليس عاديا في القرية.. الشرطة تنتشر في كل مكان.. لم تتعود القرية على هكذا أحوال.. دار الجدل.. بين من قال إن هناك هاربين من مصر أتوا ليحتموا في دار يوسف أفندي، فارين من القلم السياسي، ومن قال إنهم أتوا بتوصية صدقي للانتقام من القرية. مثل هذه الظروف فرصة ذهبية لعويضةأبو شلتوت، ليضرب بخياله أعماق الأرض، ويرتفع به إلى عنان السماء، فيحلل هذه الأمور بتحليله الخاص المبتكر، الذي يبهر به أهل القرية.. كل المطلوب كوب شاي (في الخمسينة) وسيجارة لف من تهامي البقال، ثم يدلو شلتوت بدلوه.

ها هم جالسون أمام بقالة تهامي يتدبرون.. على المصطبة، أمام الدكان يدخن السيجارة ويرشف الشاي، ويمتع الفلاحين الجالسين أمامه بحديثه الممتع المرتب، الذي يستخدم فيه بعض الكلمات التي تعطي نكهة المثقفين لحديثه..

- الحرب العالمية انتهت وانتصر الانجليز على هتلر في معركة العلمين

قاطعه أحدهم فاغرا فاه

- مين العلمين دي ياعويضة؟

- انت مش عارف العلمين يا بجم؟!.. معذور هتعرفها منين.. وأنت طول النهار عايش مع البهايم

ضحك الجميع من رد عويضة، وإن كانوا مثل السائل لا يعرفون، ولكنهم

يتجنبون ما ناله هذا السائل من سخرية.. تابع عويضة حديثه، بعدما ارتفعت روحه المعنوية لاستجابة الجالسين لسخريته من زميلهم..

- روميل ثعلب الصحراء خد علقة موت ماخدهاش حرامي في مولد من الجماعة الانجليز

ضحك الجميع، وإن تبادر إلى ذهنهم سؤاله: من روميل وما هي حكاية ثعلب الصحراء؟ لكنهم اكتفوا بفتح فيهم، ليواصل حديثه، وهو يشير بسبابته ناحية رأسه.

- علشان كده الانجليز جايين البلد يدوروا على روميل.. يمكن يكون متاوى حدانا في البلد

رد الجميع:

- في البلد ازاي؟؟!!

- في الغيطان اللي حوالينا.. زمانه بيلبس زي العرب علشان مانعرفهوش ونقول إنه عرباوي

رد يوسف أفندي، الذي أتى لتوه، ساخرا ومتهكما من عويضة

- اشجينا يا عويضة كمان وكمان يا ابوالعريف!!

امتعض عويضة، وتغير لون وجهه لمجيء يوسف المفاجيء..

- ايه انت عامل لي فكيك وبتفهم أنت والأفندية وأنتم ماتعرفوش حاجة.. تقدر تقول لي مين روميل؟

رد يوسف ساخرا من عويضة، الذي يريد أن يغير دفة الحديث..

- مش عارف يا فكيك!! بس روميل مات من سنتين في بلده.. جايز الانجليز بيدوروا على جثته في مصر!!.. أصل هو من الأوليا.. جثته

طارت بعد موته وجات من بلده لمصر وسقطت غلط في بلدنا..
يكونشي كان موصي يندفن هنا!!!

أطلق ضحكاته الساخرة، وسط ذهول الفلاحين، الذين لم يفهموا نصف الحديث الدائر، حتى أقبل العمدة هواري، يتبعه عبد الباسط الخفير، فألقى التحية، ثم قال..

- الباشا عايزكم الوقتي

رد الجالسون:

- خير يا حضرة العمدة

- ماقالليش.. يا خبر الوقتي بفلوس بعد نص ساعة هيبقى ببلاش

- جيب العواقب سليمة يا رب

- خير إن شاء الله

ذهب الجميع، إلا يوسف أفندي، الذي تمرد كعادته على العمدة، ولم يذهب معهم. هناك، أمام قصر الباشا، كان في انتظارهم مراد بيه وفرج خفير الباشا.. أخبرهم أن صدقي باشا سيأتي إلى قريتنا الليلة، وعلى أهل القرية كاملة، برجالها ونسائها وشبابها وفتياتها وأطفالها وشيوخها الحضور، وتقديم الاعتذار الصريح الواضح لمقامه الرفيع، لعلى وعسى أن يغفر لهم ماتقدم منهم من إساءة.

قال عويضة:

- عندك حق يا سيدنا البيه.. اللي مالوش خير في الحكومة مالهوش خير في أهله أي والله.

وزاده الشيخ صديق والخوف يملأ عينيه..

- وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم.. مش كده يا رجالة البلد؟

رد الجميع بصوت واحد:

- ايوه يا مولانا كده

وتفرق الفلاحون إلى ديارهم، ليجمعوا ذويهم، ليقفوا أمام قصر الباشا، لتقديم واجب الاعتذار لدولة رئيس الوزراء صدقي باشا.

وكعادتهما، رفض محمد أفندي ويوسف أفندي الذهاب.

* * *

ظل الجمع واقفين صامتين، لا يقوون على الحديث، أطفالهم يصرخون جوعا وعطشا، وقد مر على وقفتهم أمام القصر أكثر من خمس ساعات، ولم يأت صدقي باشا. لم يخرج مراد بيه، ولا حتى فرج، ليخبرهم لماذا تأخر. داخل القصر، الباشا يتصل بالقاهرة، بجواره مراد بيه وفرج.. سقطت السماعة من يده، فسأله مراد جزعًا، فرد:

- صدقي باشا ساب الوزارة

خرج فرج من القصر، وزعق بالناس غاضبا:

- غوروا في داهية داتكم الغم وانتم بلد نحس.. نفسي أولع فيكم عشان ارتاح من نحسكم اللي مابيخلصشي أبدا.. دا حتى الخضرا في إيدكم ناشفة!

رد عويضة، كعادته في ركوب الموجة:

- على قولك يا فرج يا اخويا.. دول لو مسكوا عود البرسيم بينشف ويتحول لدريس..

رد فرج، فيما يبدو غاضبا من مناداة عويضة له بفرج دون لقب:

- غور يا جدع انت مش نقصاك.. روح في داهية بعيد أنت كمان

عاد الفلاحون إلى بيوتهم، لا يعلمون ماحدث.. ينتظرهم أمام دكان تهامي يوسف أفندي ومحمد أفندي، بمشاعر يمتزج فيها الفرح لرحيل صدقي باشا، والحزن على جهل القرية. سأل يوسف أفندي عويضة متهكما:

- احكيلنا جرى ايه يا ابوالعريف؟!

اكتفى عويضة بنظرة رمقه بها، ومضى في طريقه إلى داره مع الباقين، بينما جلس الصديقان المختلفان في فكرهما، المتجادلان دائما، والمحتفظان بصداقتهما بعيدا عن أفكارهما رغم حدة خلافهما أحيانا. لاحظ محمد أفندي التغير على وجه يوسف أفندي، فسأله:

- مالك يا يوسف؟

لم يرد يوسف، وبدا شارد الذهن..

- أنا باكلمك يا يوسف.. ولا انت سرحت كمان.. تكونشي عايز تتعين في وزارة النقراشي؟ ههه

- انت فايق ورايق يا محمد..

- أمال في ايه يا صاحبي؟

- البت ليلى!

- ليلى! مش هتنساها بقى بعد ما عرفت أنها بتحب ابن تيسير؟؟!!

- مش قادر. وبعدين الواد سافر

- رجع تاني

- بقاله عشر شهور وأكيد نسيته

- ناوي تعمل ايه؟

- أروح أخطبها

- فكرت كويس؟

- هاروح الليلة مش هستنى لليلة الجاية.. قلت لابويا عبد التواب اني عايز أقعد معاه شويه

- بسرعة كده!!.. بالتوفيق يا يوسف.. مش هتلاقي احسن منك.. ومقدما: بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير

ضحك يوسف..

- ماتقاطعشي قول يارب.. يوقع الهدى.. ادعي لي أصل دعوة الإخواني مستجابة

- ودعوة الشيوعي؟!

* * *

طرق يوسف أفندي باب عبد التواب، ففتحت ليلى.. نظر إليها وفي عينيه ابتسامة خجولة، وسألها وعيناه تطلبان الرضا..

- أبويا الحاج عبد التواب موجود؟

رد عبد التواب من الداخل:

- اتفضل يا يوسف أفندي.. تعالى آني هنا في المندرة.. اعملي شاي يا ليلى..

أعدت ليلى الشاي، وأحضرته إلى الضيف الجالس مع أبيها. تمتلىء عيونها

بحزن، لا يعرف أبوها سببه. كانت تلاحظ بطنها خشية أن تكبر، ولا تعرف ماذا تفعل، فقد سافر رؤوف ثانية إلى فرنسا، واعدا إياها بالزواج.. لكنه لا يعلم أن تلك اللحظات التي قضياها تحت شجرة الصفصاف، وتمرد الحب فيها على كل الموانع، قد أدت إلى تلك النتيجة..

قدمت الشاى للعريس الغافل، الذي لا يعرف أن العروس حامل في الشهر الثاني..

- اتفضل يا يوسف أفندي

- يزيد فضلك يا عروسة..

نظرت ليلى مستغربة.. فاجأتها كلمته، فما بها من الألم يكفيها. خرجت، وألقت بأذنها من الخارج، لتتلصص لما يدور..

- خطوة عزيزة يا يوسف..

- ربنا يعز مقدارك يا ابا عبد التواب

- ده احنا زارنا النبي.. كنت عايزنى في ايه؟

- آني جاي طالب القرب منك

- يا ألف نهار ابيض.. دا يوم المنى.. آني هلاقي أحسن منك لبنتي؟.. آنى هاخد رأيها وهابلغك موافقتها إن شاء الله

- خلاص اسألها وأنا مستني اهو

- هو في حموتها كده يا يوسف أفندي؟!

- خير البر عاجله

- سيبني يومين كده وهابلغك موافقتها.. انت عارف ماليش غيرها.

زادت ورطة ليلى أكثر، وأصبحت في تيه، لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، وكأنها سقطت في بئر عميق، ولا تستطيع أن تطلب نجدة تنقذها من الموت، مهابة الفضيحة والعار.. رؤوف لن يعود إلا بعد تسعة أشهر، فالفضيحة آتية لا محالة، في القرية التي تتخذ من مآسي الناس حكايات تتغذى عليها، كما تتغذى الطحالب على الفطريات.. كانت تفكر في أبيها، الذي حرم من متع الحياة لأجلها.. يبدو أن سوء الحظ هو الصديق الوفي لها، لا يفارقها منذ ولدت. ماتت أمها بعد ولادتها، ولا أخ ولا أخت، وها هي مقبلة على فضيحة تسرع نحوها، كما مياه النيل أيام فيضانه. لم يعد أمامها سوى حل واحد.. الموت!.. هذا ما قد ينجي أباها من ألسنة القرية المتحفزة، التي تشبه السيوف المسلولة.

حاولت جاهدة الاتصال برؤوف، ولا سبيل إلا مغاوري. لمحته يمشي على (السكة الوسطانية) وحيدا، فنادته.. أخبرته باكية بما حدث بينها وبين رؤوف بيه.. بأنها في ورطة، لن يخرجها منها إلا هو.. وطالبته بالتوسل والدموع أن يصل بأي طريقة لرؤوف، لكي يعود وينتشلها من مستنقع الفضيحة، وأكدت له أنه عندما سيعود سيكافئه على وقفته معها. ووافق مغاوري، وطمأنها أنه سيتصل به تلغرافيا دون معرفة أحد..

لن يغامر مغاوري بوظيفته، وربما حياته، ويستدعي روؤف. سيتهمه الباشا بالتقصير في مراقبة رؤوف، وسيطرده، وقد يجبره على العودة إلى العمل في السخرة، التي تسبب له الكوابيس إلى الآن. ليس أمامه إلا أن يصارح الباشا.. بالطبع سيكافئه على حماية ابنه من الفضيحة.

حين علم الباشا، كان القرار الذي اتخذه في أقل من دقيقة هو التخلص منها، وإلقائها وسرها في البحر الكبير، على أن يقوم مغاوري بالمهمة.

* * *

انتظر عبد التواب ابنته ليلى.. سألها عن سبب تأخرها، فادعت أنها كانت

في حنة كويسة بنت عوضين.. أخبرها بمجيء يوسف أفندي يطلب يدها، وأنه ينتظر رأيها.. يوسف أفندي عريس (لقطة) تتمناه أي فتاة في القرية.. سيحافظ عليها لأنه يحبها.. سيخاف عليها من الناس وأعينهم التي تحاصرها في كل مكان، فقد أصبحت كالوردة اليانعة وحان وقت قطافها، وتحلم الأعين التي تحاصرها بقطفها، إلا أنهم ليسوا بمستوى يوسف أفندي، ولا في شهامته ورجولته. نظرت ليلى في عيني أبيها، التي تمتلىء بالسعادة، بعينيها البائستين التعيستين الشاردتين. تحبس دموعها حزنا على كرامة أبيها، التي ستضيع على ألسنة القرية.

استغرب عبد التواب نظرة ابنته.. سألها لم؟ العريس لقطة، زين شباب البلد وكباراتها. تعللت ليلى بإرهاقها، بعد يوم شاق قضته في دار عوضين مع صديقتها كويسة.. تريد أن تستريح قليلا، ثم تفكر في الأمر مليا. عبد التواب عاهد نفسه ألا يجبر ليلى، ابنته الوحيدة، الزواج من أحد، حتى لو كان يوسف العريس الحلم بالنسبه له. لكنه يلاحظ التغير على وجه ابنته منذ شهرين.. لم تعد تجلس معه كثيرا كما كانت، ولا تمازحه.. لم يعد لديها الرغبة في لقاء صديقاتها.. تفضل الوحدة دائما.. طالما سألها، وكانت الإجابة المتكررة: آني كويسة بس عايزة اقعد لوحدي شوية..

* * *

أمام دكان تهامي، يجلس أهل القرية، ممن انتهوا من أعمال الحقل الشاقة.. يشترون السجائر ويدخنون، يمازحون البعض بما حدث أمام قصر الباشا، وما جرى لعويضة أبو شلتوت على يد فرج خفير الباشا. ويضحكون ويزداد ضحكهم، عندما يقلد عبد الرحيم الحلاق فرج وهو يسب عويضة. وعليوة يقلد عويضة محرجًا، وينظر إلى من حوله، ويخفي وجهه خجلا. وفي غمرة الضحك، أتى عوضين، فنهض الجميع مهنئين بزواج كويسة من مدبولي الصغير ابن مغاوري. نادى عوضين على تهامي، فرد..

- يا مرحبا يا ابوالعروسه

- هات لى علبة سجاير مكنة

رد تهامي، وهو يحاول أن يتكتم غيظه وحنقه

- علبة سجاير مكنة مرة واحدة؟!

- أومال مرتين يا خفيف!

- بس حسابك تقل قوي

- آني باقول لك هات لي علبة سجاير مكنة.. هتجيب وللا لأ؟

- وآني مش هديك إلا لما تدفع اللي عليك.. قلت ايه بقى؟

- خلاص خليك قد قولك بقى

ارتعد تهامي من تهديد عوضين المخاوي.. قد يسلط عليه زوجته الجنية أو أحد أبنائه منها.. لام نفسه كثيرا.. تسرع في رفض طلب عوضين؛ لكنه دعا الله أن ينجيه وأهله وبضاعته من الإنس والجن. عاد إلى رشده.. سوف يذهب إلى دار عويضة لتهنئته بزفاف ابنته، وسيهديه علبتين سجائر مكنة مرة واحدة..

الزينة معلقة على مداخل القرية، والحفل ستحييه (غوازي) من البندر.. الجميع مشغول بالحفل.. كويسة في الكوشة بجانب مدبولي.. اصطحب تهامي أبناءه وأغلق دكانه، ووجد القرية جميعها في الفرح.. النساء يتغامزن ويضحكن، ويخفين وجوههن يلعنّ الغوازي وقلة حيائهن وكلامهن القبيح.. ويلعنّ الرجال الذين يتطلعون إلى الغوازي، وكأنهم لم يروا لحما من قبل.. تتملكهن الغيرة ممن صرفن اهتمام أزواجهن عنهن، لكن غيرتهن لا تصل لأزواجهن. كان رجال القرية كالجوعى، يتابعون حركات الغوزاي بشغف، ويصخبون بالمزاح.. قال عبد الرحيم الحلاق:

- شوف النسوان يا شيخ.. شوف الحلاوة.. نسوان البندر دول نسوان مستحمية بصابونة ريحة.. مش البهايم اللي حدانا اللي بيستحموا بالجلة ع الصبح.. اخ يا ما نفسي اتجوز بندريه!

رد الشيخ صديق:

- على قولك يا واد يا عبده.. دول غفر مش نسوان.. دول لو راحوا البندر هيقولوا عليهم رجاله

ضحك الجميع على كلام الشيخ صديق، ورد عويضة ابو شلتوت متهكما:

- قول لنا كمان يا شيخ الجامع!

رد الشيخ صديق باسما:

- ايوه ساعة لربك وساعة لقلبك

همس عبد الرحيم الحلاق في أذن الشيخ صديق مبتسما..

- الولا ابن مغاوري هيعرف يعمل حاجه الليلادي وللا هيبقى زي اللي جابه؟

ابتسم الشيخ

- آني جاهز لو عازني.. هو شكله مش هيفتل حبال مع البت بنت المخاوي ادعوله!

القرية كلها مشغولة بحفل زفاف مدبولي وكويسة.. لا أحد في داره إلا ليلى، تحججت لأبيها بتعبها. ترك عوضين المخاوي زفاف ابنته، وذهب لعملٍ انتواه.. كسر عوضين باب دكان تهامي، وجرده من البضاعة.. بحث عن النقود، فلم يجد غير ثلاثة تعريفة.. وعاد إلى زفاف ابنته يرحب بأهل البلد، واعدا إياهم برد مجاملتهم.

رآه تهامي، فنهض من مجلسه على القياس الحصير. صافحه واحتضنه، مهديا إياه علبتين سجائر مكنة، فشكره عوضين مبتسما.

انتهى الحفل وانفض الجمع. وفي الطريق، مر تهامي بدكانه، فإذا به خواء مجرد من كل شيء. صرخ في الشارع:

- روحولي يا هووو.. شقا عمري راح.. يا أيامي السودا ياني.

جرى الجمع الخارجين من الحفل ناحيته، يسألونه عما حدث.. أشار إلى دكانه الخالي، ففوجئوا، وحاولوا أن يهدئوا من روعه، لكنه أخذ يلطم خده ويمزق ملابسه ويبكي كالعويل.

مشط الشباب مداخل ومخارج القرية، بحثا عن اللص الذي جرد تهامي من بضاعته، بدون جدوى.. فأشار عليوه..

- انت مش زعلت عوضين المخاوي؟

لم ينطق تهامي، بل زاد في عويله، فرد آخر:

- يبقى الجنية مرات المخاوي هي اللي عملت كده

زاد أبو شمروخ:

- يبقى عليه العوض يا تهامي ويعوض عليك ربنا.. اللي يروح عند الجن مابيرجعش

ربت عويضة على كتف تهامي، وقال له ناصحا:

- انت تقوم دلوقتي تستسمح عوضين أنه يكلم الجنية مراته..

واستسلم تهامي لرأيهم.. اصطحب بعضهم معه، وذهب إلى دار عوضين، متأسفا عما بدر منه، ومتمنيا أن يكون أسفه مقبولا، وسأله أن يتوسط له عند زوجته. ارتدى عوضين قناع الأسف لما حدث لتهامي، ووعده أن يبذل

الجهد لإقناع السيدة زوجته، وإن كان يعرف كم هى عنيدة (رأسها ناشفة)، وخصوصا عندما يكون الأمر خاصا به.. فهي لا تقبل من أحد إهانته، وعقابها فوري.. وأخيرًا، طلب منه أن يمهله يومين..

* * *

انتهى مغاوري من زفاف ابنه، وتفرغ لما أمره به الباشا تيسير، طامعا في المكافأة الكبيرة، فسوف يكون ساعده الأيمن بدلا من فرج حال التنفيذ. وعنددار عبد التواب، الذي يعرف أنه الآن في حظيرة الباشا يرعى البهائم، فتحت ليلى لمغاوري.. قال، وهو يظهر ابتسامة تخفى مكرا:

- ابسطى يا ليلى
- خير يابا الحاج
- البيه راجع بكره بعد العشا

ردت الروح إليها، وبدت على وجهها السعادة الغائبة منذ شهرين.. سيعود رؤوف، لينتشلها وأباها من العار..

- بجد يا ابا الحاج مغاوري؟ رؤوف بيه راجع؟
- ايوه راجع بكرة.. بس قال لي ما تجيبش سيرة لحد.. حتى الباشا نفسه مايعرفش انه راجع

نظرت إليه مستغربة، على وجهها كثير من علامات الاستفهام.. فواصل كلامه..

- هو قال لي أبلغك الرساله ديه..
- رسالة ايه؟
- البيه رؤوف هيستناكِ بكرة تحت شجرة الصفصاف بعد العشا. بس

ماحدش يعرف أنك رايحة تقابليه علشان ماحدش يبلغ الباشا ولا حتى عبد التواب نفسه يعرف انت رايحة فين.. اتفقنا؟

- اتفقنا..

ثم قال وهو يهم بالانصراف مبتسما:

- مبرووووك مقدما يا عروسة

قلبها يدق.. غدا، بعد صلاة العشاء، سيأتي فارسها الهمام، ليأخذها على حصانه الأبيض، ليطير بها إلى أرض الأحلام. ستنجو كرامة أبيها من نهش كلاب الأعراض.. سيتحول حلمها، الذي طالما كان رفيقها في منامها وقيامها إلى حقيقة.

حين رجع عبد التواب إلى البيت، وعلى غير عادتها، فتحت له ليلى الباب بابتسامة تملأ وجهها.. ظلت تداعب أباها وكأنها طفلة صغيرة.. وجلست معه طويلا، تطلب منه أن يحدثها عن أمها وعن حبه لها.. والأب يحكي ويضحك ويمازحها، سعيدا بابتسامتها. وكلما طلب منها أن تتركه للنوم، تستجديه أن يمكث قليلا معها.

* * *

الجنيه سرقت دكان تهامي.. الدكان الوحيد في القرية، وتهامي غارق في أحزانه، لم يأت ببضاعة جديدة، فقد تسرقها الجنية ثانية. واجتمع أهل القرية أمام الدكان، ينتظرون المخاوي، لعله أقنع زوجته الجنية. كان أكثر ما يهمهم أنه لم يعد لديهم سجائر.. لكن مصائب قوم عند قوم فوائد، فعبد الرحيم الحلاق استغل الموقف، وباع لهم السيجارة بأضعاف ثمنها، وتحكم فيهم.. المشكلة أنه هو الآخر نفدت سجائره، وجلس مع الجالسين أمام الدكان ينتظرون، مستعدين لشراء السجائر بأى ثمن. وجاء الخبر السعيد أخيرا،

يحمله عوضين.. استطاع بعد عناء أن يقنع زوجته المصونة، الغيورة جدا عليه أن تعيد إلى تهامي بضاعته..

تهامي، الذي كان بداخل الدكان يلطم خديه، سمع عوضين، فعادت له الحياة التى سرقتها زوجة عوضين مع البضاعة، فصاح مهللا في الجمع

- يا ما انت كريم يارب

رد الشيخ صديق:

- انت فلوسك حلال وكانت لازم ترجع

احتضن تهامي عوضين، يشكره، ويسأله:

- وهي البضاعه هتيجي امتى يا عوضين يا اخويا؟

- جاية دلوقتي.. بس.. !

- بس ايه؟؟

- مراتى طمعت في السجاير المكنة

استغرب الحضور من تلك الجنية التي تدخن السجائر، وبادر عبد الرحيم الحلاق بسؤال عوضين:

- والسجاير اللف يا ابا عوضين؟؟

ضحك عوضين:

- لأ مراتي مابتشربش غير السجاير المكنة

رد عويضة أبو شلتوت:

- هتبقى جنية وتشرب سجاير لف زينا يا بهايم!

تلقف الشيخ صديق خيط الحديث، وقال ساخرا:

- وهي مراتك بتشرب سجاير يا عوضين؟ يا مزاجها العالي.. شكلك مدلعها! هو انت بتنام معاها ازاي يا عوضين؟!

رد عوضين ويعلو وجهه الزهو:

- ليه؟ عايز تربطني يا شيخ صديق؟.. مش هقول لك..

ضحك الجميع، بمن فيهم عوضين، وقال تهامي:

- في داهية السجاير المكنة.. عوضنا عليك يارب بس البضاعة التانية تيجي.. ده كله بعد رضا وسماح ستنا الجنية ربنا يجعل كلامنا خفيف عليها.. أصل الواحد جتته لبشت يا جدعان..

* * *

أعدت ليلى نفسها للقاء رؤوف، مطمئنة للظلام الذي سيخفيها عن أعين الموالين للباشا. سيذهب عبد التواب لصلاة العشاء ومن بعدها إلى قصر الباشا، لأن الباشا طلب لقائه، لسبب لا يعلمه عبد التواب.. منذ أكثر من عام والباشا غاضب من عبد التواب.. هل قرر طرده من القرية مثلا؟ كان السؤال يتبادر إلى ذهنه، فيصيبه بالرعب.. هو لا يعرف في الدنيا غير عزبة الباشا.. أتى إليها صغيرا، وأصبح يتيما بعد وفاة أبيه، ثم وحيدًا، بعد هروب أمه مع عشيقها وتخليها عنه. جعله ذلك أكثر عزلة، يكره السهر، لا يمزح، ويتجنب افتعال المشاكل. حتى الآن، في شيبته هذه، تزوره صور الأطفال الصغار في سنه، عندما كان صغيرا، وهم يسخرون منه ومن أمه التي تخلت عنه. لم يبح عبد التواب بسره لليلى، لكن مازال في القرية من يعرف حكاية أم عبد التواب.. كم يرجو أن تعيش ابنته بعيدا عن هذه القرية، حتى إذا مات، يدفن سره معه في قبره، ولا ينتقل عار أمه إلى ابنته، فتعيش حياتها مطأطأة الرأس مثله!

تسير ليلى وحيدة، في جنبات ليل شديد السواد، في ليلة غاب عنها ضياء

القمر. ومع خوفها من ظلام الليل، كان حبها لرؤوف يضيء قلبها، وينزل عليه السكينة. الكلاب تنبح والذئاب تعوي والغربان تزعق، وهي ماضية في طريقها، تود أن تختصر المسافة، أو تطير... حتى وصلت عند شجرة الصفصاف التي تعشقها.. هنا.. تحتها، تلتقي برؤوف دائما.. لكنه لم يحضر!.. لم يحدث من قبل أن تأخر عن ميعاده..

جلست تنتظر الحلم الآتي على شاطئ الترعة، تحت شجرة الصفصاف.. وهناك خلف أعواد الذرة، ينتظرها مغاوري ويراقب.. يتحين اللحظة المناسبة، مثل الذئب ينتظر فرصة الانقضاض.. بدأت تشعر بالخوف، وتلفتت باحثة عن رؤوف، وازداد اضطرابها بتأخر الوقت.. باغتها مغاوري من بين أعواد الذرة.. طعنها في صدرها.. أمسكت به.. حاولت المقاومة، وقبضت على رقبته، وهو يحاول الفكاك منها، وخرج صوتها مبحوحًا..

- ليه.. ليه.. حرام عليك؟؟

طعنها ثانية، فسقطت على الأرض.. مازالت فيها الروح.. أخذ يطعن فيها بسكينه، حتى استسلم جسدها وهمد. بصق عليها، ثم جرها حتى جانب الترعة، ودفعها إليها. خلع جلبابه، الذي اصطبغ بدمها، ودفنه تحت الشجرة، ولبس جلبابا آخر كان معه، وانطلق ليبشر الباشا.

هناك في القصر، يجلس عبد التواب مع الباشا، يعاتبه كثيرا. منذ ترك العمل في القصر إلى حظيرة المواشى، لم يسأل أو يلقي التحية. انتفخ عبد التواب فخرا، وهو يسمع كلام الباشا، وهو يطلب منه أن يعد له فنجان قهوة، فهو لم يشرب قهوة مثل التي يصنعها عبد التواب.

دخل عليهما مغاوري، فصافح عبد التواب وهز رأسه للباشا. أعطت عينه الإجابة التي ينتظرها منه بغمزة. باغتت الباشا ابتسامة رضا مفاجئة، أخفاها بطلب لمغاورى أن يجلس ليحكم بينه وبين عبد التواب..

- يرضيك يامغاوري عبد التواب مايجيش يزورنى من يوم ما ساب القصر؟

رد مغاوري، وعلى وجهه علامات القلق والاضطراب..

- لا ازاي بس يا عبد التواب.. هو الباشا بيقصر مع حد مننا؟!

رد عبد التواب، مزهوا بكلام الباشا المفاجئ، وإن أصابته بعض الحيرة:

- اني خدام الباشا وترابه.

رد الباشا:

- يبقى من بكرة الصبح ترجع القصر

كان عبد التواب سعيدا برد اعتباره الضائع، حتى وإن لم يكن ذا شخصية مختالة، كغيره ممن يعملون عند تيسير باشا.. هو دائما قانع بحاله، لا يتطلع للمزيد، لا يشعر بالغيرة من الآخرين.. راضٍ بحياته، حتى بعد أن غضب منه الباشا، وطرده من القصر ليعمل في حظيرة المواشي. كانت كلمته المأثورة (آني عايز أعيش وأربي بنتي وأمشي جنب الحيط).. لذا لقبته القرية (بالطيب).. هو لا يعلم لماذا تغيرت معاملة الباشا، لماذا طرده من القصر، ولماذا يعيده الآن. لكنه كان شديد الولاء للباشا تيسير، لا ينسى فضل أبيه خورشيد باشا عليه، حين تولى تربيته في القصر، بعد هروب أمه، وحين كبر عينه طباخا..

الوقت تأخر، وعليه الانصراف من أجل ليلى. استأذن الباشا أن يسمح له بالانصراف، فأمر الباشا مغاوري أن يصحبه، فرد عبد التواب..

- مالوش لازمة يا معالي الباشا.. خليك يامغاوري يا اخويا

- اني جاي يا عبده عايز أشرب شاي معاك.. أصل الولية عاصية عليّ الليلة

لمح رقبة مغاوري، حين قام معه، وقال

- ايه اللي معورك كده؟

ضم مغاوري ياقة الجلباب مضطربا..

- مش قلت لك الولية عاصية عليّ.. وايه لزومه الإحراج يا عبد التواب.

أطلق ضحكه متقطعة مرتبكة، فضحك معه عبدالتواب، وقال مداعبا:

- يادى الفضيحة.. المرة عملت فيك كده؟.. يا فضيحتك وسط عزبة الباشا!

في الطريق، كان عبد التواب يفكر في ليلى.. ستفرح عندما يزف لها خبر عودته إلى القصر.. خبر سيجعلها لا تنام ليلتها من الفرح. لم يسألها عبد التواب من قبل لماذا هي حزينة، يظن حزنها لموقف الباشا منه.. الآن لها أن تسعد، فلقد عادت المياه إلى مجاريها، عاد الباشا بشوشا ودودا معه.

اصطحب عبد التواب مغاوري، الغاضب من زوجته.. طرق باب داره، لكن لا أحد يرد على الطارق. يعلم عبد التواب أن ليلى لا تنام إلا عندما تطمئن عليه أولا، فتسرب القلق إلى قلبه. قال مغاوري مدعيا السذاجة:

- يمكن نايمة؟.. بس ايه هى نايمة في بحر ميه!.. نومها تقيل قوي

رد عبد التواب، وقد نال منه القلق كثيرا..

- بنتى مش موجوده في الدار

- خبط تانى يا عبده

طرق مغاوري الباب معه.. لم يطق عبد التواب قلقه، ففسخ الباب.. أسرع ناحية غرفتها، لكن كما توقع.. ليلى لم تكن موجودة..

حاول مغاوري تهدئته..

- لما انت اتأخرت يمكن تكون استعوقتك.. زمانها راحت هنا ولا هنا تدور عليك

أقنعه أن يصبر وينتظر حتى تعود، والغائب حجته معه.. وأمام الدار انتظرا يراقبان، ويحملان لمبة جاز، وكلما تأخر الوقت، ازداد قلب عبد التواب خفقانا.

خرج أهل القرية من ديارهم، يحملون لمبات الكيروسين، يبحثون عن ليلى. قسم الرجال أنفسهم: مجموعة من الناحية القبلية، وأخرى من الناحية البحرية.. وتجمعت النساء عند دار عبد التواب تدعو الله لتعود ليلى. طلب بعضهم من عوضين أن تساعدهم الجنية للبحث عن ليلى.. وملأ الليل صوت الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وهو ينادون على ليلى، ليمتزج بنقيق الضفادع التي تدعو ذكورها للزواج.. تماما مثل ليلى، التي ذهبت إلى شجرة الصفصاف، تطلب من رؤوف الزواج.

أقبل الفجر.. يكاد قلب عبد التواب الطيب أن ينفطر، بينما يحاول يوسف طمأنته على عروسه ليلى. يوقد أهل القرية النار في الأجران.. لكن لا جديد. أذن الشيخ صديق لصلاة الفجر، فلم يستجب لأذانه أحد.. صرخ فيهم..

- اه يا بلد كافرة.. عايزينها ترجع ازاي وانتم ما بتركعوهاش..

رد عبد الرحيم الحلاق..

- بتقول ايه يا شيخ صديق.. وهو ابويا الحاج عبد التواب بيسيب ركعة؟ ده بيصلي أكتر منك. ادعي بس انت نعتر على البنية. ولا أقول لك، بلاش انت دعوتك بتيجي بالمقلوب.

ولد الصباح من رحم ليلة شديدة السواد، وسيطر النور على مواقع الظلام، ولا جدوى.. فما زالت ليلى غائبة، حتى الجنية لم تعثر عليها.

وقف عبد التواب أمام داره، ينادي بصوت مبحوح عليها. ورجال القرية

مجتمعون هناك. استأذن عويضة من الجميع، يبدو أن لديه فكرة صائبة. أخذ عوضين المخاوي بعيدا، وقال له بصوت منخفض..

- خلي الجنية ترجع ليلى لأبوها يا ابا عوضين..

رد عوضين غاضبا:

- مراتي مالهاش دعوة بالنسوان

اضطرب عويضة، وخشى من غضب عوضين، الذي قد يتبعه عواقب وخيمة، وقال محاولا تهدئته..

- يمكن تكون استحلت البت وتكون عايزة تجوزها لعيل من عيالها.. وبعدين متزعلش مني يابا عوضين دا أني زي ابنك برضه.

ضحك عوضين من كلام عويضة، وقال له ساخرا:

- الجن مابيتجوزش من نسوانا يا ابوالعريف

ضحك عويضة:

- على رأيك يا ابا عوضين دول عندهم نسوان زي لهطة القشطة

أثرى غياب ليلى خيال أهل القرية، وخرجت النساء ـ كعادتهن كل صباح ـ إلى الزراعية، فمنهن من اتهمت ليلى بالهروب مع رؤوف بيه عشيقها، وأنها لا تخاف على أبيها العجوز، تلك الجاحدة الفاجرة.. أخرى ترد ساخرة:

- وهو أنتِ لو رؤوف بيه بصلك مش هتسيبي اللي وراكِ وقدامك وتروحي زحف؟!

تعالت ضحكات النساء، وقالت امرأة كبيرة، محاولة ردع خيال الفتيات:

- اتلمي يا بت انتِ وهي.. اختشوا وخلوا عندكم دم.. بنات ايه دي يا اختي.. بنات آخر زمن

لم تنتهِ الفتيات.. مشين يتخيلن ليلى برفقة رؤوف بيه يوم زفافهما، وليلى تنظر إليهن، غير مكترثة بهن، وهن يطلبن منها أن تقف لتحدثهن، لكنها ترفض الحديث إليهن، فلسن من مستواها الآن. عندما تأتي في زيارة إلى القرية من البندر، سوف تعوج لسانها، وتخاطب الناس مثل أهل البندر، فمثلا عندما تطلب من أحد الفلاحين طلبا، ستقول له باردون وميرسي.. كما كانت تخاطبهم زوجة الباشا وزوجة مراد بيه.

كن يمشين في طابور كالعادة، تقوده مسعدة في الأمام، وضحكاتهن تزداد، وهن يطلبن من ناعسة أن تعوج لسانها وتنطق باردون، وناعسة تتمايل، ممسكة بطرف جلبابها، وتردد بطريقة تزيد من ضحكاتهن: باردون باردون. فجأة، وقفت مسعدة متطلعة ناحية الزراعية.. لم يقو لسانها على الكلام، فأشارت لهن، وسقطت الزلعة من فوق رأسها.. ارتبكت الفتيات.. نظرت أقربهن لمكان إشارة مسعدة ناحية الزراعية فصرخت.. سقطت زلعتها هي الأخرى.. انتقل المشهد إلى الجميع، وجرين ناحية القرية فزعات، فإذا سقطت إحداهن، داست عليها أقدام الأخريات، حتى وصلن إلى مداخل القرية، فسقطت منهن من سقطت مغشيا عليها، وولولت من ولولت.. هب الرجال الجالسون أمام دار عبد التواب إليهن.. أشارت إحداهن ناحية الزراعية، وأخذت تهذي، فما فهموا منها غير: "شكلها".. "ليلى".. "هناك"..

أسرع الرجال ناحية الزراعية، ينادون ليلى.. جرى يوسف مسرعا ومحمد يحاول أن يلحق به.. وعويضة يقدم قدما ويؤخر أخرى.. وعبد التواب من خلف الجميع، ساقاه لا تقويان على الجري.. كانت هناك.. جثة غريق يكسوها جلباب ليلى!.. هرول الشباب، وحملوها إلى الشاطىء حيث باقي الرجال، انكشف الجسد، وظهرت الطعنات به. انهار يوسف، وهو يتعرف على الجثة الهامدة التي شوهها الموت. لحقهم عبد التواب، عرف ابنته، فصرخ وركع بجوارها، وحمل رأسها على ساقه..

- ليلى بنتي.. كلميني يا بنتي.. اني ابوك.. رايحه فين وهتسيبني يا بنتى.. ردي عليّ والنبى ردي اني عايش علشانك.. هتسبيني وتفارقي.. بلاش انتِ خساره في الموت اني اموت مكانك ردي يا بنتي..

ربت محمد أفندي على كتف عبد التواب، محاولا التخفيف عنه..

- البقاء لله يا ابا عبد التواب.. حرام عليك ماتقولش كده.. كلنا ميتين.

- كلنا ميتين.. انما بنتى لأ.. دي لسه صغيرة وحلوة.. ده حتى يوسف أفندي كان متقدم لها حتى اسأله

لم ينطق يوسف أفندي، كان منهارا هو الآخر، يكتفي بالنظر إلى ليلى باكيا..

وصل العمدة هواري ممتطيا حماره، وخلفه يجري عبد الباسط، كالعادة.. أمره أن يضع كومة من قش الأرز فوق الجثة، حتى يأتي النائب من البندر لمعاينتها.. وفورا أرسل الإشارة إلى المركز.

عرف الباشا بالأمر، فوبخ العمدة، لتصرفه دون العودة إليه قبل إرسال الرسالة إلى المركز.. ثم أرسل مغاوري إلى مكان الجثة، على وجهه الدموع يصيح:

- مين اللي عمل في بنت أخويا كده؟ والله هادفعه التمن

عم الحزن القرية على ليلى.. لم يعد للبسمة عنوان في قرية الباشا، وسيطرت عليها مشاعر الحزن والغضب. لن يستطيع محمد أفندي تأجيل سفره إلى فلسطين مع الأخوة المجاهدين، لكن قلبه ينفطر لتركه يوسف صديقه في هذه الحالة. بداخله مشاعر مختلطة متناقضة.. فالحزن على القرية ويوسف أفندي أضاع فرحته بمناسبة عظيمة، كم كان يحلم بها، فهو سيلتقي معلمه الإمام المرشد حسن البنا لأول مرة، قبل السفر إلى فلسطين، حيث أولى القبلتين وثالث الحرمين، والتي صدر لها قرار التقسيم من عصبة الأمم المتحدة..

جاء عبد الباسط إلى القرية مهرولا، يتجه ناحية دوار العمدة، وينادي بصوت عالٍ

- يا حضرة العمدة.. حضرة النايب وصل..

ارتدى العمدة على الفور طاقيته الصوف البني، وهرع ناحية عبد الباسط وهو ينظر إلى الطريق..

- فين يا ولا؟

- واقف هناك ومعاه الهجانة..

- هات العواقب سليمة يارب.. استرها علينا.. آه يا بلد حافية ويا ولاد الكلب يا قتالين القتلة بلَّغ ولاد البلغة ان الهجانة جوم البلد.. وكلم معالي الباشا.

جرى العمدة هواري ناحية الزراعية مرحبا بحضرة النائب.. يبدو أنه جاء على مضض. سأل العمدة بلهجة حادة عاقدا حاجبيه

- انت كنت فين يا عمدة؟

- كنت في البلد سعادتك

- ف البلد بتعمل ايه.. نايم جنب النسوان وسايب شغلك

طأطأ العمدة رأسه، وحدث نفسه بصوت منخفض لم يسمعه غيره

- بقى على آخر الزمن. يا بلد حافيه.. يا ولاد الكلب.. عيل من دور عيالي يهزأني

عاود النائب حديثه وسأل العمدة غاضبا:

- ازاى تحصل قضية قتل عندك؟

ـ والله يا سعادة البيه بلدنا غلابة مايقتلوش فرخة؟

ـ اومال مين اللي قتل البت دي؟ تكونش عفريتة؟

نظر العمدة إلى النائب، هامسا في أذنه حتى لا يسمعه الهجانة

ـ عندك حق والله يا سعادة البيه.. مافيش غيرها الجنية اللي قتلتها

ابتسم النائب، ثم سأله ساخرا:

ـ لأ يا شيخ؟!

ـ ايوه والله.. أصل احنا عندنا هنا واد مخاوي..

تغير وجه النائب، وصاح غاضبا في العمدة أمام جمع غفير من أهل القرية:

ـ غور يا راجل انت بعيد دلوقتي..

تغير لون العمدة واحمر خجلا، وهو ينظر ناحية أهل البلد، ورد وهو مطاطئ الرأس:

ـ أمرك يا حضرة النائب

طلب النائب من الحكيم الشرعي توقيع الكشف على الجثة، فأرسل عبد الباسط أذنيه ـ كعادته ـ .. أهل القرية يعرفون أنه يسمع دبة النمل؛ ولكن النائب أمر العمدة أن يصرف هؤلاء (البقر) بعيدا، ثم سأله مبتسما:

ـ البت دي كان مشيها بطال يا عمده؟

رد العمدة:

ـ لا.. دي كانت ولا خضرة الشريفة!

ـ امال حامل منين؟

بهت العمدة واصفر لون وجهه..

- حامل!

- أيوة حامل.. الحكيم الشرعي أكد إنها حامل.. تكونشي حامل من عفريت يا حضرة العمدة؟!

- يا سنة سوخه يا ولاد.. حامل سفاح!.. دي قليل فيها القتل!

صاح النائب غاضبا وهو يشير بيديه ناحية العمدة:

- انت شغلتك تشوف لنا مين اللي قتلها بسرعة فاهم.. احنا مش ناقصين بلدكم هي كمان

ظل عبد التواب صامتا، لا يقوى على الحديث.. حتى عندما سأله النائب عنه ابنته، وعلاقته بها، وكيف كانت علاقتها بأهل القرية، وكيف كانت علاقته بأهل القرية، وهل بينه وبين أحد أي عداء، لم يجبه عبد التواب، وظل صامتا مستسلما، ذراعاه مرتخيان بجواره على الأرض.. دفنت ابنته أمامه، ودفن معها أمله في الحياة، ثم ها هم لا يرحمونها وهي في التراب.. تسرب خبر حمل ليلى إلى آذان المجتمعين عند الدكان كعادتهم اليومية بعد صلاة العشاء.. نزل عليهم الخبر كصاعقة أصابت ألسنتهم.. لا يصدقون أن تكون ليلى، تلك القديسة البريئة شديدة الخجل، والتي كانت تغرق في شبر ماء حين يلقي عليها رجل السلام، فلا تستطيع الرد وتكتفي بالنظر إلى الأرض، وتضحك من خلف طرحتها وكأنها طفلة صغيرة..

ضرب الشيخ صديق كفا بكف، وهو يسمع عبد الباسط الخفير يحكي لهم تفاصيل اليوم مع النائب، وقال وهو يمصمص شفتيه

- صحيح يا ولاد يا ماتحت السواهي دواهي.

رد أبو شمروخ غير مصدق:

- يا جدعان نافوخي.. مش مصدق خالص.. ليلى!!

رد عبد الرحيم الحلاق:

- مش هتصدق ازاي والحكومه بتقول كده؟.. هو انت كمان مش هتصدق الحكومه؟!

وضع عويضة يده حول ذقنه، وقال بصوت منخفض وهو يراقب الطريق:

- بس مافيش غيره

رد الحاضرون بصوت متلهف لإجابة عويضة، التي قد تنقذ رؤوسهم..

- مين يا ابو العريف؟

- مفيش غيره الواد الأفندي

أشاح الجميع ناحيةعويضة بعد إجابته، التي خذلت فضولهم، وقال الشيخ صديق:

- يوسف أفندي! عمره مايعمل كده

رد عويضة ساخرا:

- وهو انت يا مولانا كنت تصدق في مقصوفه الرقبه اللي ماتت؟ ولا انت رابطه؟!

رد الشيخ صديق منفعلا:

- يوسف أفندي جدع ابن اصول، عمره مايعمل كده والا ماكانش راح يخطبها يا بو العريف ولا علشان بتغير منه تلبسه التهمة.

انزعج الحاضرون من كلام عويضة أبو شلتوت، فليس لديهم القدرة لاستيعاب صدمة جديدة بعد صدمه ليلى.. فقال مدبولي الصغير:

- مش يمكن يكون الواد ابن الجنيه مرات نسيبى هو اللي حبلها

رد عبد الرحيم ساخرا:

- اسأل نسيبك

رد الشيخ صديق:

- دى تبقى مصيبه يا ولاد.. دا كده ممكن لو عجبته مرات واحد فينا.. ياخدها منه وجايز يحبلها كمان!

ضحك الحاضرون، وقال سيد أبو شمروخ مازحا:

- شوفلنا حاجه للعفريت ده يا شيخ صديق.. الا هما العفاريت بيتربطوا زيينا؟؟

رد الشيخ صديق ضاحكا:

- ماكانوش يبقوا عفاريت يا وله

أنسى لغز ليلى عبد الباسط الخفير مهمته التي أرسله من أجلها العمدة هواري.. لم يتذكر الرسالة إلا عندما رأى الهجانة قادمين من بعيد، فأطلق ساقيه للرياح هاربا، وصارخا في الجمع أن عليهم الانصراف كما أبلغه العمدة.

(يتلم كل واحد في بيته ويكن لحد لما الليلة دي تعدي).. لم يلتقط الكثير الرسالة التي ألقاها عبد الباسط وهو يجري.. حتى جاء الهجانة، وصاح أحدهم من فوق جمله:

- وهو انت وهو وهو قاعدين هنا ليه يا بهايم يا قتالين القتله يكونشي بتفكروا تقتلوا واحد تاني ماهو شكلكم كده بلد فاجرة؟

اقترب منه عويضة أبو شلتوت، وهو يتطلع إلى الحاضرين من خلفه، رافعا رأسه ليظهر شجاعته الفائقة وقدرته البليغة في مخاطبة الحكومة أمامهم..

- لا مش كده يا حضرة الصول ده احنا قاعدين علشان نعرف مين اللي قتل البنيه

- بجد؟!

- ايوه والله حتى اسأل الشيخ صديق

حدث الشيخ صديق نفسه:

- منك لله يا بن أبو شلتوت هتودينا في داهية

- طيب تعالوا فكروا معانا في النقطة.. اربطهم يا عسكري في الجمال.. خليهم يجوا ورانا

رد عبدالرحيم الحلاق مرتعدا:

- على فين يا حضره الصول؟؟

- هتقعدوا معانا لحد ما يبان لكم اصحاب

صرخ الصول في الجميع، وطلب منهم الصمت، آمرا إياهم أن يساعدوا العسكري في ربط بعضهم البعض في الإبل.. جرّت الإبل الحاضرين جميعا.. لم ينج غير عبد الباسط الخفير..

كان لدى مدبولي الصغير إجابات لأسئلة الحائرين أمام الدكان، لكنه تظاهر بجهله.. عبد التواب الطيب لم يكن يعلم عن ذلك، برغم أنه التربة التي حضنت بذرة حب ليلى ورؤوف، حين كان يصطحب ابنته إلى القصر وهي صغيرة، تلعب وتلهو خلسة مع ابنيه رؤوف ومراد بعيدا عن أنظار الباشا.. كبرت معهما حتى نبتت بذور الحب في قلبها وقلب رؤوف.. نما ونضج وكان قريبا للقطف.. لا يعلم عبد التواب الطيب أنه المتسبب بمقتل ابنته الوحيدة، فهو من وضعها على طريق الهلاك.. فلو علمت القتيلة أن الماء لا يصعد إلى أعلى لما تحدت قانون الطبيعة، فكان لها هذا الجزاء!

علم أهل القرية بأن سيئي الحظ ذوي الألسنة الطويلة قد اقتادتهم الحكومة إلى المركز.. لم يمكث مدبولي الصغير كثيرا هناك، بعد اتصال مغاوري بالضابط مسئول النوبتجية الليلة.. لمغاوري معارفه من الضباط، فأفرج عن مدبولي وسط سخط وغضب الباقين منه ومن صاحب اللسان الطويل عويضة.. ذهب أهالي التعساء إلى مغاوري، متوسلين أن يتوسط إلى حضرة النائب أو حضرة الضابط لإنقاذ هؤلاء من التعذيب.. لقد مر على احتجازهم ثلاثه أيام، ولم يدل أحدهم باعتراف عن القاتل.

وهناك في المركز، دخل رجل طويل، له شارب كثيف مرفوع إلى أعلى، يصل حتى أسفل عينيه، ولا تجد الابتسامة مكانا في وجهه الأسود شديد الصرامة، أرسلته المديرية خصصيا للتحقيق معهم. وجدهم نائمين كل منهم لا يحتل أكثر من نصف متر، ينامون فوق بعضهم البعض من التعب والارهاق والتعذيب.. بصوت فيه الحدة والقسوة نادى عليهم جميعا..

- قوم يا مذنب يا بن المذنب انت وهو.

نهضوا من أماكنهم مسرعين، إلا الشيخ صديق، فقد بلغ به التعب مبلغه، فلم يقو على النهوض.

- انت يا متهم لسه قاعد ليه هو انت نايم في دار امك!!

تطلع إليه الشيخ صديق بعينيه الحمراوتين، وأجهش بالبكاء ثانية.. آثار التعذيب على جسد الشيخ صديق وعلى وجهه.. تحت عينيه يكتسي بلون أزرق مثل باقي الزملاء في المحبس..

- اسمك ايه يا ولاه؟ سأل مبعوث المديرية الشيخ، رد الشيخ مطأطئ الرأس، عيناه لا تستطيعان الرؤية..

- خدامك صديق

- قول لي مين اللي قتل البت؟

- مش عارف والله يا بيه

- طيب مين فيكم يعرف اللي قتلها وانا هخرجكم الوقتي؟

لم ينطق أحد.. اكتفوا بالنظر إلى بعضهم البعض.. ربما كان بعضهم سيعترف أنه القاتل لو زاد التعذيب عن ذلك، ليفتدي حياته من هول يوم القيامة الذي يتعرضون له. تطلع المحقق في أوجه المتهمين المتورمة، الجفون الزرقاء تعلو العيون المغلقة، وبدأ صبره في النفاد.. عليه استخدام خطته البديلة..

أمر بإخراجهم جميعا من الزنزانة، والذهاب بهم إلى اسطبل الجمال والخيول. قال لهم بصوت منخفض فيه بعض من الرفق:

- مين فيكم عطشان؟

جاوب الجميع بصوت واحد:

- اني يا بيه الله يسترك

- قولولي مين اللي قتل البت وانا اخليكم تشربوا؟

عادوا ثانية إلى حالتهم البائسة.. لم ينطقوا، مكتفين بالنظر إلى بعضهم، عسى أن يخرج من بينهم من يفتديهم..

ازداد غضب المحقق.. نادى على العسكري، آمرا إياه بإحضار بول الإبل والخيول، ثم أمرهم أن يشربوا.. فشربوا جميعا.. فالأقسى من البول جفاف حلقهم الشديد.. سألهم المحقق بصوت يائس ممتعض يصطنع السخرية..

- مين فيكم جعان؟

لم يجبه أحد.. أمر بإحضار روث الخيول والإبل..

- اطفحوا يا بهايم..

أوشك بعضهم بالاعتراف بأنه الجاني، لينجو بنفسه، وإذا بحضرة الشاويش يأتي مهرولا ناحيته، طالبا منه إنهاء التحقيق، فقد أمر حضرة النائب بإطلاق سراحهم وإعادتهم إلى عزبة الباشا.

تدخل تيسير باشا للإفراج عنهم، بعدما تردد من نساء القرية اللاتي يعلمن علاقة رؤوف بليلى، فلم تكن القسوة الآن في صالحه.

استقبلت القرية أبناءها والحزن يكسوها.. حزنت عزبة الباشا لمقتل ليلى، ولكنها حزنت أكثر لكرامة أبنائها التي أهدرتها الشرطة. عاد البؤساء يحملون علامات التعذيب على أجسادهم ووإهانات محفورة في قلوبهم. سأل أبو شمروخ الشيخ صديق بصوت متحشرج يملؤه الحزن:

- اني لو دخلت النار ممكن يعملوا فيّ كده يا ابا الشيخ؟

رد عليوة بصوت غاضب:

- احنا هنخش الجنة حدف يا جدعان بعد اللي حصل فينا

رد عبدالرحيم الحلاق بصوت يائس بائس، لم يعهد عليه من قبل

- وحتى لو دخلنا النار مش هيعملوا اكتر من اللي اتعمل!

ظلوا يتبادلون الحديث الحزين، بينما ظل الشيخ صامتا حزينا عيناه الحمراوتان تملؤهما الدموع

وفي اليوم التالي.. أتى حضرة النائب مستأذنا الباشا تيسير لكي يغلق التحقيق.. أمر الباشا العمدة أن يحضر المطلوبين لسؤالهم في قصره، بعدما يستريح النائب والمأمور وينالا واجب الضيافة اللائق بهما..

- تعرف ايه عن الحادثة؟

- معرفش يا بيه

- مين اللي قتلها؟

- الله اعلم يا بيه

نفس السؤالين من حضرة النائب، ونفس الإجابة من أهل القرية.. الإجابة التي حصلوا عليها من العمدة هواري.. كانت تعليماته للفلاحين، أو بالأحرى تعليمات الباشا له: لما يسألك حضرة النائب قول له معرفش.. والله أعلم!

لم تفاجئ الإجابات حضرة النائب، كما لم تفاجئ الأسئلة أهل القرية.. قال النائب ضاحكا للمأمور، متعمدا أن يسمع الباشا حديثه..

- شكلنا هنتهم العفاريت بقتل المجني عليها يا حضرة المأمور!!

ضحك الجميع ماعدا الباشا، الذي قاوم الضيق بابتسامة، فواصل النائب حديثه:

- هاقفل التحقيق لأن الفاعل مجهول.. ايه رأيك يا معالي الباشا؟

- ده عين العقل يا حضرة النائب.. هي يعني هتموت وتقرفنا.

عاود الجميع الضحك، وأغلق التحقيق باتهام المجهول، وفرج في الخارج ينتظر الإذن بالدخول بالغداء الشهي.. غادر النائب والمأمور ممتلئي البطون والجيوب، شاكرين الباشا على خيراته الكثيرة التي أنعمها عليهما، وامتطيا حصانيهما، والمأمور يقول للنائب مازحا:

- يا سلام على الباشا ابن اصول بصحيح.. ياريت كل يوم جناية قتل عنده!!

القرية لم تعد كما كانت.. حتى مجلسهم عند دكان تهامي لم يعد كما كان.. يتحاشى الجالسون الحديث عن تجربتهم بالمخفر.. ضحكاتهم التي كانت تنسيهم شقاء يومهم في أرض الباشا أمست باهتة.. لدى الباشا أكثر من خمسة

الآف فدان، وزع نصفها على الفلاحين، يعملون فيها بالإيجار الباهظ، يزرعون ويكدحون ويعرقون.. ويحصد هو.. بالكاد يستطيعون كفاية أنفسهم.. عندما يأتي موسم الحصاد. يبيع الفلاحون المحاصيل للباشا، فيعطي لهم مايكفيهم لكي يبقوا على قيد الحياة..

في أحد مواسم الحصاد، تمرد عليوة أبوقنديل على سيطرة الباشا على أقوات البلد، واتفق مع أحد تجار البندر لشراء محصول القمح منه ليلا دون معرفة الباشا.. فوجئ بأمر الباشا لمغاوري الخولي باستدعائه إلى الجرن، وجعله يمتطي حمارا أسود أجرب بالمقلوب، وألبسه جلبابا رثا قصيرا مقلوبا مقطوعا، وزفه مغاوري في شوارع القرية والحقول، والأطفال يهتفون خلف الحمار: من ده بكرة بقرشين..

أما نصف أرض الباشا الآخر، حيث يعمل الفلاحون بالسخرة، كل فلاح شهرين.. وشهرين آخرين في إقامة السدود على النيل أيام فيضانه.

علمت الأرض الفلاحين الصراحة والوضوح، يزرعونها قطنا، يحصدون القطن، يزرعون القمح لا يحصدون إلا قمحا. علمتهم الصبر، فهم لا يحصدون إلا بعد ستة أشهر من زراعتها. كانت الأرض ملهمة ومعلمة وخير صديق.. لا تغضب حين تهبط عليها فئوسهم، تشقها شقا، بل تزداد إعجابا، كلما تساقط العرق من جبينهم عليها، فتعطي لهم ما أرادوا، وهم ـ لست هي ـ من يسلمونه في النهاية للباشا!.

لم تكتف الأرض بذلك عطاءً، بل كانت لهم رفيقة مخلصة، يشتكون إليها فتواسيهم وتعلمهم أنه مهما طال ليل الظلم، فلابد من بزوغ نهار العدل..

وجد مدبولي الصغير الجالسين أمام دكان تهامي محمري الوجوه منتفخي الأعين من التعذيب.. ضحك مقهقها، بصحبته شفيق ابن فرج خفير الباشا.

ـ شكلهم واخدين طريحة جامدة

رد شفيق:

- كان زمانا معاهم يا فكيك

رد مدبولى الصغير ممتعضا وغاضبا

- مع مين ياعرة الرجالة!

مصمص الشيخ صديق شفتيه، وهز رأسه وقال متنهدا:

- منك لله يا عويضة يا بن أبو شلتوت

رد عويضة المطاطىء الرأس، المقرفص، بلهجة يائسة

- وهي ناقصاك دلوقتي يا ابا الشيخ صديق انت كمان

رد الشيخ غاضبا:

- جبتلنا الكلام مع اللي يسوا واللي مايسواش

ضحك الجميع من كلام الشيخ صديق.. ضحكات بائسة تحاول رد الإهانه لمدبولي الصغير، الذي غضب وانصرف وبصحبته شفيق.

أشاح الشيخ صديق بيديه، وقال بصوت منخفض:

- روح يا ابن الكلب، لولايا ماكنت جيت، ولا البهايم اخواتك، داهية تاخد اللي حط بذرتك.

عاود الحاضرون الضحك، وقال عبد الرحيم الحلاق:

- احكيلنا يا ابا الشيخ صديق خلينا نضحك شويه عايزين ننسى اللي عملوه الكفرة فينا.

رد الشيخ صديق مبتسما:

- أني اللي فكيت ربط أبوه.. وأني اللي فكت لامه (ست الهم) العمل اللي

كان معمولها علشان ماتخلفش حاكم مغاوري الجديد ده قاعد يجي خمس سنين مايخلفش لحد مافكيت لست الحسن مراته العمل وجابت بعدها زربيه عشر ألواح كل لوح يشد ساقية من سواقي الزراعية الكبيرة ويتعرش بيه زريبة!

علت الضحكات، وطالب الحضور الشيخ صديق بالمزيد.. لكن الأحزان أبت أن تبتعد قليلا..

عبد التواب الطيب يتوكأ على عصاه مرتديا جوالا، مشعث الشعر، التراب يكاد يغطيه، وقد ازدادت انحناءته، يقدم ساقا ويؤخر الأخرى.. يضحك ضحكات هستيرية.. يبكي.. عويله ينادي ليلى.. يلوح بيده محدثا نفسه:

- ليلى عايشة والله عايشة..... ليلى راحت عليه العوض..

هكذا يتجول في القرية.. الحاضرون يتطلعون إليه متحسرين لحال ذلك الطيب.. نادى الشيخ صديق عليه، طالبا منه الجلوس معهم؛ لكنه رفض، متحججا أنه يجول في القرية من أجل البحث عن ابنته التائهة.. الحاضرون بمن فيهم عبد الباسط الخفير على شفا البكاء على حال الطيب، لكن ينطبق قلبي ولا ينطلق لساني. يعلمون أن الباشا هو من قتل ليلى، ولايجرؤون على قولها حتى مع بعضهم البعض. فقد يصيبهم ما أصاب ليلى، وسيكون الفاعل إما جنية عوضين المخاوي، أو مجهول جاء بفعل قوى ماوراء الطبيعه!!

الجميع يفكر لو من الممكن أن ينتفض ويحدثهم أن الجاني معروف، لكن ينتظر فقد ينتفض آخر ويفك حصار ذلك السر اللعين.. حتى يوسف أفندي، أتى إلى الدكان عينيه تذبلان من الدمع، لا ينظر إلى من حوله، ولا يلقي عليهم السلام..

حتى الأطفال ماعادوا يضحكون.. يرون آباءهم وقد قصت شواربهم وحلقت رؤوسهم وتورمت أعينهم، فتسيطر عليهم حالة القلق والخوف..

نقيق الضفادع في الترع كأنه موسيقى جنائزية حزينة.. نعيق الغربان.. نباح الكلاب.. زعيق الحدأة.. ليل القرية شديد السواد.. أصوات الحيوانات والطيور تواسي القرية وأهلها وتتضامن معهم.. مرت عزبة الباشا من قبل بمحن كبيرة، لكن هذه المرة أودت بأشياء كثيرة بداخلهم..

* * *

سمع عبد الباسط الخفير من العمدة أن الهجانة سيأتون الليلة، من أجل إلحاق بعض شباب القرية بالجهادية. علم العمدة بقرار النقراشي باشا رئيس الوزراء، إرسال الجيش إلى فلسطين لتحريرها من الصهاينة المعتدين. ذهب عبدالباسط مسرعا إلى دكان تهامي، طالبا منه سيجارة (مكنة) لكى يدلي له بسر خطير، يحافظ على ابنه منصور. على الفور ناوله تهامي السيجارة، فأبلغه أن الهجانة سوف يفاجئونهم الليلة.. أشعل عبد الباسط السيجارة منصرفا، وانطلق تهامي يبلغ زبائنه.. أبلغ كذلك عبد الرحيم الحلاق، فجلس على الجسر حيث يقص شعر الزبائن، يخبر المارين عليه من أهل القرية، حيث موعدهم يسحبون مواشيهم للعودة إلى ديارهم، فقد أوشك الليل أن ينسج خيوطه ويستبد بضوء النهار.

كلما علم شاب من القرية، فر مسرعا ناحية الترعة القبلية، ليختبى هناك مع أقرانه داخل الماسورة الكبيرة.. فر الشباب جميعا.. ليس لديهم قيمة (البدلية)، لكي يدفعوها في المخفر ويعفون من الخدمة في الجهادية.. وتعيس الحظ الذي يذهب إلى الجهادية، يستعوض أهله الله فيه، ويودع ببكاء وعويل وصراخ ولطم خدود وشق جيوب، كأنه انتقل إلى العالم الآخر ولن يعود.

أغلق الفلاحون ديارهم، وأطفأوا أنوار لمبات الكيروسين في بيوتهم، حتى ازداد الليل سوادا ووحشة.. لا حجر ولابشر يتحرك.. حتى الشيخ صديق لن يذهب لصلاة العشاء في الجامع؛ تجربته المريرة مع الهجانة منعته. أغلق تهامي

دكانه، حتى لا يستولي الهجانة على البضاعة، كما حدث من قبل.. عزبة الباشا، قبل صلاة العشاء، وكأنها أصبحت مدينة أشباح، لا صوت ولا حركة إلا أصوات نباح الكلاب وعويل الذئاب..

اصطحب مغاوري الجديد وفرج أبناءهما، وذهبوا إلى قصر الباشا، الذي سيأويهم ويعصمهم من الهجانة والجهادية.. وصل الهجانة إلى القرية، وأهلها مغلقو الديار، كل يدعو الله أن تكون العواقب سليمة عليه وعلى عياله. يسمعون صهيل الخيول وهدير الإبل في الخارج، تختلط بأصوات الجنود يتوعدون القرية. كلما اقتربت الأصوات من دار، زاد اضطراب وقلق من في الدار.. يطرقون الأبواب بشدة.. يفتشون ديار القرية عن الشباب.. لم يجدوا أحدا.

في هذا الليل المشحون بالخوف والعجز، تسارعت ضربات قلوب الخلق.. تهامي أغلق دكانه.. أطفئت لمبات الكشف، التي كانت تخترق بعض أنسجة الظلام المسيطر على القرية.. وعبد التواب الطيب في القرية غير مكترث، ينادي على ابنته كعادته. لكن هذه المرة لم يظهر الأطفال من خلفه يضحكون عليه. نادى عليه أحدهم.. وقف عبد التواب متكئا على عصاه.. نظر خلفه بعينيه الضيقتين من البكاء، ثم عاود المشي.. نودى عليه ثانية بصوت جهوري، اضطرب منه أهل القرية في بيوتهم، وارتعدت فرائصهم

- أنت يا راجل.. أني مش بنادي عليك؟

واصل عبد التواب السير، وسط استغراب الهجانة وغضبهم.. اقتربوا منه، لم يستطيعوا تحديد ملامحه في الظلام.. كانوا أمام دار الشيخ صديق، الذي يختبئ بجوار شباكه، يتصنت عليهم مرتجفا مضطربا.

سأله أحدهم غاضبا:

- انت ماشي بتعمل ايه في البلد دلوقتي يا جدع انت؟؟!!

لم يجبه عبد التواب.. حاول فك حصارهم من حوله بعصاه.. ونادى على ابنته. ازداد غضب الهجانة، وصفعه أحدهم على قفاه، فهوى على الأرض. ركله آخر بحذائه، وضربه ثالث بسوطه، وعبد التواب يصرخ باكيا:

- آه ليلى.. آه ردي عليّ يا بنتي

انهار الشيخ صديق بداخل داره جوار شباكه، ودعا الله "يارب هات العواقب سليمة".. أصوات السياط والركلات والصفعات تزداد، وصوت عبد التواب يخفت.. يضحك العساكر منه ساخرين:

- طيب يا بتاع ليلى!

حتى اختفى صوت عبد التواب تماما، واختفى معه صوت الهجانة..

كان عوضين كعادته ليلا في حقله، حيث يبقى ليكون بجوار زوجته الجنية.. مر عليه الهجانة في طريق عودتهم إلى البندر، بعد رحلة فاشلة للبحث عن مجندين جدد للجهادية، بعدما غنموا بعض الهدايا القيمة من الباشا. نزل عوضين الترعة، محتميا بالجريف يخفيه عن أعينهم حتى مروا.

الفرصه سانحة.. الكل في داره.. يستطيع الآن الانقضاض على فريسته.. عليه تحديد الهدف سريعا، قبل أن يفضح النهار أمره.. زريبة سيد أبو شمروخ هي الهدف.. كسر باب الزريبة الخشبي، دون أن يشعر أحد، فلديه الحرفية اللازمة لذلك. أخرج جاموستين وبقرتين، واقتادهم بعيدا.

وأقبل النهار بطيئا، كأنه يتواطأ مع الليل على القرية وأهلها.. خرج الشيخ صديق من بيته يقصد الجامع، ليؤدي صلاة الصبح قبل سطوع الشمس، ليعوض صلاة الفجر، التي فاتته بسبب (الكفرة قلالات الدين) كما كان يقول؛ فوجد عبد التواب ملقىً على الأرض، بجواره عصاه، وآثار الدم على وجهه، ورأسه مازالت تنزف.. صرخ الشيخ صديق مناديا عليه، لكن عبد التواب

لم يجبه.. هرول الناس إلى الشيخ مسرعين، يحاولون إفاقة عبد التواب.. لكنه أبى.. بدا أنه قد حقق أمانيه، وذهب إلى ابنته. لن تستطيع القرية التمرد على الأحزان.. فالأحزان موجات متعاقبة كموج البحر لا تنتهي.. تنوح النساء.. ويصرخ الأطفال.. وتتحجر دموع الرجولة في أعين الرجال. كل مايستطيعون فعله هو ضرب كف على كف..

أقبل سيد أبو شمروخ هو الآخر يلطم خدوده، ويهيل التراب على رأسه ويصرخ:

- الحقوني يا عالم.. الحقوني يا هووو.. داري اتخربت.. بهايمي راحت

رد عليه عبد الرحيم الحلاق مستنكرا وغاضبا

- ايه يا أبو شمروخ هي ناقصاك انت كمان؟!

- بهايمي اتسرقت يا ناس يا خلق هووو

- اتسرقت ازاي ديه؟؟!!

- قمت من منامي مالقتش بهايمي في الزريبه.. ياريتني كنت نمت آخر نومه!

حضر العمدة هواري مهرولا، يسب القرية وبلاويها.. أصبح منصبه مهددا بخطر شاهين منافسه. لقد أنذره من قبل مأمور المخفر، إذا وقعت حادثة أخرى في قريته، سوف يعزل، وبديله شاهين. عبد الباسط من خلفه يحاول طمأنته.

حضر النائب ثانية، ومعه الحكيم الشرعى والمأمور. لكن هذه المرة لم يكن كسابقتها ممتعضا، بل كانت على وجهه علامات السعادة.. كشف الطبيب على جثة عبد التواب، وأمر النائب أهل القرية بدفنها.. القاتل لابد أنه مجهول!..

توجه إلى قصر الباشا، حيث أكرم وفادتهم مثل المرة السابقة، وغادروا

القرية، بعدما خلع المأمور العمدة هواري، وأسندت مهام العمودية إلى شاهين. ضاعت العمودية من هواري بسبب عبد التواب الطيب، الذي قتله الهجانة.. هل كان من الممكن أن يجيب العمدة هواري على سؤال النائب بأن القتلة هم الهجانة؟.. لو قال ذلك لن يخلع من العمودية فقط.. قد تقيد القضية ضد معلوم وليس مجهولا.. المعلوم بالطبع سوف يكون العمدة هواري نفسه. والتاجر الماهر، هو الذي إذا اضطر أن يخسر، يجب أن يقلل تلك الخسارة؛ هكذا كان يحدث نفسه هواري.

الفرصة مواتية للعمدة شاهين، ليبسط سيطرته على القرية، ويقدم قربان الطاعة والولاء للباشا.. فأمر الخفراء أن يبحثوا ويفتشوا في حظائر البلد عن بهائم سيد أبو شمروخ. فتش الخفر ديار القرية، ولم يعثروا على بهائم تعيس الحظ.. بح صوته من البكاء، وتورم خده من اللطم، واحمرت عيناه.. حسدته القرية، لا يملك أحد جاموستين وبقرتين غيره. استدعى العمدة الجديد القديم شاهين الحلاق عبد الرحيم، لكي يقص شاربه ويهذبه، ليليق بمنصب العمودية. لو ارادة العمدة معرفة الشاردة والواردة في القرية، عبد الرحيم خير من يقوم بهذه المهمة. سأله العمدة

- مين اللي سرق بهايم الواد ابن أبو شمروخ؟

رد عبد الرحيم، مطأطأ الرأس من الخجل، لفشله لأول مرة في إجابة العمدة عن أسئلته..

- مش عارف يا حضرة العمدة

- يعنى ايه مش عارف يا بهيم!! دي أخبار البلد مع الحلاقين اللي زيك.. ده انت بتبقى عارف اللي حامل واللي ولدت واللي بتشاور عقلها تحمل ومابتخفاش عليك خافية.. شكلك لسه مونون مع هواري

ارتبك عبد الرحيم الحلاق وقال:

- والله ياحضرة العمدة ماني عارف.. اقولك على حاجة.. كلم ابويا عوضين المخاوي؟؟

- عندك حق يا حلاق الغبرة نكلمه

- زي بضاعة تهامي ما رجعها بعد ما سرقتها الجنية مراته..

وبالفعل، استدعى العمدة شاهين عوضين المخاوي.. طلب منه المساعدة في عودة بهائم سيد أبو شمروخ.. سيكون معروفا لن ينساه العمدة أبدا. لم يفتش الخفر دار عوضين كما فتشوا ديار أهل القرية، خوفا من زوجته الجنية.. طلب من العمدة يومين حتى يطلب من زوجته مساعدته في العثور على البهائم والانتقام من السارقين، فوافق العمدة دون تردد، واضعا ثقته الكاملة في زوجة عوضين، الوحيدة التي تستطيع معرفه السارق وإعادة البهائم.

قبل نهاية المهلة، حضر عوضين، بصحبته الجاموستين والبقرتين إلى دوار العمدة شاهين.. زف له خبرًا سعيدًا بعودة البهائم.. وانتشر الخبر في القرية.. للمرة الثانية يستطيع عوضين إعادة ما يسرق من القرية. لكن هذه المرة مختلفة.. السارقين إنس، ليسوا جن، من قريةكفر مصيلحي المجاورة.. استطاعت زوجة عوضين الانتقام منهم، وأعادت الحق لأهله.. وأصبح لعوضين بركات كثيرة، برغم إنه (مابيركعهاش) مثلما يقول الشيخ صديق..

* * *

عاد محمد أفندي من السفر.. لا تعلم القرية أين كان، ولا كيف انتهى به الحال.. كعادتهم ذهبوا اليه مهنئين لعودته سالما للقرية. تغيرت هيئة محمد أفندي.. شعره أصبح طويلا، ولحيته الصغيرة نمت، وكأنه كان في صحراء لا زرع فيها ولا ماء.. صافح الجميع وعيناه تمتلىء بالدموع، حتى نبرة صوته المرحبة بأهل قريته، ليست نفسها التي كانت قبل سفره.. صافحه الشيخ صديق بحرارة، محتضنا إياه..

ـ حمدلله على السلامة يا محمد أفندي

أومأ محمد برأسه على غير عادته، فالشيخ صديق ليس ضيفا عاديا، فابنته عائشة هي خطيبته.

أما يوسف أفندي، فلم يظهر على وجهه الاستغراب من هيئة صديقه.. همس مدبولي الصغير في أذن عبد الرحيم

ـ ماله محمد أفندي بقى شكل عبد التواب الطيب؟.. هي البلد جرالها ايه؟!

سأل عبد الرحيم الحلاق محمد أفندي:

ـ كنت مسافر فين يا محمد أفندي؟

أجاب محمد أفندي بكلمة واحدة، دون زيادة:

ـ فلسطين

ـ فلسطين دي فين؟؟

أجابه عويضة ابو شلتوت:

ـ جنب طنطا

ضحك يوسف أفندي، وابتسم محمد أفندي، واستغرب الحاضرون لضحكاتهم المفاجئة، حتى حل الشيخ صديق اللغز مجيبا:

ـ فلسطين دى بلد زي مصر فيها المسجد الأقصى

زادت الألغاز في رؤوس أهل القرية، وسأل عبد الرحيم محمد أفندي:

ـ وماها فلسطين؟!

رد محمد افندي بصوت مختنق:

- اليهود احتلوها

ساد الصمت في دار محمد أفندي.. هم لا يعرفون مال محمد أفندي يتكلم هكذا.. قطع عليوة الصمت:

- هم اليهود بيدهولوا ايه هناك؟!

زاد عبدالرحيم الحلاق:

- يعني مكوشين على كل حاجة حدانا وكمان رايحين يتعدوا على بلد تانية!

عاود عليوة حديثه..

- عمر أفندي بتاعهم وشكوريل بتاعهم والبنوك بتاعتهم.. دا اني خايف يكونوا اشترونا احنا كمان

حاول الأفندية الضحك، فخرج مشوها. قال الشيخ صديق مازحا:

- عندك حق يا ولا يا عليوة.. حاكم اليهود دول أجدع ناس بتعرف تشتري وتبيع..

رد أبو شمروخ مازحا:

- اني موافق يبيعوا البت مراتي.. علشان اخلص منها

تعالت الضحكات، بينما وجه عبدالرحيم الحلاق حديثه ناحية عبدالصادق نجار السواقي..

- تبيع يا عبدالصادق مراتك؟

تغير وجه عبدالصادق، وقال بصوت غاضب:

- اتلم يا ولا يا حلاق الغبرة انت خلي عندك حيا

استلم الشيخ صديق طرف الحديث، محاولا تهدئة عبدالصادق:

- خلي عندك خشه يا ولا يا حلاق.. انت غيران ومنكاد منه علشان مراته حلوة ومراتك شكل مدبولي الله يرحمه.

ضحك عبدالصادق النجار، وحك قفاه وعدل طاقيته الصوف البني، بينما سأل الشيخ صديق الأفندية:

- مالكم يا افندية شايلين طاجن ستكم ليه؟!

رد يوسف أفندي، وعلى وجهه الأسى والحزن:

- يا جدعان الاستعمار والصهيونية العالمية زرعوا اسرائيل شوكة في ضهرنا..

رد عبدالرحيم الحلاق مازحا:

- مايزرعوا يا يوسف أفندي واحنا مالنا.. ما زي ما قال جحا بدل بعيد عني خلاص

رد محمد أفندي غاضبا:

- ماتقولش كده.. النهاردا خدوا فلسطين بكرة هياخدوا عزبة الباشا

رد أبو شمروخ مازحا غير مبالٍ:

- ما ياخدوها هي كانت ملك اللي خلفونا.. ما اسخم من ستى إلا سيدي.. يمكن يكونوا أرحم م الباشا!

زاد الغضب على وجه الأفندية، وقال محمد أفندي:

- اليهود لا عهد لهم.. خلفوا العهد مع الرسول.. هم خونة والقرآن قال كده

رد الجميع وقد تغيرت وجوههم:

- عليه الصلاة والسلام

قال يوسف أفندي:

- يا رجالة احنا مشكلتنا مش مع اليهودية.. احنا مشكلتنا مع الصهيونية والاستعمار

رد الشيخ صديق، وهو يهز رأسه رافضا حديث يوسف أفندي:

- بتقول ايه يا يوسف أفندي.. دول قتلوا الانبيا.. وربنا قال عليهم ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

تجهمت الوجوه، وانصرفوا وهم يتناقشون فيما بينهم.. يا ترى من أقسى قلبا: اليهود أم الباشا تيسير؟!

ظل يوسف أفندي بجوار صديقه محمد أفندي، يخفف عنه.. برغم خلافاتهما السياسية، لكنهما دائما يحتفظان بصداقة دامت وصمدت طويلا أمام تلك الخلافات. حكى محمد أفندي ماحدث منذ غادر وذهب للجهاد في القدس، وبطولات المصريين هناك، واقترابهم من تحرير القدس كاملة، لولا الخيانة التي هزمتهم. كم كانت بطولات زملائه رائعة.. كم كان القائمقام أحمد عبدالعزيز بطلا مغوارا لا يهاب الموت. قهروا اليهود وعصاباتهم الهجانة والأرجون والشتيرن وغيرها من العصابات، التي تروع أهل فلسطين بالمجازر، التي ترتكبها منذ وعد بلفور اللعين، وإلغاء بريطانيا العظمى الانتداب عن فلسطين، لكي تمنح الفرصة لليهود ليغتصبوها.. لقد خدعنا يا صديقي.. العالم كله وقف ضدنا هناك.. انخرط محمد أفندي في البكاء، فأجهش يوسف

أفندي معه. حاول محمد أفندي أن يتماسك ويواصل حكايته. قال وهو يمسح دموعه:

- كنا نقدر نبيد اليهود بس للأسف المؤامرة كانت كبيرة علينا.. اللي عمله الجيش المصري والإخوان في الفالوجه يثبت اننا كنا قادرين

وسط أحزان محمد أفندي ويوسف أفندي، وبعدما غيم الليل وأطل بوجهه الكئيب، مسدلا ستائره على القرية.. لن يبقى عوضين المخاوي أسير سرقة الفلاحين الفقراء. آن له آن يتطلع إلى الأعلى.. لما لا يفكر في سرقة قصر الباشا.. سافر الباشا إلى القاهرة للعلاج، ولن يعود قبل أسبوع على الأقل. وحتى خفراء القصر - كعادتهم عندما يغيب الباشا وابنه - يعيثون في القرية فسادا فرحين بما أوتوا.. إذًا هذه الليلة ستسرق الجنية قصر الباشا.. حتى لو عاد الباشا وطلب منه إعادة المسروقات، فإنه المستفيد ليقوي علاقته بالباشا. ومن يدري، قد يعينه عمدة بدلا من شاهين وهواري.

تجول عوضين حول سور القصر، يحاول أن يستكشفه، وبيده أدواته التي يحتاجها.. تخطى السور، فإذا بصوت غريب يصدر في الظلام، يتحدث بلكنة تشبه كلام الجنود الانجليز في المعسكر القريب من القرية. وقف عوضين مرتبكا في مكانه، ينظر في الظلام إلى ما حوله، فلم يجد أحدا.. لا صوت يعلو فوق هذا الصوت. الذئاب تعوي بالخارج، والكلاب والغربان تتقاطع معه.. والصوت يصدر من الغرفة هناك.. أهو عفريت جاء ينتقم منه لإلصاقه التهم بالعفاريت؟.. ارتعدت فرائصه وتغير لونه وبهت. شعر بثقل لسانه، وحاول لملمة قواه ليعود إلى داره قبل أن تناله العفاريت.. لكن ساقيه لا تقويان على حمله.. الرعب، وسنه الكبير تحالفا عليه. حاول الخروج من القصر متوكئا على نَبُّوته.. ظل يحاول استجماع قواه، حتى استطاع الخروج من القصر؛ لكنه سقط ثانية على الأرض.. زحف على جنبه.. الصوت مازال كما هو.. يبدو أن العفريت يتعقبه.. ثقل لسانه.. لا يقوى على الصراخ ليطلب النجدة.. إنه

كابوس.. ازدادت ضربات قلبه الضعيف، يوشك أن يتوقف..

أخاف عوضين القرية من الجنية زوجته ومن سيرة العفاريت.. ومات خوفا من جنية البي بي سي الإنجليزية، الإذاعة المفضلة لمراد ابن الباشا تيسير، الذي ترك الراديو وسافر مع أبيه المريض جدا، فمات عوضين بجوار قصر الباشا.

في الصباح.. ذهب سيد أبو شمروخ، يجر من خلفه مواشيه، إلى حقله، قبل طلوع النهار، بعيدا عن أنظار فردوس الحاسدة، التي حسدت بهائمه من قبل حتى سرقت. كل القرية تخشى كثيرا من فردوس (أم عينين صفرا) كما يطلقون عليها. إذا نظرت بعينها إلى جاموسة، فلابد أن يصيبها مكروه. ويقال إنها السبب في مقتل ليلى بنت عبد التواب الطيب؛ حسدت ليلى لأنها كانت جميلة، وفردوس وبناتها دميمات. يحكون أيضا عن المنشاوي أبوالوفا، الذي كان يجر بقرته العشر الوحيدة، ومر من أمامها نهارا، فماتت البقرة ليلا، وعن ذلك الذي نضب ضرع بقرته (الهولندى) بسبب عينيى فردوس الصفرا..

أبو شمروخ ـ كعادته ـ يمتطي حماره، يهز رجليه، وبيده يمسك حبل بهائمه التي تسير من خلفه، ويغني، ويصفر بفمه كأنه الناي.

واجب عالحلو يتدلع، ويسوق دلاله ويتمنع

وأنا قلبي عليك متولع، امتى أشوف واتمتع

فجأة توقف الحمار.. مازال أبو شمروخ شاردا في غنائه.. سب الحمار الغبي اللعين وضربه بعصاه الغليظة، فلم يتحرك. نظر أمامه.. عوضين المخاوي مستلقٍ على الجسر.. ناداه:

- يا ابا عوضين

لم يجبه.. نزل عن حماره مستريبا.. لا ينام عوضين إلا في حقله! هزه ونادى عليه ثانية ممسكا يده.. عوضين المخاوي مات.. ترك أبو شمروخ مواشيه،

وهرول إلى القرية يصيح في الناس:

- سيدنا عوضين مات يا بلد.. سيدنا عوضين مات يا بلد

تجمعت القرية بسرعة في مكان الجثة، القريب من قصر الباشا، البعيد عن حقل عوضين.. يبدو أنها طارت وأتت إلى هذا المكان الطاهر. التف الجميع حول الجثة، يلمسونها بأيديهم ويمسحون على أجسادهم.. سيدنا عوضين.. نعم سيدنا.. إذًا إنه سيدنا عوضين.. اتفقوا على دفن عوضين في نفس المكان، بعدما استأذنوا مراد بيه، ليقيموا مقاما يليق به. هتف الجميع من خلف أبو شمروخ، وسط سخرية وضحك يوسف أفندي ومحمد أفندي.

- مدد يا سيدي عوضين مدد

من بعد الراحل يعيد للمسروق ما سرق منه؟.. من بعده ينتصر للمظلوم من ظالمه؟ هاهم أمام دكان الباشا يتندرون على أيامه، ويحكون عن بطولاته، وتهامي بداخل دكانه يبدي أسفه..

- ده كان راجل بركة

رد الشيخ صديق:

- والغريبة أنه مكنش بيركعها

تنهد عبد الرحيم الحلاق، وقال وهو يدخن سيجارته:

- هو أنتم مفكرين الدين بس في الجوامع.. ربك رب قلوب يا مولانا

امتعض الشيخ صديق من كلام عبد الرحيم المنفلت، وصاح غاضبا وهو يلوح بيديه ناحيته:

- ما انت كافر وتقولها.. بتبقى نايم على جنبك ع الجسر والأدان بيدن ومابتركعهاش أنت كمان

استلم عويضة خيط الحديث، محاولا تهدئه الشيخ:

- اهدوا يا ناس احنا عايزين نفكر هنعمل ايه بعد سيدنا ما طار

ضحك محمد أفندي ويوسف، وسط استغراب الحضور، وقال يوسف ساخرا:

- طار فين يا أبوالعريف يكونشي سافر انجلترا يتفاوض مع جورج السادس ولا رئيس وزراته كلمنت أتلى علشان يسيبوا البلد

بدا على وجه عويضة الغضب، وقال بصوت لا تنقصه الحدة:

- هو أنتم كده يا أفنديه.. مفكرين نفسكم نص الدنيا.. وأنتم مش عارفين أيتها حاجة..

تابع أبو شمروخ غاضبا ومعاتبا الأفندية:

- هو دية العشم يا أفنديه يامتنورين دية رد الجميل لسيدنا اللي كان حامينا

ثم قال عبد الرحيم، محاولا الذب عن سيدنا عوضين:

- معذروين يا واد يا عويضة مايعرفوش أن سيدنا طار بالنعش.. مدد يا سيدى عوضين مدد.. سامحهم يا سيدي

أضاف عليوة:

- كان وشه أبيض زي الملايكة

ثم قال عويضة موجها حديثه للأفندية:

- إن شاء الله وشكم هيسود لما تموتوا علشان بتتمسخروا على سيدنا

همس عبدالرحيم الحلاق بصوت منخفض، وهو يتلفت يمينا ويسارا، وكأنه تذكر أمرا هاما:

- بيقولوا الواد متولي ابنه جه من البندر

رد الشيخ صديق:

- هيجى يدهول ايه؟.. ده عيل صايع بيحب الصرمحة ولاعمره نافع

رد أبو شمروخ:

- اني سمعت أنه هيخدم مقام أبوه

رد الشيخ صديق مذهولا، وهو يضرب كفا بكف

- ازاي؟ والعملة المهببه بتاعته.. هى البلد نسيت فضايحه!

رد عبدالرحيم الحلاق:

- ربك تاب عليه يا شيخ صديق.. مش أنت بتقول أن أبواب السما مفتوحة وأنها أكبر من بوابة قصر الباشا

حضر العمدة وبصحبته عبدالباسط الخفير.. سأله الشيخ صديق:

- حقه يا عمدة الولا الصايع متولي ابن سيدنا عوضين هيحرس مقام ابوه؟؟!!

رد العمدة:

- ايوه يا شيخ صديق

رد الشيخ صديق مستنكرا:

- ازاي ديه يا عمدة؟

رد العمدة شاهين بصوت منخفض

- عوضين كان موصي بكده وبعدين افرض الواد مخاوي زي أبوه.. اعمل معروف يا شيخ صديق البلد ماعدتش ناقصة.. بكفاية دار البت

بهانة بنت أبو سيد أحمد اللي كل يوم والعة

رد عبدالرحيم الحلاق ضاحكا:

- من عمايلها السودا يا حضرة العمدة

رد عليوة بنبرة ساذجة:

- أهي ايشمعنى بهانة.. أومال عجل أبو شمروخ (مغاورى) عشيقها داره مابتولعش هي كمان ليه!!

رد أبو شمروخ غاضبا:

- هو يعنى مافيش بهايم في البلد إلا بهايمي يا عالم يا سقعانة أنتم!

رد عبدالرحيم الحلاق ضاحكا، وهو يثني رقبة أبو شمروخ تحت ذراعه:

- علشان محدش عنده بقرة هولندي ولا عجل هولندي إلا انت يا ولا

دعي أهل القرية لحضور حفل زفاف عائشة ابنة الشيخ صديق ومحمد أفندي. لن تقام حفلات في القرية ولا زمر ولا طبل، لأن القرية مجروحة بالمأتم. سوف يكون الفرح، كما قال الشيخ صديق لمحمد أفندي وعائشة:

- احنا هنعمله سكيتي.. علشان ماحدش في البلد يا كل وشنا.

حضرت مجموعة من الأفندية، يرتدون فوق رؤوسهم الطرابيش الحمراء، ليشاركوا أخاهم محمد الاحتفال بيوم عرسه.. وخرجت الفتيات من دار الشيخ صديق، ليحملقن للأفندية (بتوع البندر).. كم يحلمن أن ينتشلن من مستنقع القرية الضحل الممل إلى رحاب المدينة الواسع.. يعوجن ألسنتهن كما يعوج أهل البندر، ويرتدين فساتين ملونة مثلهن، ويرحمن من العمل الشاق في الحقول. هن لسن أقل جمالا من نسوان البندر. كل منهن تستند بذراعها إلى جدار دار الشيخ صديق.. يضعن أكفهن على أذقانهن، ونسيم القرية العليل

يشاغلهن بنسماته، التي تداعب خيالهن، فيطلقن العنان له. تتخيل إحداهن الأفندي الذي يرتدي بنطلون وقميص فوقه طربوش أحمر أتى ليطلبها للزواج، فور الانتهاء من حفل زفاف محمد أفندي، وسيعود إلى بلاده بصحبتها.. تتمنى كل منهن أن يرفع أحدهم عينيه ليسقط في غرامها، فهو لن يستطيع مقاومة عينيها الكحيلتين.

لكن الأفندية يشعرون بالخجل، ينظرون إلى الأرض، كأنهم يحصون عدد ذرات التراب.. تلوح الفتيات بطرحهن ناحيتهم، لكن مجهوداتهن تذهب أدراج الرياح.. ضحكت إحداهن وهي تلوح بيديها يمينا ويسارا، وتلوي شفتيها:

- جات الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح.. شكلهم مش من البندر.. البندروايه باكسين وعنيهم يندب فيها رصاصة

في داخل دار الشيخ صديق، تجلس العروس بجوارها نساء القرية المتزوجات، بعد أن تخلت عنها صديقاتها، وذهبن ليرين الأفندية. فردوس كانت أولى الحاضرات، رغم أن أهل القرية جميعهم لا يحبون (محضر) فردوس، وخصوصا في زواج البنات.. فردوس فاتها زوجها بعد زواج دام ثلاث سنوات فقط، ويقال في القرية إنه طفش منها لمنظرها، فهي تحمل من اللحم كما تحمل البقرة الهولندي، التي يمتلكها سيد أبو شمروخ. كانت النساء يسخرن منها ويتهامسن أن لديها من اللحم ما يكفي الكلاب سنة.. حاجباها كثيفان ومبعثران على عينيها، يغطي الشعر جبهتها حتى ما بين العينين.. أنفها عريض.. فمها يقترب من أذنيها، خاصة عندما تضحك، يتصل رأسها مباشرة بجسدها دون عنق.. رقصت واهتز جسدها ونهديها الكبيرين، وهي تطلق الزغاريد وتغني وتأمر النسوان ـ الغجر كما كانت تناديهن ـ أن يردوا وراءها، وإذا منع الخجل إحداهن، نهرتها ووكزتها بقوة في جنبها..

يحيا ابوها يحيا.. عوج الطربوش على ناحية

يحيا أبوها وشنبه.. اللي ما حدش غلبه...

يحيا ابوها وعمته.. اللي مشَّى كلمته

يحيا أبوها يحيا..

يحيا أبوها يا جدعان...

جاب عزاها على التمام

يحيا ابوها ورمش عنيه

اللي ماحد مَشى عليه

الشيخ صديق حائر بين الرجال في الخارج والنسوة بالداخل. يطلب من النساء أن يخفضن أصواتهن لأن البلد مجروحة؛ وعندما سمع غناء فردوس، وضع يده على قلبه، وقال بصوت لم يسمعه غيره:

- سيبي أبوها في حاله.. يارب عدي الليلة دي على خير.. ربنا يستر منك

في الخارج، مازالت الفتيات يتهامسن ويبدين زينتهن، في محاولة يائسة ليفزن بالأفندية.. وشباب القرية ينظرون إليهن في غضب وحنق.. (عديمات الخشى والربابة).. ماذا يعجبهن في العيال الأفندية؟ لاجمال ولا قوة ولا شجاعة، لا يقارنون مطلقا بشباب القرية.. بالرغم مما يقولون، إلا أنهم يشعرون بضآلة أمام البندراوية، يحاولون إخفائها خلف ستائر الغرور المزيف.. الدم يغلي في عروقهم.

تنهد عبد الرحيم وهو يبتلع ريقه:

- داتكم القرف هيبصولكم على ايه دانتم غفر

ثم قال أبو شمروخ ساخرا:

- الواحدة منهم مفكرة نفسها السفيرة عزيزة

رد عويضة أبو شلتوت مازحا:

- ولا يمكن تكون بنت الملكة نازلي

ضحك الشباب وهم جالسون القرفصاء على الأرض، يتابعون محمد أفندى، يجلس أمامهم على كنبة وبجواره الأفندية. قال مدبولي الصغير وهو يحملق في الأفندية

- عيال نضيفة ومستحمية وبيحطوا ريحة.

تلقفها عويضة أبو شلتوت ساخرا:

- هم ريحتهم ريحة واحنا ريحتنا جلة!

وازدادت ضحكات الشباب، حتى لفتت أنظار الأفندية، ثم عادوا لأحاديثهم الجانبية، غير مكترثين بشباب القرية وفتياتها.

انفض الحفل البسيط، واصطحب محمد أفندي عروسه إلى داره الملاصقة لدار الشيخ صديق، وانتظر أهل القرية المنديل أمام الدار، صك البراءة للعروس، وصك الكرامة لأبيها، لتعلي رقبته في القرية، وصك المهارة والرجولة والفحولة للعريس. تتهامس النساء وتضحكن في خجل، ويتساءلن ماذا يفعل محمد أفندي الآن، وهو يخجل من نفسه ومن خياله. طوال عهده في القرية لم يشرع في وجه فتاة، ولم يسمع عنه أن له علاقات نسائية في القرية.. أيستطيع مجاراة عائشة بنت الشيخ صديق؟ ربنا يستر عليه. همست إحداهن بعيدا عن آذان الرجال، وهى تحرك فمها يمينا ويسارا، ملوحة بيديها..

- يا أختي أنتِ وهي ياما تحت السواهي دواهي ده سهُن

في الجانب الآخر، يقف الرجال يلهب حماسهم كلام مدبولي الصغير عن يوم دخلته، وماذا فعل هذا العفريت بابنة عوضين المخاوي.. لقد جعلها تصرخ وتتوسل إليه الكف، لكن الظالم أراد أن يخرج العفاريت من جسد أبيها!!.. يسمع أهل القرية كلام مدبولي الصغير بحماس شديد، رغم علمهم أنه يكذب؛ فلا شيء في هذه القرية ـ المفضوحة كما يقول الشيخ صديق ـ يداري.. تأخر محمد أفندي بالتلويح بالمنديل، فسمح لخيال القرية أن ينسج القصص عن خيبته القوية.. يرفض محمد أفندي أن تدخل خالة العروس معهما في غرفة نومهما، لكن هذه عادات القرية التي توارثتها الاجيال، ولن يستطيع الشيخ صديق أن يكسر هذه العادة المقدسة.. محمد أفندي يطلب أن يدخل بزوجته، والشيخ يهدده أنه سوف يصطحب ابنته ويعود بها إلى داره، إذا لم ينصع إلى عرف القرية، ويسمح لخالة العروس لتدخل معهما. مر أكثر من ساعتين، وأهل القرية في الخارج، والأعين شاخصة ناحية غرفة محمد أفندي المطلة على الشكمة.. في النهاية، استسلم محمد أفندي لعرف القرية الظالم له، تحت حصار المنتظرين بالخارج، والذين راودهم الشك في قدرته على حسم معركة ليلة زفافه.. وماهي إلا دقائق، وخرجت خالة العروسة إلى الشكمة، ومعها المنديل الأبيض المطلخ بدماء الشرف، التي جعلت رأس الشيخ صديق وابنته تطال السماء.. زغردت النساء، وهلل الرجال، وأطلق الشباب الصافرات ابتهاجا بنصر محمد أفندي المبين، في تلك المعركة حامية الوطيس، التى راح ضحيتها بعضٌ من قيمه.. لو لم يوفق محمد أفندي في مهمته، لكانت سيرته ملهاة للقرية، التي تعاني الأحزان المتتالية، وتحلم بالخلاص منها. انصرف الجميع، بينما همس أحدهم متندرا:

- انتو عايزين الواد الأفندي يتربط ونسيبه الشيخ صديق اللي بيربط الناس!!

* * *

استيقظت القرية على خبر وفاة الباشا تيسير.. لم يحمل الخبر الحزن للقرية، بل على العكس، فقد جعل أهلها يستنشقون هواءً يحمل رائحة الحرية، ليس فيه ظلم الباشا وعنجهيته، أو على الأقل لن يأكلوا خبز الذل والهوان والغموس بالقهر.

نعم سيختفي تيسير باشا عن مسرح القرية، ولكن ليفسح المجال لأبطال جدد يعتلون مكانه، ربما لن يكونوا بنفس قسوته وجبروته. تعلم القرية أن مراد بيه ورث بعضا من صفات أبيه القاسية، لكنه بالتأكيد لن يكون مثله.

عند القصر، احتشد الفلاحون في مشهد مهيب، يبكون بحرارة، وعندما يخفون أعينهم عن خفراء الباشا، يضحكون ساخرين.. اليوم راحة من العمل في حقول الباشا، ففرح الفلاحون، وخاصة الذين أصابهم الدور بالعمل في السخرة. رحموا من العمل الشاق هذا اليوم، وقد يرحمون أسبوعا كاملا، ليترحموا على الباشا. امتلأ جرن الباشا بالنساء، واكتسى باللون الأسود، وشكلن حلقات، تتوسط كل حلقة سيدة كبيرة في السن تقف بينهن، وهن جالسات على الأرض، تصرخ هي وتلطم وتنوح، والنساء يصرخن ويلطمن وينحن من خلفها، كأنهن كورال أناشيد الوداع:

يا عود طري واتلوى

ميل ومال ع الأرض

امبارح كان في وسطنا

والليلة تحت الأرض

كلما اجتهدت الندابة في إخراج النواح من النساء، وزادت معدلات اللطم، زاد أجرها.. يستحق أهل القرية أن يمنحهم يوسف بك وهبي فرصة التمثيل على خشبة المسرح.

وبعدما انصرف الجمع، وانتهت مراسم الجنازة، عادوا إلى دكان تهامي، بوجوه غير تلك الوجوه التي كانت أمام قصر الباشا. تنهد يوسف أفندي، وقال ساخرا:

- اه يا بلد فيكِ النفاق بالكوم!

وقال عبد الرحيم الحلاق وهو يضرب كفا بكف:

- والله يا جدعان ماني مصدق.. الباشا تيسير يموت ازاي؟

رد الشيخ صديق متهكما:

- ليه يا حلاق الغبرة؟!.. هو فيه حد مخلد.. ده حتى سيدنا النبي مات..

ردعويضة بسذاجة:

- وسيدنا عوضين كمان يا مولانا

رد عبد الرحيم الحلاق:

- اني ماكنتش مفكر ان الباشا ممكن يموت كده زيينا

ضحك الجميع، وقال أبو شمروخ:

- والله عندك حق يا ولاه يا عبد الرحيم!!

أخذ عليوة طرف الحديث، وقال:

- زمان الباشا شغال هناك في السخرة والملايكة بتحول عليه سباخ زي الحمير

ضحك الجميع، وقال عبدالرحيم الحلاق:

- إهي.. ده انت قلبك اسود يا عليوة.. مش ناسي اللي عملوه فيك

استمر حديث أهل القرية أمام الدكان، واستمرت الضحكات وتعالت،

حتى أتى مغاوري خولي الأنفار، فساد الصمت، وتظاهر البعض بالبكاء وأخفى عينيه.

مغاوري، ذلك الرجل القاسي القلب، الذي كان له نفوذ كبير لدى الباشا، فإذا رضي عن أحد عاش بسلام، وإن لم يرض فإنه يعاقب بالعمل في السخرة عند الباشا أربعة شهور، وقد تصل إلى سنة.. لمغاوري بعض العلاقات الآثمة في القرية.. وتتهامس النساء في القرية أنه نسوانجي، في أيام جني القطن في الموسم الماضي، وقف كعادته خلف النسوان اللائي يجنين القطن منحنيات، تحت سماء شمسها لا ترحم، والدنيا "هتنطق من الحر".. هكذا كن يتهامسن، خوفا من أن يصل الكلام إلى آذان مغاوري، الذي يتقنع العبوس والتجهم. عندما تشرع إحداهن لتلتقط أنفاسها، فيصرخ في وجهها، فتعود إلى الانحناء مرة أخرى على شجيرات القطن. ظهورهن تكاد تقسم ألما، ويود مغاوري أن تظللن منحنيات، ليروي عطشه وحاجاته، التي أظمأتها زوجته ست الحسن. وكلما اهتزت مؤخرة إحداهن، اشتعلت الرغبات وسال لعابه، فيتجه ناحيتها، وعيناه تحملقان، ويعض شفته السفلى، ثم يقترب منها محاولا الاحتكاك بها.. تراقبه النسوة بطرف أعينهن، حتى إذا اقترب من إحداهن، نبهتها الأخريات، فتبتعد عنه، فيتظاهر بالغضب منها، مشهرا كلمته المتكررة، التي تتهكمن بها في الحقول، عندما يفشل في الاحتكاك بإحداهن:

- شوفي شغلك يا بت انتِ وهي.. مشش في ركبك منك ليها..

* * *

أرسل رؤوف بيه لأخيه مراد خطابا، يطلب فيه حقه في ميراث الباشا، فهو لن يعود إلى مصر ثانية، خاصة بعدما تزوج فرنسية، ونال الجنسية الفرنسية. على الفور، استجاب مراد لطلب أخيه، بعد نصيحة من ذراعه الأيمن، فهو يستطيع الآن أن يستحوذ على أرض أبيه كلها، مقابل القليل. فرؤوف لا يعرف

ثمن الأرض، ولا غيرها من ممتلكات أبيه، وكفاه ما تكلفته فترة تعليمه في فرنسا.. هكذا نصحه مغاوري

ليس لمراد خبرة في التعامل مع الفلاحين وإدارة عزبة أبيه، فاعتمد على مغاوري، مما أثار حنق وغضب فرج، ذراع تيسير باشا اليمين. واشتعلت الغيرة بين فرج ومغاوري..

- جه حافي مطرود عليه تار.. وفضل لابد في الدرة لحد ماجتله الفرصة..

ردت زوجته ساخرة منه، وهي تلوح بيديها وتحرك فمها يمينا ويسارا:

- هو عرف يلبد في زواريقه.. انما انت يا حسرة !

لم يطل أمل الفلاحين، ظنوا أن بعد موت الباشا تيسير مات الظلم وولد الحق والعدل على يد مراد ابنه.. لكن كما قال سيد أبو شمروخ: ابن الوز عوام. في الحقيقة لم يكن ابن الوز عوام، كما يعتقد الفلاحون، فمراد لا يستطيع أن يقدم على خطوة دون استشارة مغاوري الجديد. وقد بدت لمغاوري نقاط ضعف كثيرة في مراد، كان يراقبها قبل وفاة الباشا. يضعف مراد كثيرا أمام النساء، وخاصة الريفيات منهن.. مغاوري الجديد، الذي كان يغضبه كثيرا هذا الاسم، أصبح الحاكم الأول للقرية، يديرها من خلف ستار مراد بيه. يحلم مغاوري أن يصبح عمدة، وفجر حلمه اقترب، خاصة بعد حادثة دياسطي أبوسنة. كان دياسطي مع زملائه من الفلاحين يحرثون حقل الباشا، وقد بلغ به التعب مبلغه، ونال منه العطش.. قفز القناة إلى أرض الباشا المجاورة، وقطع عودين من القصب، ثم عاد إلى زملائه، فدبت الفرحة في عروقهم. وإن كان الخوف قد داهمهم من زيارة مفاجئة لمغاوري أو مراد بيه، لكن لم يحدث، ومرت الواقعة على خير. وفي اليوم التالي، انتظر مغاوري الفلاحين عند الحقل حتى أتوا، فصاح غاضبا في أبوسنة، الذي ارتعدت فرائصه، وعبس وقطب حاجبيه وسألهم:

- مين فيكم عدى أرض القصب يابن المركوب انت وهو؟

لم ينطق الفلاحون ببنت شفة، واكتفوا بالنظر ناحية أبوسنة، الذي كان ينظر إلى الأرض وساقاه ترتعدان من الخوف.. كرر مغاوري سؤاله ثانية مهددا، فأشاروا ناحية أبوسنة، الذي بدأ ينهار.

- انت يا ابن شرشيره؟؟

رد أبوسنة مضطربا:

- غصب عني يا ابا مغاوري والله كنا عطشانين

- غصب عنك دي تقولها لأمك.. الله يجحمها مطرح ما راحت

قيد الخفر أبوسنة من يديه وقدميه، كما تقيد البهيمة لحظة ذبحها، وأمسك مغاروى كماشة كانت بيد أحدهم، و بدأ في نزع بعض من أسنانه، بعدما طرحه الخفر أرضا وفتحوا فمه عنوة.. كان يضرب بقدميه الأرض مقاوما، ويرسل نظرات مستغيثة لزملائه الذين أعرضوا عن النظر إليه.. وقال مغاورى ساخرا:

- معدتش لك سنان يا ابن أبو سنة..

ثم أطلق ضحكات، تلتها ضحكات الخفر، والدموع تحاول أن تتلمس طريقها للسقوط من أعين الفلاحين عجزا ويأسا.. لازال الذل يسكن القرية.. لازال الخوف يسكن قلوب أهلها.. اعتقدوا أن نهار العدل قد ولد من رحم ليل الظلم الطويل، لكن الليل المستبدلم يسمح للنهار بالخروج.. القرية تتساءل متى الفجر؟ إلى متى يظل ليل الظلم جاثما على قلوبنا. أسنان أبوسنة كانت قربان الولاء الذي قدمه مغاوري الجديد، (الكاهن الجديد) إلى مراد بيه، يعلن فيه طاعته.

* * *

القرية ـ على غير عادتها ـ تعج بالأفندية الأغراب.. يبدو أنهم أصدقاؤه قد أتوا إليه.. الأطفال خلفهم، يمشون حفاة يرتدون جلاليب بالية متسخة، يحكون جلودهم ورؤوسهم، البؤس على وجوههم البريئة، التي تضحك مرحبة بالضيوف الأفندية. النسوة في الحقول تنظرن وتراقبن أيضا.. والرجال، وهم يسقون الأرض، كذلك.

لم تعتد القرية على مثل هذا العدد من الأفندية من قبل.. يصافح البعض الأفندية، وهم يتطلعون أن ترى القرية كيف يستطيعون أن يتعاملوا مع هؤلاء الأفندية وليس هناك فرق بينهم.. دخلوا جميعا دار يوسف أفندي، الذي كان ينتظرهم أمام الدار، وهو يهش على الأطفال أن يبتعدوا قليلا عن الضيوف، ويتأسف لهم عن إزعاج هؤلاء الصغار، الذين لابد أن يذهبوا قريبا إلى العمل في تنقية قطن مراد بيه من الغلت.. هم يرتدون طرابيش حمراء، وقمصان بيضاء وبنطلونات، وينتعلون أحذية جلدية.. لم يلبس الحذاء الجلد في القرية إلا العمدة ومغاوري ومحمد أفندي ويوسف أفندي، أما الباقون فكانوا ينتعلون (الحدوة).

أغلق يوسف أفندي باب داره، فالتف الأطفال خلف الباب، يحاولون أن يفتحوه بعصا رفيعة من حطب القطن يمسكها أحدهم. فطن يوسف أفندي لما يفعلون، فخرج اليهم زاعقا ومهددا. الاجتماع سري للغاية، لا يجب أن يطلع عليه أحد، وخاصة العمدة والخفر.

أعد لرفقائه الشاي، وكان بينهم كثير ممن لم يتعرفوا عليه من قبل.

"لن تسطع شمس الحرية في مصر إلا بنضال قوى الشعب العاملة، التي ستحرر المستضعفين من البشر من جور التحالف الطبقي الرأسمالي الاستعماري، والإمبريالية التي تسيطر على الإنتاج. الشيوعية سوف تسود يوما، لأنها التطور الطبيعي لحركة البشرية.. ندرك أن المهمة ثقيلة لكي نفهِّم

ذلك الشعب الغارق في الجهل، وخاصة الفلاحين والعمال، والذين تكالبت عليهم القوى الشريرة الرأسمالية والرجعية، لكي يرزح تحت وطأة العوز والفقر".

كانت هذه كلمة الرفيق زينهم، التي افتتح بها الاجتماع في دار يوسف أفندي. اختار الرفقاء دار يوسف لبعدها عن أنظار البوليس السري. يوسف أفندي عضو مؤسس في الحركة الديمقراطية للتحرر (حدتو).. حكى لهم يوسف عما يحدث في القرية من ظلم للفلاحين، الذين يضطرون للعمل في السخرة أربعة أشهر من السنة في أرض الباشا، وإلا يطردون من القرية..

"لن يتحرر الفلاحون من قهر واستعباد الرأسماليين والرجعيين إلا إذا عرفوا حقوقهم المهدرة وكيفية المطالبة بها. للأسف، الفلاحون والعمال مستضعفون في الأرض، فريسة الجهل والفقر.. غريب أمرنا نحن الفقراء، نبيع بعضنا قربانا للأغنياء، محاولة منا للبقاء على قيد الحياة. تماما مثل أفراد على ظهر سفينة، توشك على الغرق، ويضطر المسافرون للتضحية ببعضهم ليبقى الآخرون على قيد الحياة. ولكن في النهاية، لن يبقى أحد غير الأغنياء.. أما الفقراء فهم إلى زوال، بفعل غبائهم وتخليهم عن بعضهم.. لابد أن نتحد جميعا.. عاش نضال الفلاحين، عاش نضال العمال، عاش نضال الكادحين، فلتسقط الإمبريالية وحلفاؤها الرأسماليون والرجعيون"..

كان الرفيق يخطب في رفقائه، وقد ألهبته كلمات يوسف أفندي عن وضع الفلاحين المزري في قريته، حتى نسي نفسه، وعلا صوته، فظن الفلاحون في الخارج أن هناك مشكلة ما في بيت يوسف أفندي، فأتوا مسرعين يطرقون باب داره، فسكت الرفيق زينهم عن كلماته الحماسية، ودخل الشيخ صديق وبعض أهالي القرية، على وجوههم القلق. لقد ظنوا أن هؤلاء الغرباء قد تعدوا على يوسف أفندي في داره، فطمأنهم يوسف.

تربى يوسف أفندي في البندر، بعدما توفي والده في السخرة، وماتت أمه بداء الكوليرا، الذي ضرب القرية، فاصطحبه خاله معه إلى البندر، وهناك دخل المدرسة، وانضم إلى إحدى الجماعات الشيوعية. وبعد أن نال شهادة المعلمين، عاد إلى قريته، حيث نضاله مع الفلاحين الكادحين، في سبيل توعيتهم. تبادل أهل القرية ورفقاء يوسف الأحاديث الودية، ودعاهم الشيخ صديق لقضاء تلك الليلة معهم، وخصوصا أنها الليلة الكبيرة بمولد سيدى عوضين المخاوى..

كان المولد الأول لسيدي عوضين، لكنه امتلأ بالدراويش، الذين أتوا من كل بقاع مصر ليحيوا الليلة.. قرروا أن المولد كل عام بعد حصاد القمح.. طهت النساء الطعام في البيوت، وأحضرنه بجوار مقام سيدي عوضين، والتف الرجال في حلقات الذكر، يميلون يمينا ويسارا بحركات هستيرية. يصاب بعضهم بالدوار، فيستريح لحظات ثم يعاود.. هؤلاء الذين يشعرون بالاضطهاد والظلم والاستعباد من الباشا وخليفته مراد بيه، يأملون في قوى أخرى قد تنتشلهم من الظلم والاستعباد وتنصفهم؛ فربما يصيب الفلاحين الظلم والاضطهاد الإقطاعي وعنف الطبيعة بسبب آثام ومعاصٍ ارتكبوها ويجب التوبة عنها، كما يخطب فيهم الشيخ صديق دائما. لذلك، يطلبون المعونة من سيدي عوضين، ويكثرون من النذور.

* * *

هناك، عند ساقية مدبولي، حيث مجلس هادىء للمثقفين، تحت ظل شجرة الجميز، بعد صلاة العصر، حيث نسمات الصيف البخيلة تهب على القرية، وتهز أشجار الصفصاف المنتشرة على جانبي الترعة، وتصدر أصواتًا متناغمة، كأنها أوركسترا غنائية، تمتزج معها أصوات البهائم في الحقول، تعلن فرحتها بتلك النسمات، التي تداعب شعر يوسف أفندي الطويل.

لا يحبذ الفلاحون الجلوس مع الجالسين تحت ظل شجرةمدبولي، والتي يطلقون عليها شجرة العيال الأفندية، فهم يقولون كلاما غريبا يصعب على الكثيرين فهمه، وكأن هؤلاء الأفندية يتحدثون بلغة العجم. وهناك، استطردوا كعادتهم في الحديث، وقد بدا محمد أفندي حزينا على ذكر تقسيم فلسطين:

- منهم لله اللي كانوا السبب

رد أحدهم:

- مين هم يا محمد أفندي؟

- الملك والإنجليز

رد يوسف أفندي، وقد بدا ممتعضا من كلام محمد أفندي:

- الملك والانجليز بقوا وحشين الوقتي؟!

رد محمد أفندي مستغربا:

- تقصد ايه؟

- مش انتم برضه بتقولوا لا يجب الخروج عن الملك؟ مش انتم برضه وقفتم مع المحتل أيام مظاهرات الطلبة ضد الانجليز اللي استشهد فيها الشباب؟ وقفتم مع صدقي السفاح

رد محمد أفندي، وقد احمر وجهه من الغضب:

- الكلام ده مش حقيقي انت بتكدب

رد يوسف أفندي محتدا، وهو يلوح بيديه ناحية محمد:

- أنا اللي بكدب يا محمد أفندي.. مين اللي قال إذا كان الشعب مع الوفد فالله مع الملك؟.. مين قال واكتب في الكتاب اسماعيلا؟.. مين رد عليه؟

رد محمد أفندي، وهو يتطلع في وجوه الحاضرين:

- الإخوان ضحوا بحياتهم في فلسطين، وحضرتك كنت بتحضر اجتماعات للصهاينه في مصر.. مين رواد الشيوعية في مصر؟ مش اليهود برضه؟ انتم عملاء للصهيونية العالمية زرعتكم في مصر..

نهض يوسف أفندي من مجلسه غاضبا، وأمسك بقميص محمد أفندي، دفعه محمد أفندى بعيدا، وبعدما فصل الشباب بين الاثنين، رحل كل منهما إلى داره حزينا..

* * *

أمر مراد بيه بمنح الفلاحين يوم راحة من العمل بالسخرة في أرضه، بعدما أنعم عليه الملك فاروق بلقب الباشوية، الذي كلفه خمسة آلاف جنيه، في كازينو النيل مع جلالة الملك في لعب القمار (هكذا سمعت القرية).. فرح الفلاحون للراحة، وليس بلقب الباشا الذي ناله مراد بيه. فهو مثل أبيه، كما ينتدرون: (وما أسخم من ستي إلا سيدي).. لكنهم على الأقل سيرتاحون من وش مغاوري الجديد (اللي يقطع الخميرة م الدار).

وفي صلاة الجمعة، اعتلى الشيخ صديق المنبر، وبمعيته ورقة، حمد الله وأثنى على نبيه، ثم قال "بسم الله الرحمن الرحيم وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات.. وبهذه المناسبة المباركة، يوم عادت الباشوية إلى أهلها، والتي عاشت معهم منذ وُلِدَت وحتى يومنا المبارك هذا، نتقدم بالتهنئة إلى مراد باشا، خير خلف لخير سلف. لقد أنعم علينا الله بهذه العائلة المباركة من نسل الصحابة، لتنشر في قريتنا الحب والكرامة.. مراد باشا، ذلك الشبل من ذاك الأسد... فإن كان للكرم والجود مكان، فعنوانه قصر الباشا. وكما قال الشاعر

تـــراه إذا مـــا جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
فلو لم يكن في كفه غير روحه لجـــاد بهـــا فليتق الله سائله

هو البحر من أي النواحي أتيته   فلجته المعروف والبحر ساحله

تابع المصلون في المسجد خطبة الشيخ فاغري أفواههم.. لكن لن يجرؤ أحد من هؤلاء الفلاحين أن يطلب منه إنهاء الخطبة لكي ينصرفوا إلى أشغالهم، مثلما يحدث عادة، فموضوع الخطبة مراد باشا. همس يوسف أفندي إلى محمد أفندي ساخرا، في محاولة منه لإنهاء خلافهما:

- شوف ابو نسب بيقول ايه يا سي محمد أفندي.. مراد بقى من نسل الصحابة!

أوما محمد أفندي برأسه مبتسما، وتابع الشيخ خطبته..

- كما نشكر مليكنا المعظم ملك مصر والسودان، أمير المؤمنين فاروق الأول، وكما قال الشاعر..

لم يكمل الشيخ، وأخذ يبحث في الورقة، والمصلون يتهامسون ويضحكون، وقد احمر وجهه.. لكنه تابع كلامه، بعدما وجد أبيات الشعر:

- هات من وحي السماء الكلما/ واجعل الأيام والدنيا فما/ وابعث الشعر جناحَي طائر/ كلما شارف أفقاً دوما/ أيّ يوم سعدت مصريّة/ كان في طيّ الأماني حلما/ مولد الفاروق يوم بلغت/ راية الإسلام فيه القمما".

ثم ختم خطبته بدعاء:

- اللهم وفق الباشا مراد.. اللهم زد أرضه وفلوسه.. اللهم وفق الملك المعظم فاروق ملك مصر والسودان.. اللهم اهلك معارضيه واجعل كيدهم في نحورهم

ردد المصلون من خلفه:

- آمين

وبعدما انتهى المصلون من صلاتهم، اقترب محمد أفندي من الشيخ صديق، وقال له ممتعضا:

- يا سلام على الكرم والسخاء بتاع مراد والعيلة!!

لم يرد الشيخ، واكتفى بنظرة باسمة لمحمد، الذي واصل حديثه:

- يا سلام مراد بيه ايده فرطة!.. وبعدين هو يعني الملك فاروق عارف يلم الولية امه!

ضحك الجميع، وحاول الشيخ صديق أن يصطنع الغضب:

- اختشي عيب يا محمد أفندي يا جوز بنتي.. خلي عندك خشى

رد يوسف أفندي:

- عيب ليه يا مولانا؟ أمه دايرة على حل شعرها في بلاد برة

ثم قال محمد أفندي، وقد احمر وجهه من الغضب، معضدا رأي يوسف أفندي:

- لا وأخته، الملعونة في كل كتاب، بتتجوز راجل نصراني على غير الملة

رد الشيخ صديق، وهو يضرب بكلتا يديه على رأسه:

- يا وقعه سوخه! هي حصلت كمان تتجوز نصراني. إلهي تتفضح فضيحة الحرامي في مولد يا فاروق يابن نازلي.

حك عبد الرحيم قفاه وقال:

- ايوه والله دا بتاع نسوان.. سمعتوا إنه خطف واحدة من جوزها ونام معاها غصب عنها.. وبتاع كباريهات كمان وبيلعب قمار وبيسكر مع الراقصات!!

عبث عويضة أبو شلتوت بأنامله في لحيته وقال:

- ايوه والله دا حتى مراته الجديدة دي كانت رايحة مع خطيبها عند الجواهرجي، ولما شافها راسه وألف سيف ليتجوزها.. وحصل، بعد ما عدم خطيبها العافية.. حاكم هو جبار.. أيوه والله.. الحكما قالوا له.. انت قوتك أربعين جبار..

ثم تنهد وابتسم قائلا، وهو يلوح بيديه:

- ده بياكل خمسين بيضة في الطقة يا بلد!

رد عليوة، والبؤس على وجهه العابس:

- واحنا هنا بنغمس العيش الدرة بالمية

فقال يوسف أفندي:

- انتم تعرفوا إن الباشوية والبهوية مش موجودة غير حدانا احنا بس؟

رد عويضة أبو شلتوت مبتسما:

- والله ما انت عارف حاجة.. فيه باشا في بلد أمي نواحي طنطا برضه زي حدانا

رد يوسف أفندي مبتسما:

- أني اقصد بر مصر مش نواحينا بس يا ابوالعريف..

امتعض عويضة، وبدا عليه الخجل، واستلم الشيخ صديق الحديث:

- وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات يا أفندي.. هو انتم كمان هتفتوا في كل حاجة.. أفندية آخر زمن..

عادت البسمة إلى وجه عويضة بعد رد الشيخ على يوسف، لكنها لم تكتمل حين رد محمد أفندي:

- المسلمون سواسية أمام الله كأسنان المشط.. وبعدين يا ابونسب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالدين والتقوى

ضرب عبد الرحيم كفا بكف، وقال وهو يهز رأسه:

- والله أفنديه آخر زمن!! يعني هتجيب مراد باشا للناس اللي زي حالاتنا اللي بيقضوا عشاهم نوم.. هو انتم عايزين تربطوا حميركم جنب حمار ابن العمدة

رد يوسف أفندي مبتسما:

- يا جدعان لولاكم إنتم مكنش هيبقى فيه لا باشا ولا حتى غفير.. أنتم الأصل.. أنتم الأهم.. أنتم الكادحون المنتجون.. هم يربحون ويكنزون الذهب والفضة، ويلعبون الميسر ويشربون الخمر باستعبادكم أنتم، فإذا انتفضتم، ووقفتم وقفة رجل واحد، وقتها فقط سوف تحدث المساواة وتلغى الألقاب التي يستعبدون بها البشر

ثم اقترب يوسف من عبد الرحيم وقال مبتسما:

- وهتربط حمارتك يا سي عبد الرحيم مش جنب حمارة ابن العمدة.. دا جنب حمارة ابن الباشا نفسه..

لم يصدق الفلاحون كلام الأفندية، فالعلم (فالراس مش في الكراس) وخبراتهم الطويلة منذ أتوا إلى الحياة، وخبرات أجدادهم أيضا تكذب مايدَّعون. هم راضون دائما، حامدون الله وشاكرون، فالقناعة كنز لا يفنى، والدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. كلمات محفوظة في وجدان هؤلاء الفلاحين، ليس استسلاما للباشا، ولكن استسلام لخطب الشيخ صديق..

* * *

لدى فردوس ثلاث بنات، حالهن واقف. يبدو أن إحدى نساء القرية عملت لهن أعمالا.. تحلم فردوس أن تتزوج إحدى بناتها من يوسف أفندي، بالرغم من أشكالهن الدميمة. لم يأت عريس، أي عريس، حتى لو كان ممن يمشون خلف البهائم، وليس أفندي مثل يوسف، الذي تحلم به فتيات القرية. اصطحبت ابنتها الكبرى سنية إلى مقام سيدي عوضين، ودارت حول المقام سبع مرات، وهي تتمتم بكلمات، عسى أن يساعد الشيخ عوضين ابنتها في الزواج من يوسف أفندي. تعرف كم هو كريم في العطاء، يستطيع أن يحقق لابنتها ذات الخامسة والعشرين عاما، والتي فاتها قطار الزواج، أمنيتها في يوسف أفندي.

يجلس متولي أبو عوضين بجوار المقام، يعمل خادما له، وقد تغيرت هيئته وأطلق لحيته وطال شعره، وارتدى كما يرتدي الدراويش. يقال إنه ورث كرامات أبيه، برغم أنه لم يركعها قط؛ مثل أبيه، ولكنها حظوظ، كما كان الشيخ صديق يقول. اقترب منها متولي، وسألها عما بها، فحكت له، فطلب منها أن تعاود الدوران حول مقام سيدي عوضين سبع مرات أخرى هي وابنتها، ففعلت، ثم جلست (سنية البايرة) كما تلقبها النسوة في الغيطان، بجوار الشيخ متولي، ووضع يده على رأسها، وأخذ يتمتم بصوت مخيف، بكلمات غير مفهومة، تثير الرعب. ثم طلب من سيدي عوضين، متوجها إليه، أن يمنح تلك البنت، والتي بارت، البركة.. وتتزوج. قاطعته فردوس بصوت بملئه الأمل والطموح:

- ماتنساش يا شيخ متولي.. قول لسيدنا البت عايزة تتجوز يوسف أفندي

رد الشيخ متولي محتدا عليها:

- هو مولانا عاجز انه يجوزها مراد باشا نفسه؟؟!!.. اسكتي يا ولية يا كركوبة انتِ

ردت فردوس وهي تبصق في صدرها:

- السماح يا أهل السماح.. قطع لسان اللي يقول كده.. اني عارفة سيدنا وبركاته!

رد متولي، وقد عقد حاجبيه:

- يبقى تسكتي خالص..

انصاعت فردوس لأوامر الشيخ متولي، وعاود الشيخ كلامه غير

المفهوم.. وبعد أن انتهى، طلب منها جديا أحمر اللون، جبهته بيضاء، وتحضر (أثر) يوسف أفندي. ثم أمرها بالانصراف، حتى ينفرد بالشيخ عوضين، وفي الغد لابد أن تحضر المطلوب.

عادت فردوس وسنية إلى الدار؛ الفرحة تعتلي وجهيهما. الشيخ متولي ورث فعلا بركات أبيه عوضين، سوف يقضي الليلة في البحث مع أبيه عن حل لسنية الحسناء - كما تراها أمها - والتي لابد أن إحدى نساء القرية عملت لها عملا.

وفي اليوم التالي، فشلت فردوس في إيجاد الجدي المطلوب، ونجحت في إحضار أثر يوسف أفندي. حملق فيها الشيخ متولي وسألها غاضبا:

- ماجبتيش ليه الجدي يا ولية يا كركوبة انتِ؟

ردت فردوس وبجوارها سنية، وكأنهما طفلتان صغيرتان تخشيان غضب أبيهما حاد الطباع..

- وسيدي عوضين دورت في كل حتة يا سيدنا الشيخ ومالقتش..

عاقب متولي فردوس بأن تدفع ضعف ثمن الجدي، فدفعت.. فانفرجت أساريره وقد نال ما أراد.. بل ما أراده سيدي عوضين، فما هو إلا خادم لسيدي عوضين، لا يبتغي مالا ولا دنيا فانية. اختاره سيدي عوضين بجواره، حبا فيه،

ولعلمه بصلاحه ولقربه من أولياء الله الصالحين، كما كان يردد لمريدي أبيه..

- في واحدة جارتك كانت عاملة لبنتك عمل

- مين اللي تتشك في قلبها وقلب اللي جابوها يا سيدنا الشيخ؟

رد الشيخ غاضبا:

- القرين ماقالش وسيدي موصي مااقولشي

- يا نصيبتي السودة.. جن يا سيدنا؟

- ايوه.. والجن اللي عليها عاشقها وراسه وألف سيف مايسيبهاش.. بس اني اخيرا فهمته انه لو بيعشقها بجد يسيبها لحال سبيلها وماكنش راضي الا لما ياخد حلاوته

ردت فردوس وعليها الذهول:

- وماله يا سيدنا ياخد حلاوته وانت كمان تاخد حلاوتك

حملق الشيخ فيها وقال غاضبا:

- انى ماباخدشي حلاوة يا ولية يا خربانة انتِ

- لا مؤاخذاة يا سيدنا

- الجن اللي عليها طلع يهودي ابن كلب طماع. عايز دكرين بط معتقين ووزتين من اللي بيعوموا في الترعة القبلية وشيكارة قمح.. واوعي تكدبي وتقولي مافيش.. الجن عايش معانا وعارف كل حاجة وبالذات الجن اليهودي.

حركت فردوس فمها يمينا ويسارا وقالت:

- اني خدامة الأسياد

- يا حظك الاسود يابنتى.. جن يهودى!!

* * *

خرج صراخ النساء من دار العمدة شاهين، فترك الفلاحون الحقول والفئوس، وجروا مسرعين ناحية دار العمدة. العمدة شاهين مات!.. ضرب عبدالنبي الخفير كفا بكف، وبدا عليه الذهول..

- أني مش مصدق نفسي يا عالم

رد الشيخ صديق وهو يجهش بالبكاء:

- الله يرحمه كان راجل طيب.. عمره ما ضر حد في البلد

عاود عبدالنبي الحديث:

- أني كنت سهران معاه ليلة أول ماكانش بيه أيتها حاجة!

رد عبد الرحيم الحلاق:

- وأني لسه حالقله دقنه امبارح.. كان قاعد يضحك معايا

أضاف تهامي:

- لسه واخد مني سجاير مكنة، وكان عليه قرشين صاغ دفعهم.. كان قلبه حاسس

قال عويضة:

- المرة مراته جات تصحيه لقيته ميت

رد أبو شمروخ:

- ألف رحمة نور عليه كان طول عمره عايق ورايق..

حضر العمدة شاهين مسرعا وقال لاهثا:

- شاهين ماله يا عالم؟

لم يجبه أحد، واكتفوا بالنظر إليه صامتين والدموع في أعينهم، تحاول جفونهم حصارها - عيب عالرجالة - فعاود حديثه باكيا منهارا:

- حد يرد عليّ يا بلد حافية يا ولاد الكلب

رد محمد أفندي:

- كلنا هنموت يا عمدة.. ماتعملشي كده في نفسك.. إنا لله وإنا ليه راجعون

تمتم هواري:

- ونعم بالله يا محمد أفندي

ساد الحزن في القرية، وخاصة يوسف أفندي. تقدم يوسف أفندي إلى العمدة شاهين قبل مماته بيومين لطلب يد ابنته سندس، لكن القدر لم يمهله، فمات العمدة. أقامت النساء الدوائر يلبسن الأسود، وتتوسطهن فردوس تنعي الفقيد، الذي كان نسمة عبرت سريعا على القرية، والموت خطفه مبكرا.. الموت لا يختار إلا الصالحين من القرية ويترك لها الأشرار.. والفقيد كان ترباس باب الدار.

العمدة شاهين لم يكن حاد الطباع، ولم يكن قاسيا، لذلك حزن أهل القرية عليه دون تمثيل، كما حدث مع الباشا ومدبولي الكبير، الذي قال بعضهم عنهما "يا داهية خدي الداهية".

لما انتهت مراسم العزاء، اقترب مغاوري الجديد من هواري، وقال له هامسا:

- خلاص يا عمدة رجعتلك العمودية تاني

رد العمدة هواري باشمئزاز:

- عمودية ايه وكلام فارغ ايه

احمر وجه مغاوري الجديد، ولكنه عاد مبتسما يخفي خجله، وقال مازحا:

- النسوان دايرين يقولوا في البلد إن البت الجديد مراته هي اللي موتته

رد فرج مازحا، محاولا إخراج العمدة من حزنه:

- حاكم النسوان اللي بتجيب آجل البني أدم بدري

* * *

عادت فردوس محملة بطلبات الجن اليهودي، الذي يبدو أنه من الجماعات الصهيونية، لن يترك بنتها الحسناء، وقد لا يقبل قرار التقسيم ويرضى أن تتزوج ويشاركه رجل في حبها.. فلما رآها الشيخ، ابتسم ابتسامة رضا، وقال وهو يتفقد الهدايا والنذور:

- انتِ تحمدي ربنا

ردت فردوس مرتبكة:

- خير يا سيدنا؟

رد الشيخ متولى

- الجن اليهودى ماطلعشي إلا لما طلع روحنا

- يعني ايه ماطلعشي؟

- الجن خلاص وافق يسيب بنتك بس عايز منك طلب

ردت فردوس والغضب يبدو على وجهها من طلبات الجن التي أنهكتها..

- اني خدامة الأسياد

كانت قد سرقت ذكري البط والوزتين من الترعة، وحتى شيكارة القمح سرقتها من دار سيد أبو شمروخ

قال الشيخ متولى:

- الجن طلب انك تدبحي دكر البط وتاخدي دمه وترشيه قدام عتبة دارك ودار يوسف وتاخدي الحجاب ديه تحطيه تحت مخدة البت وتخليها تستحمى النهارده في الترعة بعد المغربية

عادت فردوس إلى دارها سعيدة، فإرهاقها ليلة البارحة في سرقة هدايا الجن لن يذهب سدى. وفي طريق عودتها، سمعت سيد أبو شمروخ يصرخ في وجه زوجته:

- فين شيكارة الغلة يا مرة يا فقر داتك الهم انتِ واللي جابك دي كان يوم أسود لما شوفتك..

ثم امتطى حماره، وذهب إلى الترعة القبلية. لم ينس سيد أبو شمروخ نصيب حماره من الشتائم، فانهال عليه سبا..

- حاااا امشي.. العمى سابك على نوادرك

وفردوس من بعيد تتابع صامتة، ثم دخلت دارها لتكمل ما بدأته. لكن.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. يوسف أفندي شبك سندس بنت العمدة شاهين.. أذاعت مسعدة، التي كانت تنقي أرض أرز الباشا وعرفت بالخبر من الأنفار، فانهارت سنية، وصرخت فردوس.. لقد خدعهما الجن الصهيونى، ولن تحصلا على يوسف.

أخذها غضبها إلى مقام سيدي عوضين، تشكو له خديعة ذلك الجن اللعين. هناك كانت المفاجأة، سيد أبو شمروخ يجلس بجوار الشيخ، وبرفقته ذكر البط والأوز وشيكارة القمح المسروقة منه. حاولت فردوس مرتبكة أن

تفر عائدة، لكن الشيخ متولي نادى عليها. شعرت بثقل خطواتها وهي تقترب منها، وتسمع سيد أبو شمروخ يشكر الشيخ ووالده سيدي عوضين على مجهودهما معه، لولاهما كان بيته خرب. حمل أبو شمروخ شيكارة القمح، وترك البط والأوز للشيخ متولي. ولما انصرف الرجل، سأل متولي فردوس، دون أن يبدو على وجهه الغضب:

- جيتِ ليه يا فردوس؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت مرتجفة:

- يوسف أفندي يا سيدنا الشيخ

- ماله؟

- شبك بنت العمدة

رد الشيخ متولي، ممسكا مسبحته بيده اليمنى، ومدخنا سيجارته باليسرى، مصطنعا الغضب:

- شفتِ المال الحرام ياولية يا قرشانة؟ سيدي عوضين غضبان عليك.. كله من عمايلك السودة.. عايزة الأسياد ياكلوا من الحرام!!

ضربت فردوس بيديها على صدرها المكتظ بقوة، وقالت مستعطفة متولي:

- يا خرابي يا مرك يا فردوس.. اعمل معروف يا سيدنا إلا سيدي عوضين

ربت الشيخ متولي على كتفيها محاولا تهدئتها، وقال بابتسامة هادئة:

- أني كلمته ومش زعلان منك خلاص.. مش لازم يوسف أفندي.. انتِ هتنقي!.. دا يعني من جمال البت قوي.. دي عاملة زي غراب البين.. ولا تكوني مفكرة أن بنتك الملكة فريدة.

امتعضت فردوس من وصف متولي السخيف لابنتها، لكنها لا تقوى على مواجهة الشيخ متولي وسيدي عوضين، فعادت إلى دارها حاملة إلى ابنتها التعيسة خيبة الأمل، وإن كان الشيخ قد طمأنها أن عريس ابنتها قادم قريبا، فهو رأى في المنام فارسًا طويلا ذا عينين زرقاوتين ووجه أبيض وجسد طويل ممشوق مفتول العضلات، يرتدي جلبابا أبيض من الصوف، يمتطي جوادًا أبيض، يسأله في المنام أنه يريد الزواج، فأوصاه الشيخ بسنية. حكت فردوس لابنتها منام الشيخ متولي، وانتظرتا ذلك الفارس لعله يأتي يوما..

عاد أبو شمروخ إلى داره سعيدا، يدعو لسيدي عوضين وابنه. فتحت له زوجته الباب والدموع في عينيها، فلما رأت شيكارة القمح انفرجت أساريرها، لكنها سرعان ما اصطنعت الغضب، وتركته ودخلت غرفة النوم. تبعها أبو شمروخ مبتسما، نادى عليها فلم تلب نداءه، لكزها.. ضحكت وطلبت منه بدلال الابتعاد عنها، فأطلق الضحكات، فجرت ناحية حظيرة المواشى مصطنعة الغضب، وأبو شمروخ يتبعها مغازلا:

- حقك علي يا بت.. حقك علي يا جاموسة.. بحبك يا قشطة

- اوعى كدة يا راجل انت بلاش مسخرة احنا فاضيين للكلام الماسخ بتاع البندر ديه

ربما كان للطبيعة القاسية أثرها على الفلاحين، فهم في صراع دائم مع الحياة، صراع من أجل الوجود، حيث لا وقت للحب ولإطلاق المشاعر.. فلو أراد الرجل أن يغازل زوجته ويعبر لها عن حبه، فعباراته أقرب إلى السباب منها للغزل.. قد يناديها جاموسة أو بقرة أو وزة أو بطة.. تجد أحدهم يمتطي حماره يغني أغانٍ حزينة، تخرج ما بداخله من شعور بالظلم، ويبوح له بأسراره، وكأنه صديق له، قد يضربه بدون سبب، وقد يسبه.. "احنا في زمن ما يعلم بيه إلا ربنا" كانت العبارة المنتشرة بين أهل القرية، وإن كانت تلك الجملة تغضب

محمد أفندي كثيرا، فهو يرى أنه لا يجوز سب الزمن من الناحية الدينية، وما الفلاحون فيه ليس بسبب الزمن، ولكن بسببهم هم أنفسهم، لاستسلامهم للظلم والذل، وكأنهم مدمنون له. يوافقه يوسف أفندي الرأي في أن الناس لا الزمن هم المسئولون عما يحدث لهم، ولتراخيهم، يلقون التهم على الزمن، فهم لايقوون على مواجهة الشعور بالضآلة بداخلهم. هؤلاء القوم ورثوا موروثا كبيرا من القهر والاستعباد، منذ فلاحي الفراعنة إلى فلاحي فاروق؛ الظلم واحد والزمن مختلف.

يمتطي عويضة أبو شلتوت حماره الأسود، وخلفه الراديو مربوط فوق بردعة الحمار، وخلفه يمشي الأطفال الصغار فرحين ومهللين ومصفقين للأغاني، التي يبثها الراديو كبير الحجم. لا يفارق الراديو عويضة، حتى وهو في الحقل يزرع أو يحصد أو يعلق الساقية ليروي الأرض.. يجتمع عند داره أهل القرية بعد صلاة العشاء، ليسمعوا وينصتوا للأخبار والأغاني. عويضة أبو شلتوت تعلم في كتاب الشيخ صديق مع يوسف أفندي ومحمد أفندي، لكنه لم يذهب مثلهما إلى المدرسة، وله بعض البركات التي لم تمنح لغيره. أم عويضة نبوية وأبوه أولاد عم وخالة، لذلك تثق فيه القرية كثيرا، بمجرد أن يدلك بيده يد أحدهم المصابة، فإنها تشفى؛ وإذا أصابت عين أحدهم مكروه، فهو يعالجه بأن يلحس بلسانه عين المريض؛ أو لو تمردت جاموسةأحدهم أو بقرته على الحلب، فيستطيع بمجرد أن يضع يده على ضرعها أن يلين موقفها، فتنصاع لصاحبها.

يوم جلب الراديو من البندر من الأيام المشهودة في القرية، التي لم يمتلك أحد من أبنائها، حتى العمد، الراديو من قبل. كان يوم خميس أول الشهر، اجتمعوا أمام داره المطلة على الأرض الزراعية. جلسوا على الجسر.. رجال القرية ونساؤها وأطفالها وشيوخها أمام دار عويضة أبو شلتوت، الذي كان يبرم شاربه ويعلو وجهه الفخر. أهل البلد جميعا أمام بيته، ينتظرون السيدة

أم كلثوم. الضوضاء تملأ المكان، ونباح الكلاب يرد على عويل الذئاب، هناك عند شجرة الصفصاف المسكونة. كم يحتاج أهل القرية لأغاني أم كلثوم في هذا الجو الموحش، لتضيء في قلوبهم أملا في ليل شديد السواد. لم يعد أمام حفل السيدة أم كلثوم إلا دقائق معدودات، والأطفال لا يكفون عن الصراخ. وضع عويضة يده في خصره وقال مهددا:

- يا بلد يا غجر اللي مش هيسكت ابنه ياخده ويغور من هنا

لم ينصع الأطفال لأوامر صاحب الراديو، فقال عويضة وهو متجه ناحية الراديو:

- والله يا بلد يا غجر انتم بهايم ماينفعش تتنجروا. ايوه والله واني مش هشغل المحروق ده

نهض الشيخ صديق من مجلسه على الجسر، وأسرع ناحية عويضة وقال:

- صبرك يا عويضة العيال فرحانابك

رق عويضة لطلب الشيخ وقال:

- علشان خاطرك بس يا مولانا..

لكن الأطفال والنساء لم يكفوا عن الحديث، فغدًا زفاف يوسف أفندي وسندس..

بدأت السيدة أم كلثوم تشدو بالغناء.. جلس الجميع على الجسر القرفصاء، يضعون أيديهم تحت ذقونهم، لاينظرون إلى بعضهم، يتطلعون ناحية الراديو في (طاقة) عويضة. ينصتون خاشعين للسيدة، تغني رق الحبيب.. يطلق صوت أم كلثوم العنان لخيال هؤلاء الفلاحين - الذين لا يعرفون عن كلمة حب غير أنها تلك الكلمة سيئة السمعة، التي لا يجب أن تطلقها الألسنة، خوفا على الأعراض، فلو علموا بوجود علاقة آثمة بين رجل وامراة، يقولون (بيحبوا

بعض..) ينشدون الأمل في غد أفضل، خياليا ليس واقعيا، فهم جميعا خاشعون لصوتها، أرواحهم تعلو في سماء الحب الجميلة، لايودون العودة ثانية إلى أرض الأحزان. كانت مثل مخدر يتناولونه ساعة، هي مدة الأغنية، بعدها يسقطون في وحل الواقع القاسي. ظلوا هكذا حتى انتهت أم كلثوم من أغنيتها، فنهض سيد أبو شمروخ، ووقف وسط الجلوس، وقال وهو يقذف بطاقيته الصوف البني إلى الأرض:

- ابيع الجاموستين اللي حيلتي والبقرتين واتجوز أم كلثون!

سيطر الضحك على الجميع، وتعالت الضحكات والقهقهات، وقال الشيخ صديق مازحا:

- وأم عماشة مراتك ياواد يا سيد هتعمل فيها ايه؟!

- أم عماشة وعماشة والعيال كلها أبيعها بس الست توافق

ردت أم عماشة زوجة أبو شمروخ ضاحكة:

- والله يا سيدنا سيد جوزي راجل ناقص ويعملها

رد عبد الرحيم الحلاق ساخرا:

- والله عندك حق يا أبو شمروخ.. بس ده احنا لوبعنا نسوان البلد مايجيبوش تمن الصرمة اللي بتلبسها الست أم كلثوم!!

* * *

زفاف يوسف أفندي اليوم، والقرية كعادتها في الأفراح والمآتم كالبنيان المرصوص. فرح سندس بنت العمدة شاهين لن يكون فرحا عاديا، سوف تدعى له الغوزاي وفرقة غنائية من البندر. وصلت الغوازي بالفعل، بلباسهن الإفرنجي، ومعهن الآلاتية والمغني الذي سمعه الكثير من رجال القرية في البندر. جاءوا جميعا بالحنطور، والأطفال الحفاة بجلاليبهم البالية المتسخة

برائحة روث البهائم يزكمون أنوف الغوازي، ويجرون خلف الحنطور، يقذفونهم بالطوب، ويتعلق بعضهم خلسة خلف الحنطور دون أن يراه العربجي.. يقلدهم الآخرون، ويفشل البعض، ويشبك جلباب أحدهم في الحديد، فيتعرى أمام الآخرين، يسخرون منه. يتوقف الحنطور، وينزل العربجي يهش هؤلاء المشاغبين بعيدا. تلتقط يده بعض الأطفال الأغبياء، الذين لم يحسنوا القفز من الحنطور، ويهش عليهم بكرباجه السوداني، فيبكون متوسلين أن يتركهم، ثم يعاودون الكرة. يمسك العربجي كرباجه ويتوعدهم:

- امشي يابن الكلب انت وهو وانتو عيال مش متربية

توجه إليه أبو شمروخ مسرعا، كان يروي أرض الذرة، وبيده شرشرته. ارتعد العربجي، وظن أنه أتى ليضربه، لكنه لما اقترب منه، سمعه يسب الأطفال ويطلب منهم الابتعاد عن الأفندية الضيوف، دون أن يرى هؤلاء الضيوف..

- خلي عندك خشى يابن الكلب انت وهو..

لم يكمل أبو شمروخ سبابه للأطفال الواقفين وبأيديهم الطوب متحفزين، بعدما رأى الغوازي. جحظت عيناه وأخذت تجول في الوجوه والأجساد، متجاهلة المطرب الشهير، الذي بدا ممتعضا من تجاهل أبو شمروخ، فهو معروف في العِب كله..

- العوافي يا افندية..

أومأن برؤوسهن، والدهشة وبعض الخوف يعلوان وجوههن. حفلات الأرياف مهمة ثقيلة يخشين منها كثيرا، ولولا إغراء المال، والبطالة في المنصورة بسبب المظاهرات، ما اضطررن للمجيء إلى عزبة الباشا المقطوعة عن الدنيا. سأله العربجي

- ممكن تدلنا على بيت الفرح؟

أشار أبو شمروخ ناحية بيوت القرية، بيده التي تمسك الشرشرة، حتى كادت تجرح وجه العربجي

- بيت الفرح جنب بيت الواد عبد الرحيم حلاق الصحة

ضرب العربجي كفا بكف وقال مستغربا:

- هو احنا نعرف بيت عبد الرحيم منين!

وردت إحدى الراقصات وهى تمضغ اللبان:

- ربنا يستر دا شكله يوم ما يعلم بيه الا ربنا!!

تطوع طفل من المتمردين، سمع كلام العربجي، بعد انصراف أبو شمروخ إلى حقله، واصطحب الضيوف إلى بيت الفرح. لما اقتربوا من بيت الفرح، تعالت الزغاريد من النساء، وامتزجت بأصوات الشباب، ينبهون بعضهم البعض (الغوازي وصلوا يا أهل البلد). الأطفال يصفقون ويجرون خلف الحنطور، ويشيرون بأيديهم: (الغوازي اهي الغوزاي اهي)، فانتظرت الغوازي حتى ينصرف الأطفال بعيدا

نجح الشيخ صديق في هش الأطفال، فهم جميعا يخافون منه لقسوته عليهم في الكتاب؛ ثم نهر الشباب الملتف حول الحنطور ينتظرون الغوازي. تكتظ دار يوسف أفندي بأهل القرية، ولا مكان للغوازي، فاقترح عبد الرحيم الحلاق أن يستضيفهن الشيخ صديق في داره.. مط الشيخ صديق شفتيه امتعاضا، وقال:

- على آخر الزمن يدخل داري غوازي!.. انت اتخبلت في مخك يا واد يا حلاق الغبرة انت.. عايز دار شيخ الجامع تتنجس!!

رد عبد الرحيم ساخرا:

- تقولشي يعنى دار الشيخ المراغي يا خي

استضاف مدبولي الصغير الغوازي في داره مرحبا بهن، لكنه لم يسلم من لسان زوجته كويسة، التى صرخت في وجهه وهي تخبط بيديها على صدرها تارة وعلى رأسها تارة أخرى..

- جايبلي غوازي يا مدبولي في داري!

رد مدبولي الصغير محاولا أن يكتم فاها:

- اكتمي يابت وطي صوتك الضيوف يسمعونا

- أوطي صوتي! داني هصوت وهلم عليك الناس.. انت جايب الغوزاي ينجسوا داري علشان تتخرب

ضحك مدبولي بصوت منخفض، حتى لا تسمعه الغوازي وقال مازحا:

- أنتِ غيرانة منهم أني عارف!

زاد غضب كويسة، وقالت وهي تضع يدها على خصرها وتهز رأسها:

- أني اللي غيرانة؟!! من الغربان دول!.. دا أني لو لبست زيهم كنت ابقى ست ستهم

احمر وجهه مدبولي الصغير واستشاط غاضبا:

- اقطمي يا بت.. على آخر الزمن عايزة تبقي زي الغوازي؟

قطع صوت الغوازي صوت مدبولي الصغير، وإحداهن تنادي بدلال:

- سي مدبولي

تغيرت هيئة مدبولي، وعلت الابتسامة وجهه، وعدل طاقيته وتوجه ناحية المندرة مسرعا يبرم شاربه، وسط استغراب لا يخلو من غيرة شديدة من كويسة، التي أخذت تضرب كفا بكف

ـ امرك يا ست الكل

ـ عاوزين مية نغسل بها وشنا

ـ الوقتي أهو المية تكون عندكم..

ثم نادى بصوت عالٍ على كويسة، التي تندب حظها بالخارج

ـ هاتي ميه للستات يا بت..

ثم حدث نفسه وظهره إلى الغوازي والمطرب:

ـ داني طور متجوز جاموسة.. هي دي النسوان ولا بلاش !!

جن الليل.. البلد كلها في انتظار الغوازي والمطرب الشهير، بأغانيه الفاحشة التي يتغنى بها رجال القرية وشبابها، وحتى نسائها بعيدا عن آذان الرجال. الكل يمصمص شفتيه حسرة، يحسدون مدبولي الصغير لوجود الغوزاي في داره.

جلس يوسف أفندي، وبجواره سندس بثوبها الأبيض الجميل، والذي جلبه يوسف أفندي لها من البندر. وهلت الغوزاي بلباسهن المزركش شبه العاري، يمسكن صاجات في أيديهن ويتمايلن. أخفت النساء أعينهن، لإبراز خجل مصطنع من لبس هؤلاء الغوازي، وينظرن من بين أصابعهن عليهن وعلى الرجال، وضحكاتهن تتوه بين صوت المطرب وصوت الصافرات التي يطلقها الرجال، وهم يضعون أصابعهم في فمهم، مبتهجين بأداء الغوازي الذي خطف أبصارهم.

قالت كويسة، وهي تطلق ضحكات متقطعة للنسوة بجوارها

ـ شوفي يا ختي الفضايح

ردت أخرى وهي تضع يدها تحت ذقنها وتضحك:

- ايوه والنبي ياختي دول نسوان مفضوحة.. شوفي بيرقصوا بمياصة ازاي

- والنبي دول عايزين الحرق.. شوفي الرجالة المفاضيح بيبحلقوا فيهم ازاي

- والنبي لو الواحدة منهم نزلت نقت القطن من الغلت وحلبت البهايم وكنست تحتهم يوم واحد ما عادت بعدها تتراعى

- ايوه والله علشان لابسين المحزق والملزق المفاضيح بتوعنا بيبصوا عليهم

ثم قالت إحداهن وهى تصطنع الانصراف:

- أني قايمة بلا مسخرة فاضية

أمسكت إحداهن بطرف جلبابها:

- بس اقعدي لما نشوف الفضايح دي هتوصل لفين..

- على رأيك.. أني قاعده لما نشوف آخرتها..

ثم أشارت وهي تضحك إلى إحدى الغوازي التي ترقص

- شُفتِ البت المفضوحة وسطها بيلف ازاي.

على الجانب الآخر، يهلل الشباب ويطلقون الصافرات ويصفقون، وكأنهم أطفال يتطلعون بأعينهم إلى أعلى حيث الكنبة، التي يرقص عليها الغوازي.. يغمزون بأعينهم ويضع بعضهم يده على كتف الآخر، ليستعرض أمامهن مهاراته في المغازلة، وليظهر أمام أقرانه إمكاناته في سرقة أعين الغوازي منهم. عويضة أفندي يجلس القرفصاء على الأرض، بالقرب من الكنبة التي يرقص فوقها الغوازي، يحاول استعراض قدراته هو الآخر. لقد حضر من قبل العديد

من الحفلات في البندر، ويعرف عادات الحفلات هناك، وكيف يتعرف الشباب على الغوازي. إنه الوحيد القادر على جذب انتباههن، هكذا كان يحدث أهل القرية قبل الحفل، كان يعطيهم دروسا في كيفية مغازلة بنات البندر والغوازي. أولا لابد أن يغمز الشاب بإحدى عينيه فقط ليجذب انتباه الغازية، ثم يعوج طاقيته على جانب، ويحك بيده مؤخرة رأسه، ثم يبتسم ابتسامة خفيفة، فقط ترتسم على وجهه، ثم (يركز قوووي في القعدة ويكون تقيل والغازية هي اللي هتستجدي الشاب وتطلب منه ميعاد).. ضاعت دروس الأستاذ عويضة أبو شلتوت سدى، مازال عاجزا عن التطبيق العملي لنظريته. تتجاهل الغوازي إشاراته وإشارات التلاميذ الذين كانوا يتعلمون منه.. سأله عبد الرحيم الحلاق ساخرا:

- ماتورينا يا سبع البرومبه ولا شاطر تتكلم وخلاص؟

رد عويضة وهو يتمخط محاولا أن يخفي خجله:

- أني اللي ماليش نفس يا حلاق الغبرة

رد عبد الرحيم:

- أهي دا انت هتريل وواحدة منهم تعبرك يا بوز الإخص انت..

زاد حماس الرجال مع صوت المطرب أبو سراري والرقصات الخليعة للغوزاي.. أقبلت الأعين تتفحصهن وتخاطب فيهن الرغبات، وأقبلت الآذان ناحية أبو سراري، والذي تغذي أغانيه رغباتهم.. أبوسراري نار على علم، تردد القرية أغانيه دون أن يراه إلا قليل منهم. عويضة أبوشلتوت، الذي كان دائما يتدلى إلى البندر ليحضر حفلاته، نهض واقفا وهو ينظر إلى الجالسين القرفصاء على الأرض خلفه، وقال هو يشير إلى أبوسراري

- عايزين نسمع عزيزة بتحب حسين

رد أبوسراري ضاحكا:

- قصدك غنوة عزيزة ويونس

شعر عويضة بالحرج من رد أبوسراري، وقال عبد الرحيم وهو يشير إلى عويضة بالجلوس:

- ايوه سمعنا عزيزة ويونس

غنى أبوسراري:

عزيزة تقول ليونس

يا يونس قوم اقلب الرمان

شوفوا استوى يا يونس

و لا لسه اخضر على العيدان

وضعت النساء طرحهن على أعينهن مصطنعات الخجل من غناء أبوسراري، وهن يضحكن.. وقالت فردوس للنساء ساخرة منهن:

- يعني بتتكسفي انتِ ولا هي! دا انتوا عينكو باكسه..

تعالت الصيحات للأغنية، التي جعلت أهل القرية يتمردون على أحكامها، وقام كل منهم وبيده شومته يمارس التحطيب ليبرز عضلاته ومهاراته أمام الغوازي، اللائي جلسن يلتقطن الأنفاس. ظلوا يتزاحمون ليلعبوا، حتى نهض أبو زيد ابن مغاوري الجديد، بارزا شومته ومتحديا الجميع.. انسحبوا في هدوء بعيدا إلا شفيق ابن فرج خفير الباشا، الذي نهض واقفا متحديا أبو زيد. التف الجميع حولهما، وشكلوا دائرة، في داخلها طرفا الصراع المتستر في اللعبة. ربط كل منهما عمامته البيضاء فوق رأسه بعناية، تاركا بعضا منها على شكل حبل يتدلى على قفاه، ونظرا إلى بعضهما نظرة تحدٍ، وضرب كل منهما شومة

الآخر لتحيته، وشمرا عن ساعديهما، ورفعا الشوم ناحية المزمار لتحيته وتحية العريس. لا أحد في القرية يستطيع مجاراة أبو زيد في لعبة التحطيب. دارا حول بعضهما، كل منهما ينظر إلى الآخر بنظرات متحدية، تحاول اختراق قلب منافسه لتقذف فيه الرعب.. ضرب أبو زيد بشومته شومة منافسه شفيق بقوة، تلقت شومة شفيق الضربة، وردت بسرعة بضربة أقسى منها، حاول أن يتفاداها أبو زيد، لكن اهتزت يده التي تمسك بالشومة. لاحظ شفيق ذلك، فزاد بشومته، وتلاحقت الضربات.. لكن سرعان ماعاد أبو زيد إلى نشاطه، وأصبح هو من يضرب بشومته، وشفيق يتلقى بشومته الضربات القاسية، يهتز معها جسده. ازداد غضب شفيق، ومعه ازداد غضب أبو زيد، حتى هوت شومة شفيق على رأس أبو زيد، متظاهرا بعدم القصد. سالت الدماء على رأس أبو زيد، الذي تحسس رأسه ورأى بيده دماءه، فاستشاط غضبا. أمسك شومته، وانهال بها على رأس شفيق، الذي حاول تفاديها، ونجح في بادىء الأمر، لكن رأسه في النهاية تلقت ضربتين، أسالتا الدماء من رأسه.

ارتسمت الحيرة على وجوه الحاضرين، ونهض أبناء فرج وأسرعوا ناحية أبو زيد. قطع عليهم أبناء مغاوري الجديد الطريق، وتصدوا لهم.. ودارت معركة الشوم بين الفريقين. احتل الصراخ مكان الزغاريد، وامتلأ المكان بالغبار والزعيق. هم يوسف أفندي وعروسه إلى دارهما بصحبة محمد أفندي، الذي أمن رأسيهما من المقذوفات الطائشة على أرض المعركة. الغوازي يصرخن مرتعدات، يطلبن دارا لتعصمهن والمطرب الشهير.. لم تتوقف المعركة إلا عندما وصل فرج ومغاوري من قصر الباشا مسرعين، فصفع كل منهما أبناءه على وجوههم، وطلب منهم العودة إلى الدار، لكي يتعلموا الأدب.. نسى الجميع أمر يوسف أفندي وعروسه سندس، وعادوا إلى ديارهم مسرعين مغلقين أبوابهم، وعاد فرج إلى بيته وبصحبته أبناؤه، وأيضا مغاوري الجديد بأبنائه

أغلق مغاوري باب داره، وانهال على أبو زيد ضربا وسبا، مستنكرا ومتسائلا كيف لهذا الشفيق أن يضربه.. بينما حيا فرج شفيق، المنتصر في إحدى معارك الحرب الباردة بينه وبين مغاوري الجديد، للسيطرة على مراد باشا والقرية.

* * *

يفضل أهل القرية الجلوس بجوار دار عويضة أبو شلتوت على الجسر، يسمعون أم كلثوم وعبدالوهاب والأخبار؛ وإن كانوا لا يفضلون سماع الأخبار السياسية.. دائما تجلب لهم الإهانة من صاحب الراديو، لأنهم من وجهة نظره بهائم لا يفهمون، يتعب من أجل إفهامهم، وإن كانوا لا يودون أساسا الحديث في السياسة. أعلن المذيع في الراديو بصوت يملؤه الفخر إلغاء النحاس باشا معاهدة ٣٦، وجاء بصوت النحاس يعلن (من أجل مصر وافقت على معاهدة ٣٦ ومن أجل مصر ألغينا معاهدة ٣٦) هلل عويضة أبو شلتوت، وقفز في الهواء مصفقا كأنه طفل صغير أتى له أبوه بحلوى يحبها. لكن الجالسين على الجسر الذين سمعوا الراديو معه لم يبد على وجوههم أي رد فعل إلا الدهشة والاستغراب من تصرف عويضة الطفولي. هل مسه الجن؟هل أصيب بالجنون جزاء لما اقترفه في حق قطة سوداء كانت تسعى أمام داره وضربها، يبدو أنها لم تكن هرة بل نفر من الجن جاء إلى القرية ليعرف اهلها ويعيش فيها. تشير الأخبار الواردة من هناك أن السيدة زوجة سيدي عوضين المخاوي توفت كمدا وغما وحزنا عليه، لكن لم تنقطع العلاقات بين أهل القرية والجن. بعد زواج الشيخ متولي من أخته من أبيه، أثار ذلك الزواج حفيظة الشيخ صديق، فلا يجوز أن يتجوز الرجل من أخته، ـ لكنه لم يجرؤ على سؤال متولي عن ذلك. فقط فردوس، والتي نجح متولي أخيرا في أن يزوج ابنتها، سألته بصوت خائف مرتعد متلعثم:

- حقا يا سيدنا.. لامؤاخذة يعني.. داير في البلد المفضوحة انك اتجوزت

المحروسة اللي ربنا يجعل كلامنا خفيف عليها اختك؟؟

هز الشيخ متولي رأسه بالإيجاب، محتفظا بوقاره المصطنع. بادرته فردوس ثانية بسؤال:

- هو ينفع تتجوز أختك يا سيدنا؟

سقط قناع الوقار الذي يرتديه الشيخ متولي، وصاح غاضبا وهو يشير بيده التي تمسك السيجارة ناحية فردوس:

- انتِ اتهبلتِ يا ولية أنتِ.. مش عارفة بتكلمي مين؟.. داني ولي ابن ولي.. ربنا مش بيحاسب الاولياء.. غير كده كمان مسموح للأوليا أنهم يتجوزا اللي رايدينه حتى لو أختهم اللي تحت الأرض

ردت فردوس مرتعدة تود الانسحاب من أمام الولي حتى لا تسخط قردًا:

- ايوه والله كلامك عين العقل يا سيدنا عن اذنك

مازال عويضة يقفز، والحاضرون يفسرون قفزاته الطفولية، حتى انتهى، وقال بصوت يملؤه الحماس:

- مبروك يا أهل البلد الوفد لغى المعاهدة

زادت دهشة الحاضرين واستغرابهم، وقال أحدهم وهو يمصمص شفاهه ضاربا كفا بكف:

- يا حول الله يارب.. عليه العوض!! ده شكله وصل لحاله مستعصية زي عبدالتواب الطيب الله يرحمه

نهض رجب، الذي يلقبه أهل القرية بالعجوز، لعمره المديد، وقال مرددا وهو يشير بعصاه إلى أعلى

- سعد سعد يحيا سعد

ضحك عويضة، وازداد استغراب الجالسين.. حتى حضر الشيخ صديق، بصحبته نفر قليل من أهل القرية، صلوا خلفه العشاء. أشار بعصاه ناحية الجالسين وقال غاضبا:

- ماجتوش تصلوا العشا ليه يا بلد يا كافرة؟ عايزين تفضلوا نايمين ع الجسر وأدان ربنا بيدن ماتجوش

رد عبدالرحيم الحلاق بلهجة ساذجة:

- وهو يعني أدان ربنا مينفعش يبقى صوته حلو يا شيخ صديق؟

تغير لون الشيخ صديق، وحاول ضرب عبدالرحيم الحلاق، وأهل القرية يمنعونه. سأله بلهجة مستنكرة:

- تقصد ايه يا حلاق الغبرة انت.. انعل أبو ترابيك ترابي ناقصة

رد سيد أبو شمروخ محاولا التهدئة، وطالبا من الشيخ الجلوس:

- مش قصده حاجة يا مولانا دا حتى صوتك ولا صوت الشيخ رفعت

همس عويضة أبو شلتوت في أذن عبدالرحيم:

- قوم حب على راس الشيخ

لم يكمل عويضة كلامه، حتى نهض عبدالرحيم واقترب من الشيخ صديق، وقال له آسفا وهو يبتسم:

- هات راسك أبوسها يا ابا الشيخ صديق.

حاول الشيخ صديق أن يبتعد عن عبدالرحيم، وقال بصوت فيه الغضب:

- ابعد عني يا واد يا حلاق انت.

- مش باعد إلا لما تجيب راسك أحب عليها..

قبل عبدالرحيم رأس الشيخ، وقال محاولا إعادة المياه إلى مجاريها

- انت فين من زمان ياشيخ صديق ده احنا قاعدين من ساعتها عاملين زي بهايم أبو شمروخ مش فاهمين حاجة..

رد أبو شمروخ معاتبا:

- هو يعني مافيش قدامك غير بهايمي!!

سأل عبد الرحيم الحلاق الشيخ:

- هو ايه أصل الحديث اللي كان داير في المخروب بتاع عويضة دي يا ابا الشيخ

استلم عويضة الحديث، محاولا إظهار مهارته الفائقة في التحليل السياسي:

- المعاهدة دي اللي عملها النحاس باشا مع الانجليز سنه ٣٦ ولغاها النهارده.

رد الشيخ صديق مبتهجا:

- يحيا النحاس باشا.. يحيا النحاس باشا

* * *

يذهب النساء إلى أرض الباشا لتنقية الذرة من الغلت، يعطي مراد باشا النساء دون الرجال أجرا، وإن كان زهيدا. لم يفعل أبوه من قبل، لكنه نزل على رغبة النساء، كما تتهامس نساء القريه.. لم يكن لقلب مراد باشا فضل في مخالفة عادات أبيه القاسية، بل الفضل لبهانة بنت أبو سيد أحمد. يعلم النساء عن علاقتها سيئة السمعة بمغاوري. لا يعامل مغاوري بهانة بنفس معاملته للأخريات.. عندما تطلب منه بدلال، لا يعبر وجهها عن أماراته، أن تستريح لبعض الوقت، يدعها.. فتهز اللحم الكثيف غير المتناسق الملتف حول

جسدها، وتذهب هناك عند جذع شجرة الكافور البعيدة عن مرمى أنظارهن. هن يعملن في الحقل في جو حار خانق، توشك رؤوسهن على الانصهار، يمعتضن ويضجرن، لكن ليس أمامهن غير السخرية منه وهن يشاهدن وجهه المضطرب، يحاول أن يتسحب بخطوات قلقة، يقدم قدما ويؤخر أخرى، حتى يصل هو الآخر إلى الشجرة.. عندما تستريح بهانة، تستريح معها زميلاتها في الحقل، يتوقفن عن تنقية الغلت، يتلفتن على مغاوري يراقبن خطواته، وتقول مسعدة ساخرة:

- والنبي لو ست الحسن خدت خبر عن المزغود ده واللي بيهببه كانت جات نيلت عشته

ضحكت النساء، وهن يشرعن ويجففن بأيديهن العرق الغزير على جباههن. قالت إحداهن وهي تضع يدها التي مازال العرق يكسوها على ذقنها وتضيق عينيها:

- اسكتوا يا أختي انتِ وهي انتم مادرتوش؟

ردت الآخريات بصوت واحد، يستعجلن الخبر، لا يحبذن الانتظار كثيرا لسماع النميمة:

- حصل ايه؟

- سيبوا مراته في حالها؟

زادت لهفة النسوة في الحقل لسماع الخبر.. وكزتها إحداهن في جنبها..

- ماتقولي يا اللي تتفقدي ماها مراة المقصوف عمره مغاوري؟

- ليلة امبارح قبل الفجرية.. خبطت عليها النداهة

- النداهة! مش الشيخ متولي طردهم من البلد؟..

ردت إحداهن وقد اصفرت وجوههن من الرعب.

سمعت ست الحسن صوتا ينادي عليها من خارج بيتها، تهيأ لها أنه صوت إحدى نساء القرية، تطلب منها أن تخرج من دارها وترجع بقرتها التي فكت رباطها وخرجت بعيدعن الزريبة.. في بادىء الأمر، خافت ست الحسن، وخصوصا أنها كانت تبيت ليلتها لوحدها، فمغاوري أخذ عياله وراحوا لينظفوا القصر..

- كان صوت بقرتها الهولندى الكبيرة برة فاطمئن قلبها، لما خرجت شاورت لها الولية ناحية البقرة وجرت بعيد، وهي وراها تنادي على بقرتها تقف.. لحد لما وصلت عند شجرة الصفصاف المسكونة عند الترعة القبلية اللي اتقتلت عندها ليلى.. وفجأه اختفت البقرة عن عينيها.. وقربت منها ست عجوزة شعرها أبيض طويل على كتافها

سكتت تترقب لهفتهن، ثم أكملت تسترسل مع خيالها، لتحكي كيف اتسعت عيناها، وزادت اتساعا عندما ضحكت تلك العجوز وبرزت أسنانها التي تشبه أنياب الذئاب.. أصيب لسانها بالخرس، تحاول أن تعود بقدميها للخلف بخطوات بطيئة، لكن السيدة العجوز اقتربت أكثر. يثير شكل عينيها البيضاويتين الرعب أكثر.. تحاول إخفاء عينيها عنها، ثم تعاود النظر خلسة، وإذا بها تجدها، وقد أصبح وجهها نضرا، وكأنها شابة في العشرينات من عمرها.. لا توجد مياه في الترعة.. لا أحد يعلق ساقيته ليروي أرضه.. لن ينقذها أحد في هذا المكان، الذي تسكنه عفاريت القرية مثل ليلى وغيرها.. لا تسمع سوى زعيق الغربان، الذي يقذف الرعب في أهل القرية ويحذرهم من كارثة قريبة أو ميت من أهل القرية. السيدة العجوز أصبحت شابة صامتة.. تحاول ست الحسن لملمة بعض من شجاعتها المحطمة، وتفتح فاها لتلقى عليها التحية، لكن لسانها ثقل لا يقوى على الحديث..

اقتربت منها النداهة، وقالت بصوت مرعب، يتردد كموجات متعاقبة..

- انتِ مش هتحرمي؟

زادت دقات قلب ست الحسن من الرعب، وردت بعدها بصوت مرتجف:

- أني عملتلك ايه يا ست النداهة؟

زاد غضب النداهة، وقالت بصوت قذف الرعب أكثر في قلب ست الحسن:

- انتِ دوستِ على بنتي امبارح وهى بتستحمى في الترعة

بدأت الدموع تنهمر من عيني ست الحسن المرتعدتين وقالت مستجدية:

- والله ما حصل مني

- وانتِ بتغسلي الهدوم امبارح في الترعة رجليكِ داست على بنتي الصبية اللي على وش جواز، كانت بتسرح شعرها..

ردت ست الحسن باكية مرتعدة تطلب العفو:

- والنبى ما خدت بالى يا ست الجنية.. الهى كانت اتقطعت رجلى لو كنت اعرف

ردت النداهة مهددة بصوتها المرعب:

- لو عملتيها تاني.. هقطع رقبتك

فجأة، وجدت ست الحسن النداهة مقطوعة الرأس.. جسد يمشي دون رأس.. جحظت عينا ست الحسن، وارتجف جسدها واصطكت أسنانها، وسقطت على الأرض مغشيا عليها، فتركتها النداهة وانصرفت..

ارتعدت فرائص النساء، فلم تنس القرية حكاية الطفل الصغير منير، الذي

قتلته النداهة وألقته في الترعة القبلية.. لم تلد القرية طفلا بجمال ملامح وجهه التركية والعينين الخضراوتين وبخدين متوردين وابتسامة ترتسم على وجهه كأنه ملاك ليس ببشر.. ولد منير بعد سبع بنات لعبدالصادق نجار السواقي، واضطرت أمه أن تضع في أذنه قرطا، فهي تخشى عليه من الحسد. كل نساء القرية، وخاصة الحوامل يتطلعن إليه ويتمنين أطفالا مثله. عبدالصادق كان يخشى على طفله حتى من عيني أمه. يصطحبه معه في كل مكان يذهب إليه، يحمله فوق عنقه ويمشي به.. والطفل بعصاه الصغير يضحك، ويطلب منه أن يقلد صوت الحمار، فكان عبدالصادق يقلد صوت الحمار نزولا عند رغبة الابن الوحيد المدلل على سبع بنات.

حتى كان ذلك اليوم الحزين من أيام القرية الكثيبة الكثيرة.. تأخر عبدالصادق في تصليح ساقية الباشا عند السكة الوسطانية.. بكى الطفل الصغير وترك الدار خلسة، ليبحث عن أبيه، دون علم إخواته وأمه، وعاد الأب إلى داره متسائلا عن طفله الذي توحشه. بحثوا عنه في الدار.. كعادته، قد يكون مختفيا عن الأنظار.. كانوا يجدونه عند الكانون تحت كومة من حطب القطن يداعبهم.. لكنه لم يكن هناك هذه المرة.. ذهبت إحدى أخواته تبحث عنه عند دكان تهامي، فأحيانا يتسلل من الدار وبيده بيضتين ليبتاع بعض الحلوى؛ وإن كان تهامي يستغل طفولته، ويشترى منه البيض بأقل من سعره. لم يكن متواجدا عند دكان تهامي.. تسرب القلق إلى قلب عبدالصادق النجار.. اضطربت أمه وأخوته خوفا.. الوقت تأخر.. الطفل لم يعد.. عبدالصادق يجرى في شوارع القرية كالمجنون، ومن خلفه بناته وزوجته بجلابيبهن المكرمشةينادين عليه.. تبعهم أهل القرية، وقسموا أنفسهم، ممسكين لمبات الكشف، يمشون وينادون على منير.. بحثوا عنه، حتى وجدوه جثة هامدة ملقاة في الترعة.. انهمرت الدموع من عيني عبدالصادق، فبللت وجهه الشاحب المجعد من الشقاء، دون أن يظهر صوته. انهارت أم منير وأصيبت

بالخرس، ولطمت أخواته خدودهن، فنهرتهن فردوس بصوت خشن فظ..

- اقطمي يا بنت انتِ وهي.. ياريتكم كلكم كنتم رحتو وكان فضل هو.. على الاقل دكر منه منفعة..

ثم واصلت حديثها بصوتها القاسي:

- صوت حية ولا صوت بنية

في القرية تنشتر مثل تلك الأمثال، يرددها النساء قبل الرجال

"هَم البنات للمهات.. اللي بتموت بنيته من صفاوة نيته.. ولما قالوا لي ولد اشتد ظهري واستند ولما قالوا لي بنية انهدت الحيطة علي"..

لا يشعر الرجل بقيمته إلا عندما يكون لديه الذكور، فهم يخلدونه بعد مماته.. شعر عبدالصادق النجار أن ظهره قد كسر.. انتظر منير أكثر من عشرين سنة من زواجه.. قالوا إن النداهة أرادت الانتقام من عبدالصادق، الذي ضرب أحد أبنائها عندما كان يصلح ساقية الباشا.. لم يعرف عبدالصادق أن الهر الأسود ذا العينين جني، فضربه.. توعدته النداهة بالانتقام منه في ابنه منير، الطفل ذي الشعر الأصفر الطويل المنساب الناعم. استدرجت الطفل المسكين، فنزل الترعة القبلية وضربته بيدها، التي مازالت آثارها واضحة على ظهره

لم يكسر ظهر عبدالصادق بعد موت منير طويلا.. فقد ذهبت عديلة زوجته إلى مقام سيدي عوضين، لتقدم النذور لكي تنجب ولدًا يصلح ظهر عبدالصادق المكسور بعد منير. تلقفها الشيخ متولي بوجهه المهيب، وأمرها أن تدور حول مقام والده أربعة عشرة مرة. دارت حول المقام باكية، تشتكي لسيدي عوضين حالها وحال زوجها عبدالصادق، بعدما غربت عنهما شمس الحياة، وأعطت لهما ظهرها. حدد الشيخ متولي عدد اللفات حول مقام سيدي عوضين بحسب الحاجة التي أتى لها صاحبها.. من يأتي لسيدي عوضين طالبا

إعادة وزتين تائهتين في الترعة القبلية، ليس كمن يأتي لإعادة جاموسة، ولا من يأتي يطلب أن تتزوج ابنته العانس، ومن يطلب أن ينجب ابنا. بعدما انتهت من دورانها، وقد ذبلت عيناها من الدمع، طلب الشيخ متولي منها أن تجلس على مقربة منه، فجلست. لكنها لم تكن قريبة.. نهرها الشيخ، وهو يسبح بمسبحته التي لا تفارق يده، وقال بصوت لاهث متقطع:

- أني يا ولية مش قلت لك قربي مني؟

اضطربت عديلة واستغربت طلب الشيخ، لكنها نفذت ما أمره، حتى التصقت به.

مرر الشيخ متولي يده على جسدها الطويل الممشوق.. وجهها النضر، الذي لم ينل منه الزمان كما نال من الآخريات، فمازالت تحتفظ بجمال تحسدها عليه النساء في القرية. لم يعد الشيخ متولي يحتفظ بوقاره.. أنفاسه تتلاحق بشدة، يبتلع ريقه بصعوبة، حتى الكلام يخرج من فيه مبعثرا غير مفهوم. بدأت عديلة تشعر بالقلق والاضطراب مما يفعله الشيخ.. نظرت إليه بعينيها الواسعتين الخضروانين اللامعتين نظرة ريبة، ألهبت بداخله الرغبات، التي سرعان ما انطفأت بعد موجات من التشنجات واللمس لجسد المرأة، التي أصيبت بالرعب وهمت بالانصراف. عاد الشيخ إلى وقاره المصطنع، وأشعل سيجارته، وظهرت أسنانه السوداء في ابتسامة، ارتسمت على وجهه الشاحب، تطلب منها الاطمئنان، وقال وهو يدخن سيجارته:

- مبروك يا بنت حوا؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة، وعاود الشيخ حديثه المبشر:

- كده هتجيبي ولد بس تخلي جوزك ينام معاكِ لما القمر يتم كماله

ردت عديلة مبتسمة ابتسامة متشككة:

- ومقام سيدي عوضين لو حصل لاعطيك اللي انت عايزه يا سيدنا الشيخ

تغير وجه الشيخ، واحمر لونه، وأسرع بالتسبيح بمسبحته الخشبية الكبيرة، مستعطفا الأسياد:

- السماح يا أهل السماح دي جاموسة مش عارفة حاجة.. سامحها يا ابا معلهش امسحها في ابنك وخدامك دي برضه مش غريبة دي مننا..

أصابت حالة الشيخ متولي وصوته عديلة بالذعر، وأخذت تراقب بأعين مرتعبة، فتوجه لها صارخا:

- الأسياد مش بياخدوا حاجة.. النذور بتطلع فوق فوق وأشار بيده لأعلى، فنظرت عديلة إلى السماء، وقالت وهي تبصق على الأرض محاولة إصلاح ماقد كسره كلامها الصادم للأسياد:

- سايقة عليك سيدي عوضين حبيبك وكل الأوليا.. استسمحهم يا سيدنا الشيخ أني غبية مش فاهمة حاجة زي ما بتقول كده..

أخذت تخبط بيدها على صدرها بشدة مرددة..

- أني جاموسة.. والله جاموسة.. وبعدين سيدي عوضين عارفني ما هو احنا قرايب من ناحيه النسوان..

طلب الشيخ متولي منها الصمت والهدوء.. حدث نفسه بكلام غير مفهوم، مغلقا عينيه ومكرمشا وجهه.. لما انتهى طمأنها قائلا بصوت هادئ:

- اطمنى الأسياد سامحوكِ.. بس أدبا لكِ هتجيبي عشر دكره بط معتقين وعشر وزات واوعي تكدبي تقولي مافيش.. الأسياد عايشين معانا في ديارنا وعارفين كل حاجة.. يعني ماتقوليش مافيش هما عارفين عندك كم بطة ووزة بتسيبها تسرح في الترعة وكم مابيطلعوش علشان الحسد..

أبدت عديلة امتعاضا، سرعان مازال أثره عن وجهها، فهي لاتقوى على مواجهة الأسياد، ويكفي ماحدث لمنير. قالت بصوت يمتزج فيه الاستسلام بالتمني:

- أني خدامة جزمة الأسياد بس يجعلوه بفايدة..

وتحققت الفائدة بعدها بشهور قليلة، بعد تلك الليلة القمرية، التي قضتها في السرير مع زوجها للبحث عن ابن، لا للبحث عن متعة. أنجبت عديلة ذكرا، أسماه عبدالصادق شريف.. وكأنه حبة فول انقسمت نصفين بينه وبين أخيه منير.. وعندما بلغ عاما، ذهبت به إلى مقام سيدي عوضين، ليأخذ البركة، لتعصمه من النداهة ومن الأفعال الشريرة.. ولما أتت إلى القرية تلك العرافة العجوزة اللامعة السواد، طلبت منها عديلة أن تقرأ طالع شريف، فقالت لها سيكون له شأن عظيم وستفتخرين به في كل مكان.. سيكون فارس في الميدان، يشق بسيفه صدور الأعداء..

* * *

دعا محمد أفندي أهل القرية لحضور عقيقة ابنه حسن.. العقيقة من أهم المناسبات التي يبرز فيها الشيخ صديق قدراته الفائقة في التهام اللحوم. أحضر محمد أفندي الطبلية والملاعق الخشبية والأرز مطبوخا، لكن المستهدف لم يأت بعد. ضحك أهل القرية وهم يراقبون الشيخ صديق يجلس متحفزا منتظرا اللحوم. ولما أتت اللحوم، انشغل كل منهم بنفسه.. اللحوم هي ضيف عزيز على موائد القرية، لا يزور ديارهم إلا في الأعياد.. وهناك في القرية من يسمع عن هذا الضيف دون رؤيته، وهناك من مات يسمع عنه دون أن يراه.

انشغل الجميع بالطعام، والأطفال بجلابيبهم المتسخة الرثة يضعون أكمامهم في أفواههم يراقبون، وينتظرون لحظة الانقضاض على الطبالي، يدعون الله أن يترك لهم الكبار قطعة لحم.. من العيب أن يجلس الأطفال بجوار الكبار، لابد

أن ينتظروا انتهاء الكبار من تناول الطعام، ثم يأتي دور الأطفال، ومن بعدهم النساء. يأكلون بشراهة وبصخب، ولا يسمع إلا أصوات اصطكاك أسنانهم تمضغ الطعام. احتدمت المنافسة على اقتناص والتهام اللحوم.. تركوا الملاعق جنبا واستخدموا الأيادي.. يشعرون بالعطش، لكنهم يؤجلون الشرب حتى لا يعطلهم عن مهمتهم، وإذا شربوا ترقرقت حلوقهم بالماء وتجشؤوا بأصوات عالية، ثم مصمصوا أصابعهم، لالتقاط بقايا اللحوم، التي فرت من أفواههم لتلصق بأصابعهم، فتتبعها ألسنتهم.

لقد افترس الكبار اللحوم.. لما نهضوا عن الطبالي الخشبية الكبيرة، أسرع الأطفال لينالوا حظهم، لكن ضاع حلمهم.. نهرهم الشيخ صديق وقال وهو يشير بعصاه:

- خلي عندك أدب ياد انت وهو

نظر اليه الأطفال نظره استغراب تمتزج بخوف، وقال له عبدالرحيم الحلاق:

- سيبهم ياكلوا يا شيخ هو انت يعني خليت لحد حاجة ده كان ناقص تاكل خشب الطبلية..

حاول الشيخ النهوض ليضرب عبدالرحيم بعصاه، لكن تلك الأكلة السمينة جعلته يتنفس بصعوبة بالغة، فرد جالسا وصوته يخرج بصعوبة:

- انت يا حلاق الغبرة مش هتخليك ذوق؟

رد عبدالرحيم مازحا:

- احنا بنفك عن نفسنا يا بابا الشيخ صديق

وقف محمد أفندي وقد تذكر شيئا وسأل:

- أبويا رجب العجوز فين؟

رد الشيخ صديق:

ـ هتلاقيه متلقح هنا ولا هنا

رد سيد أبو شمروخ:

ـ انى سمعت أن حالته متأخرة شويه

تغير وجه الشيخ صديق، وقام مستأذنا الحضور لزيارة رجب العجوز.. لا أحد في القرية يعرف قيمة رجب العجوز مثل الشيخ صديق.. عاصر رجب العجوز هوجة عرابي، وشارك في الاحتجاجات ضد الإنجليز أيامها، وشارك أيضا بثورة ١٩، والتي يطلق عليها ثورة سعد زغلول. لم يتزوج رجب العجوز طيلة حياته الممتدة غير فتاة تركية، اضطر بعد زواجه بها بثلاث سنين أن يطلقها، فلا يجوز أن يتزوج عربجي مثله بتركية.. يحكي رجب العجوز أن عزبة الباشا كانت ملكا للفلاحين، وكان لأبيه عشرة أفدنة كاملة، وكان الولد الوحيد. لكنه تمرد على العمل في الزراعة، وسافر إلى القاهرة وعمل عربجيا.. وتراكمت الديون على الفلاحين، حتى حجزت عليها مصلحة الأملاك، وبيعت بمزاد علني، واشتراها خورشيد باشا.

يحتفظ رجب العجوز بصور لسعد باشا زغلول في داره.. ويتذكر يوم كرمه سعد باشا، عندما عين رئيسا للوزراء، لوطنيته، بعد إصابته في أحداث ثورة ١٩. عاد رجب العجوز إلى القرية بعد أن نال نصيبه من الفشل، مثل غيره من أبناء القرى الذين يذهبون إلى المدينة، معتقدين بأنها الجنة التي أعدت لهم، لكنهم بعدها يكتشفون أنها نار وهلاك. عاد ليرتمي في حضن القرية، فكان أهل القرية أهله، إذا أحس بالجوع أو العطش، يركل بقدمه باب أي دار فيها، فيلقى الود.

بينما ذهب رجال القرية لزيارة رجب المريض، ارتفع الصريخ والعويل في دار محمد أفندي ويوسف أفندي. أسرع بعضهم ناحية دار محمد أفندي،

ومجموعة ناحية دار يوسف أفندي، فوجدوا الهجانة تحيط بداريهما، والنساء يرتدين جلابيبهن السوداء يصرخن ويستعطفن الضابط أن يتركهما.. أمر الضابط العساكر بفك حصار نساء القرية بالعصي، فانهالوا عليهن بالضرب والسب أمام زوجيهما العاجزين عن صدهم. اقتادوهما إلى المخفر، وسط نظرات الحزن العاجزة من أهل القرية، المكتفين بمصمصة الشفاه. وضرب عبدالرحيم كفا بكف يسأل مستغربا:

- هما خدوا يوسف أفندي ومحمد أفندي ليه؟

رد أبو شمروخ:

- شكلهم بيلموا الأفندية اللي في البلد

فقال عويضة بنبرة حزينة منكسرة غير معهودة منه

- مصر ولعت!!

وقال تهامي البقال مستنكرا:

- يكونشي محمد أفندي ويوسف أفندي هما اللي ولعوها

رد عويضة:

- اللي ولعوها الشيوعيين

استغرب الحاضرون، وسأل مدبولي الصغير وهو متكئ على عصاه الغليظة:

- هما مين الشيوعيين دول ياعويضة؟

رد عويضة:

- دول ناس خونة مش رايدين لنا الخير

أضاف الشيخ صديق ممتعضا:

- دول كفرة والعياذ بالله

رد عليوة مشمئزا:

- والعياذ بالله ربنا يا خدهم ويغوروا بعيد عننا

زاد عويضة:

- دول مايعرفوش ربنا يا جدعان ايوه والله

استلم الشيخ صديق طرف الحديث:

- والعياذ بالله محمد أفندي جوز بنتي قال لي إنهم يارب استر علينا وعلى ولاينا.. عايزين النسوان يبقوا ع المشاع!

ضحك الجميع من حديث الشيخ المفاجىء وقد أصابتهم الدهشة، وقال عبدالرحيم الحلاق مازحا:

- وماله يا شيخ صديق..

ثم وجه حديثه لعبدالصادق نجار السواقي مازحا:

- ايه رأيك يا وله يا عبدالصادق ما تيجي نبقى شيوعين..

رد عبدالصادق النجار:

- ليه يا حلاق الغبرة هو أني كافر زيك؟ دانت مالكش ملة أصلا

ضحك أبو شمروخ وضرب كفا بكف وقال:

- يبقى أنت شيوعي ياواد يا عبدالرحيم

تنهد الشيخ صديق وقال:

- الحمد لله يوسف أفندي ولا محمد أفندي من الجماعة الكفرة دول

أتت فردوس مسرعة، بعدما سمعت الخبر الفاجعة، صرخت وقالت باكية وهى تنظر ناحية الرجال:

- يارب هات العواقب سليمة على نوارة بلدنا

همس عبدالرحيم:

- ربنا يستر منك يا شيخة ومن عينك

سمعت فردوس كلام عبدالرحيم، فقالت وهي تقترب منه وتضع يدها في خصرها:

- بتقول ايه يا واد يا اصفر أنت.. حاكم أنت متبركشي.. أني عارفاك..

ثم توجهت بخطابها ناحية الآخرين:

- طفحتم عند الراجل من غير ماترموا عضمة ليه حتى وآخرتها الراجل خدوه الهجانة

نظر الشيخ صديق لفردوس، ثم طلب منهم بصوت يائس:

- يلا يا اخواننا كل واحد يروح داره والصباح رباح..

* * *

زاد التعب على رجب العجوز.. يشتكي من قدمه التي سقطت في قناة أرض الباشا.. لم تعد ساقه تتحمل ما كانت تتحمله منذ زمان.. لا يقوى على الحركة، ويبكي كالأطفال ويصرخ. لم يبك رجب يوم اعتقاله، ولا يوم أجبر على طلاق زوجته التركية، ولا على موت أبيه وأمه.. لكنه التعب والزمان أرغماه على ما كان يراه من العيب. أن تخرج دموع من عينيه، وقتها لا يبقى الرجل رجلا، البكاء من صفات الأنثى الضعيفة. أحيانا تنجح بعض محاولات البسمة في الارتسام على وجهه النحيل، عندما يتذكر سعد باشا زغلول يوم كرمه ومنحه

شهادة تقدير وكلمته له: "مصر في أمان طول ما فيها زيك يا رجب"..

قسم أهل القرية أنفسهم لخدمة رجب العجوز في ورديات.. أعطى له عبد الرحيم الحلاق تركيبة، لكن ساقه لم تستجب للعلاج، ولا لدعوات الشيخ صديق السرية له في صلواته. انشغل عويضة أبو شلتوت بالراديو، لا يغادر داره إلا بصحبته على حماره الأسود.. لكن ضجيج الأطفال وهتافاتهم لا تجعله يسمع جيدا. بعد فشل حلاق الصحة، لم يعد غيره، فخاله عمه، ويداه مباركتان.. دفأت النساء الماء على الكانون، ووضع عويضة يده، فكادت تحترق، فأخرجها وهو يتأفف ويطيح بكلماته كأنها لكمات يسددها في وجوه النسوة، متهما إياهن أنهن لسن بأفضل حال من حمارته السوداء، فهي تفهم أكثر منهن جميعا. مرر عويضة يداه على ساق رجب العجوز، ولف قطعة من القماش البالي عليها، وامتطى حماره دون أن ينطق ببنت شفة، وعاد إلى داره، ومن خلفه تجرى الأطفال، وسط امتعاض الحاضرين. قال أبو شمروخ ساخرا:

- الله يرحمها امك يابن أبو شلتوت.. ولا أبوك حسانين الأجرب اللي كان بيمشي يستحك في الجدران زي الحمار الجربان

زاد عليوة متهكما:

- ده بيتأنعر علينا علشان بيعرف يفك الخط.. أومال لو كان أفندي كان تف علينا.. الله يصلح حالكم يا يوسف أنت ومحمد أفندي ويفك أسركم

تغير لون الجميع واكتسوا بالحزن عند ذكر محمد ويوسف أفندي، وقال عبدالرحيم الحلاق متنهدا:

- ياترى هما عاملين ايه دلوقتي؟

ابتلع الشيخ صديق ريقه بصعوبة، وبصوت مخنوق:

- ربنا ينتقم منهم الظلمة

رد عليوة:

- هما عملوا ايه يعني؟

ثم أشار ناحية عويضة أبو شلتوت، الذي يمتطي حماره عائدا إلى داره وقال:

- كانوا خدوا المدعوق دا اهو مكانهم.

رد عبدالرحيم وهو يتطلع إلى الأعين التي تمتلئ بالحزن، محاولا إزاحته عنها

- والله عندك حق.. احنا كنا زقططنا..

ثم نظر ثانية إلى الأعين التي تتحجر فيها الدموع ولم يفلح في محوها، وقال بصوت مخنوق والدموع تحاول الإفلات من عينيه:

- مالكم كده يا رجالة.. ما ضاقت إلا لما فرجت.. وربنا هيعدلها.

قال الشيخ صديق وهو مطأطأ الرأس

- المهم خلينا في الراجل اللي جوا الوقتي.

رد أبوشمرخ:

- مافيش غير الشيخ متولي

رد عليوة:

- بس الشيخ متولي مابيسيبش مقام أبوه

رد الشيخ صديق:

- خلاص احنا هنشيله ونروح عند مقام سيدي عوضين.. مين عالم..

يمكن ياخد البركة من سيدي عوضين.. اهو كانوا زمايل من سن واحد..

دخل الشيخ صديق وبرفقته رجال القرية ليحملوا رجب العجوز على حمار أبو شمروخ، المنتظر أمام الدار، لينقلوه إلى مقام سيدي عوضين. نادوا عليه، لم يجب.. أمسك أحدهم بيده فسقطت. لم يعد يتأوه من التعب.. نجحت ساقه فيما فشل فيه الجنود الإنجليز من قبل وهزمته.. نام بسلام.. أغمضوا عينيه، وانطلق صراخ النساء المرعب في ليل القرية المظلم، يجتاز جدران ديارهم، فيقذف الرعب في قلوب ساكنيها. خرجن من بيوتهن ليودعن رجب العجوز يبكين وينوحن ويصرخن ويلطمن خدودهن.. يبكين على شبابه الذي ضاع.. لقد خطفه الموت مبكرا.. (مات من غير عيل ولا تيل.. قطعت سيرته من الدنيا).. هكذا كن ينحن باكيات. في الركن البعيد في الجرن، يجلس الأطفال بجلابيبهم المتسخة وبقلوب ناصعة، ينسجون حكايات تخيفه عن الموت وتتسع أعينهم.. على وجوههم الشاحبة البريئة سؤال لم يجدوا له جوابا من الكبار.. ما الموت؟.. يحاول بعضهم نسج منوال خياله ويطرز حكاياته، منهم من قال بصوته الطفولي البرئ:

- الموت.. يعني الواحد يروح عند ربنا.

التف الأطفال من حوله، عسى أن يجدوا جوابا، ورد عليه أحدهم:

- بيعمل ايه عند ربنا؟!

ورد آخر وبيده بعض الحصي من الطين وبقايا مخاط أنفه يتدلى على وجهه:

- هيشتغل هناك في أرض الباشا

- وهيرجع تاني؟

- ايوه هيرجع

رد آخر يبدو أنه أكبرهم سنا:

- احنا كلنا هنروح له

رد طفل ظل صامتا، وبيديه عصاه صغيرة يستعملها كحمار يلعب به:

- لا أني مش عايز أروح هناك.. أني هخليني هنا

ثم قال آخر ضاحكا ببراءة:

- ماليش دعوة أني هشتغل في أرض الباشا اللي هنا مش عايز اطلع فوق

ضحك الأطفال، وكأنهم يحفزون بعضهم ليثوروا ضد الخوف الكامن في قلوبهم من المجهول.. اللغز الذي لم يستطع الكبار الجواب عليه.. الحزن على وجوه الرجال الكادحة على موت رجب العجوز صاحب الوجه الضاحك المقبل على الحياة.

قال الشيخ صديق وهو يمسح دموعه:

- الله يرحمك يا رجب

تنهد أبو شمروخ وقال كاتما بكائه:

- كان راجل طيب

و قال عبدالرحيم الحلاق، وعلى وجهه علامات الحزن والأسى

- عمري ماشفته زعلان من حاجة

نهض مدبولي الصغير، وقال بصوت لا ينقصه الحدة:

- ايوه يا أخويا أنت وهو.. ما هو لو كان سمع كلامكم مكنش مات

* * *

الجزء الثاني

عزبة سيدى عوضين.. الباشا سابقا



مازال النهار ينسج خيوطه، والشمس تحاول أن تجد لها مكانا في سماءالقرية الملئ بالضباب.. صياح الديكة، ونقيق الضفادع ترد على أصوات البهائم، التي تطلب من أصحابها أن تحلبها.. والضباب يسقط على الزروع قطرات متعاقبة.. يكنس النسوة الحظائر.. يجر الرجال البهائم خلفهم إلى الحقول.. استيقظ عويضة أبوشلتوت وخرج من داره وهو لا يرتدي غير سرواله. وقف على الجسر الملاصق لداره حافيا، وصرخ بصوت عالٍ..

- مافيش ملك.. مافيش فاروق

اعتقد أهل القرية أن عويضة قد أصابه الجنون، أو قد مسه الجن، وأسرعوا ناحيته يسألون زوجته ماذا حل به.. يبدو أن الراديو ـ كما قال الشيخ صديق ـ يجلب الجن، وكم من مرة حذر الشيخ صديق عويضة وأهل عزبة الباشا أنه إذا تكلم الحديد فهذه من علامات يوم القيامة.. عاود عويضة أبو شلتوت الصراخ، وهو يتطلع إلى الأعين التي تلتف حوله وتمصمص شفاهها حسرة على عقله؛ الذي أضاعه هذا اللعين (الراديو)

ربت الشيخ صديق على كتفه، وقال له بصوت حنون محاولا تهدئته:

- ايه إلى جرالك يا عويضة يابني ما أنت كنت عاقل.. منه لله المدعوق اللي جابلك الخبل

رد أبو شمروخ:

- وهو ماله بس الراديو يا شيخ صديق؟

رد الشيخ صديق ساخرا:

- مفيش يا أخويا.. مش أنت برضه اللي عايز تتجوز أم كلثوم

ظل عويضة صامتا يراقب الحديث، ثم قال:

- يا جدعان والله فاروق ساب البلد

رد عبدالرحيم الحلاق:

- ماهو فاروق ابو سويلم ساب البلد من زمان يا ناصح

رد عويضة:

- يا بقرة أبو شمروخ أني بقولك فاروق

رد عبدالرحيم مازحا

- فاروق مين يا ابوالعريف.. على رأى الجماعة الأفندية الله يصبحهم بالخير

- الملك فاروق.. مش قلت لك جاموسة

حملق الجميع في وجه عويضة، فاغرين فيهم، لا يصدقون ما وصل له عويضة من خبل. يبدو أن حالته متأخرة، وقد تستعصي على الشيخ متولي في العلاج..

أمر الشيخ صديق عبدالرحيم حلاق الصحة أن يضع يده على جبهته، فوضع عبدالرحيم يده على جبهة عويضة وقال موجها كلامه للشيخ:

- لا سخن ولا حاجة

رد مدبولي الصغير ساخرا، موجها كلامه لعويضة:

ـ قوم داتك سوخنة انت مفيش فيك حاجة شوفوا الواد بيصلبط ازاى!

نهض عويضة وقال صارخا في وجوه الحاضرين:

ـ يا جدعان صدقوني والله.. الملك فاروق ساب البلد.. انى سمعت البيان بتاع الظباط في الراديو

ضرب الجميع كفا بكف، وقال الشيخ صديق وهو يمصمص شفاهه:

ـ لا حول ولا قوه الا بالله البني آدم مننا ضعيف

فجأة أسرع عويضة ناحية الراديو المعلق في طاقة الدار، وصرخ في الحاضرين أن يلتزموا الصمت، لينصتوا للصوت الصادر من الراديو.. صمت الجميع، وسمعوا صوتا جهوريا يجتاز مسامعهم ويتلو بيانا..

(اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين.

وأما فترة ما بعد هذه الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها.

وعلى ذلك، فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين، فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب.

وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن، في ظل الدستور، مجرداً من أية غاية. وأنتهز هذه الفرصة، فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف، لأن

هذا ليس في صالح مصر، وأن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال. وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس. وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم، ويعتبر الجيش نفسه مسؤولاً عنهم.. والله ولي التوفيق).

ظلوا صامتين حتى نهاية البيان، فاغرين أفواههم ذهولا مما يسمعونه.. هل راديو عويضة أبو شلتوت قد مسه الجن؟.. كأنهم قذفوا في بحر من الاستغراب، يتمنون حضور الأفندية يوسف أفندي ومحمد أفندي لينقذوهم من الحيرة التي تلعب برؤوسهم جميعا.

سأل عبدالرحيم الحلاق الشيخ صديق:

- الكلام ده معناته ايه يا ابا الشيخ صديق؟

ظل الشيخ صديق صامتا لبرهة، وأعين الحاضرين شاخصة ناحيته، ثم قال:

- معناته أن الملك ساب البلد ومشي

جاء عبدالباسط الخفير مهرولا ناحية الجمع، وبصوت متلعثم لاهث:

- حضرة العمدة بيقول لكم محدش يسمع كلام الراديو بتاع الواد ابن أبو شلتوت

رد عويضة ثائرا:

- يلا يا خفير الغبرة امشي من هنا انعل أبوك لأبو العمدة بتاعك

أسرع عبدالباسط ناحية عويضة، محاولا الفتك به بعصاه الغليظة، وصاح بعد أن منعه الحاضرون:

- بقى كده يا عويضة يا بن حسانين الأجرب على آخرة الزمن تشتمني

أنى والعمدة؟ هو عشان العمدة طيب هتقلوا أدبكم يا بلد

أسرع عويضة ناحيته وأمسك بخناقه، وبدأ في تسديد اللكمات له. تعلم القرية كلها مدى غضب عويضة أبو شلتوت عندما يسخر أحد من أبيه.. أمسك عبدالرحيم الحلاق وأبو شمروخ عويضة وجذباه بعيدا عن عبدالباسط الخفير، الذي أجهش بالبكاء، وقال متوعدا أبو شلتوت

- والله يا عويضة.. لقايل للعمدة ومراد باشا.. علشان يخلى القلم السياسي يقطع خبرك من الدنيا

ربت الشيخ صديق على كتف عبدالباسط الخفير، وطلب من عويضة تقبيل رأسه، ولف له تهامي البقال سيجارة. كان قد أغلق دكانه وأتى مهرولا هو الآخر.. أخبرهم عبدالباسط أن إشارة جاءت من المخفر تطلب من العمدة أن يمنع الفلاحين من سماع الراديو اليوم. (أن الفأر يلعب في عبه).. ظل الفلاحون برغم ما سمعوه في الراديو وما سمعوه من الخفير في حيرة من أمرهم.. وعلى غير عادته، شاهدوا مراد باشا ممتطيا حصانه، من خلفه يلهث مغاوري الجديد وفرج، وكلا منهما يضع طرف جلبابه في فمه. لما اقترب مراد باشا من الفلاحين تغيرت وجوههم.. صرخ بهم مراد بصوت جهوري، وهو يشير بكرباجه الطويل:

- أنتم قاعدين بتعملوا ايه هنا يا بهايم؟

التزم الجميع الصمت، فصاح فيهم ثانية

- ماترد ياحيوان منك له

رد الشيخ صديق متلعثما، محاولا أن ينأى بجسده بعيدا عن مرمى كرباج الباشا

- مافيش يا معالي الباشا.. دا احنا..

لم يكمل الشيخ صديق، فقد انطلق كرباج الباشا في ضرب الحاضرين، فأصاب أول ما أصاب عبدالرحيم الحلاق، الذي جرى مهرولا متأوها.. وهرول الجميع ومن خلفهم يصيح الباشا يسبهم ويلعنهم. أمر الباشا فرج ومغاوري أن يعمل هؤلاء في السخرة لستة أشهر، جزاء لهم على سماع الراديو.

* * *

حتى الشيخ صديق لم يسلم من السخرة. بعد صلاة الفجر، يحمل الكل الفئوس ويتوجهون إلى أرض الباشا، يصبون لعناتهم على عويضة أبو شلتوت وعلى معرفته، التي أودت بهم مرة في غياهب السجن، ومرة أخرى إلى السخرة!!.. ظلوا هكذا شهر ونيف حتى.. أتى عبدالباسط ذات يوم إلى دار الشيخ المنهك من العمل، وطلب منه الحلاوة.. سأله دون اكتراث عن السبب، فرد عبدالباسط وفي عينيه دموع الأسى على الشيخ..

- محمد أفندي..

تغير لون وجه الشيخ صديق الشاحب البائس، وابتسم متفائلا قائلا:

- ماله؟

- راجع البلد الليلادي ومعاه يوسف أفندي

انتظر أهل القرية محمد أفندي ويوسف على مداخل القرية، يحملون لمبات الجاز، ويشعلون النار في أعواد الحطب. فلما هل هلال محمد ويوسف، هرول ناحيتهم الرجال، يصيحون الله أكبر الله أكبر.. وعلت الزغاريد تخترق ظلام الليل وسكونه الموحش.. ارتمى الأفندية في أحضان أهل القرية، بعد اعتقال دام شهورا، ذاقا فيها صنوفا من العذاب.. عادا إلى القرية وعلى وجهيهما السعادة والفرحة. رحب بهما عبدالرحيم:

- حمد لله على السلامة يا أفندية البلد ونوراة أهلها

أومأ محمد أفندي برأسه، وسبقه يوسف أفندي:

- والله لكم وحشة يا أهل البلد

ورد محمد أفندي:

- ايوه والله انتم ليكم وحشة كبيرة يا جدعان

رد عبد الباسط مرحبا وفاتحا ذراعيه:

- نورتم عزبة الباشا يا أفندية

ظهر على وجه محمد ويوسف الامتعاض، وقال يوسف ناهرا عبدالباسط

- باشا ايه.. وخفير ايه.. ما خلاص

رد الشيخ صديق، وقد ظهر عليه الاستغراب من كلام يوسف أفندي:

- خلاص ايه يا يوسف أفندي.. اعمل معروف.. احنا فينا اللي مكفينا.. جتتنا معدتش ناقصة يابني

رد محمد أفندي مبتسما:

- يسقط الباشا.. يسقط الباشا..

حاول عبدالرحيم الحلاق أن يضع يده على فم محمد أفندي حتى لا يسمعه الباشا، فقال يوسف:

- الملك ساب البلد خلاص والضباط الأحرار مسكوا البلد..

رد عويضة أبو شلتوت مزهوا:

- صدقتم كلامي وكلام الراديو بتاعي يا بهايم..

رد تهامي البقال:

- والنبي بلدنا دي.. لو اتسخطت ما حد هيحس بينا

ضحك الجميع، وقال عبدالرحيم الحلاق مازحا:

- والله يا جدعان أني مش فارقة معايا.. ضربوا الأعور على عينه..

وقال أبو سنة بصوت يملؤه اليأس:

- قال هيسخطوك يا قرد...

رد أبو شمروخ ساخرا:

- وأني اللي يتجوز أمي اقول له يا عمي

ظل يوسف ومحمد يتابعان حوارات اليأس بين أهل القرية، ثم قال محمد أفندي بصوت متحمس:

- من النهارده مافيش ملك.. الملك هو الله الواحد القهار وحده لا إله إلا هو.. من النهارده مافيش باشا.. انتهى هذا العصر.. من النهارده مفيش ظلم.. من النهارده انتم أحرار كما خلقكم الله..

واستلم منه يوسف الحديث، وبصوت أكثر حماسة:

- لن يستغل إنسان إنسانا.. لقد كنا نزرع ويحصد الباشا.. وبلدنا تنهبها حفنة من البشر الرأسماليين حلفاء الإمبرالية المستعمرة.. ثمار زراعة كل واحد منكم ستقع في حجره لا في حجر الباشا كما كنا.. ارفعوا رؤوسكم أيها المصريون.. واصلوا النضال ضد المستعمر وحلفائه وفلول الملكية.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. لقد ظلت مصر رهينة أسرة محمد علي الظالمة عميلة الاحتلال.. لكم اليوم أن تسعدوا، من يحكمنا هم الضباط الأحرار من أبناء مصر المخلصين.. لكم أن تفخروا بحكامكم الجدد أبناء هذه الأرض..

ظل يوسف أفندي يخطب، وأهل القرية ينصتون، وإن كانوا لا يفهمون كثيرا مما قال. ولكن كلماته ألهبت فيهم المشاعر الوطنية الدفينة، التي كانت تنتظر شعلة تهديهم إلى طريق الحق لتتقد.. ولما انتهى من حديثه الحماسي، قال عبدالرحيم الحلاق ساخرا، وموجها حديثه لأهل البلد:

- اقطع دراعي لو كنتو فهمتوا حاجة من الكلام اللي يوسف أفندي قاله..

ضحك الجميع، ونادى الشيخ صديق على عائشة لتحضر الشربات، في ليلة لم ينقصها ضياء القمر ولا أصوات الديوك الصائحة، وكأنها ترحب بالأفندية.

أقبل فرج خفير الباشا وبصحبته مغاوري الجديد. أرسلهما الباشا ليتفقدا أحوال القرية، وليعلم مايدور بعد عودة يوسف ومحمد أفندي.. ألقيا السلام على أهل البلد الحاضرين، ورحبا بالأفندية، وجلسا مع الجالسين. ساد الصمت، حتى قطعه محمد أفندي مستنكرا:

- مالكم يا أهل البلد سكتم ليه؟

ضحك مغاوري وفرج.. واستفزت ضحكات الاثنين يوسف ومحمد أفندي، فوقف محمد أفندي وقال:

- لقد خلقنا الله أحرارا لنعبده دون غيره.. لم يخلقنا لنعبد ملك ولا باشا.. لمن الملك اليوم.. لله الواحد القهار.. أين فاروق؟.. لقد هرب لينجو ببدنه.. لكن الباشوات وخدامهم..

ثم ألقى نظره ناحية الاثنين، وأكمل الحديث

- لن يفلتوا من أمواج الغضب الهادرة لهذا الشعب العظيم.. حطموا الخوف الذي في قلوبكم.. وادعوا لأوليائكم الجدد الأطهار الأبرار، أبناء الأرض.. هم البذرة التي ستطرح دولة الخلافة بإذن الله..

تحمس الحاضرون لكلام محمد أفندي، وتغير وجه مغاوري وفرج. وتغير وجه يوسف أفندي، وبدا ممتعضا من خطبة محمد أفندي. قال مغاوري محاولا أن يبتعد عن الموضوع، ليطفىء نار الحماس الموقدة في قلوب الحاضرين:

- وماله الملك يعني كان هيعمل ايه يا أفندية؟

رد يوسف أفندي:

- فاروق كان فاسدا حليفا للاحتلال والإمبريالية العالمية والرجعية.. يغير الوزرات كما يغير ملابسه.. كنا نعيش مسرحية هزلية فيها ديمقراطية الباشاوات فقط، أما قوى الشعب الكادح، فليس لها من الديمقراطية نصيب.. سوف تسود الاشتراكية.. النصر للشعب الكادح.. النصر للعمال والفلاحين.. القادم أفضل لكم.. ألقوا فاروق خلف ظهرانيكم، وفكروا في مستقبلكم الذي أشرقت شمسه، وسطعت على يد هؤلاء الأبطال أبناء النيل، بالديمقراطية نبني وطننا ونصون كرامتنا وحقوق الإنسان..

أنصت الحاضرون فاغرين أفواههم، كعادتهم عندما يستمعون لحديثه وحديث محمد أفندي، لكنهم اخذوا يتهامسون ويسألون ما الديمقراطية، وما هي حقوق الإنسان..

رد مغاوري محاولا التهكم والسخرية:

- هو أنتم كده يا أفندية مابناخدش منكم غير كلام مساوي.

ثم أشار إلى الفلاحين الساهرين:

- قوم فز أنت وهو ورانا شغل بكرة ولا انتم عايزين تقعدوا كده زي تنابلة السلطان

بالرغم من حديث الأفندية الحماسى، إلا أنهم انصاعوا صاغرين إلى أوامر

مغاوري، ونهضوا ليعودوا إلى ديارهم، فصاح يوسف أفندي فيهم:

- ماحدش يقوم خليكم قاعدين.. البلد بتتغير وناقص بس إنكم تصدقوا نفسكم..

جلسوا ثانية، وبدا الامتعاض والحنق على محيا مغاوري وفرج، وقالا وهما يهمان بالرحيل:

- بقى كده يا بلد مايحكمهاش إلا الكرباج.

ثم توجه بحديثه ناحية يوسف..

- ابقى انفعهم يا سي الأفندي.. ولا اقولك ابقى انفع نفسك لما الباشا ياخد خبر.. الظاهر خلاص عجبتكم عيشة السجون..

نصح محمد أفندي الفلاحون أن يناموا ليلتهم هذه في مكانهم في الجرن، حتى لا يستطيع الباشا الفتك بهم فرادى. وافق الجميع، وقال أبو شمروخ:

- بس الناموس هنا زي الجاموس

رد الشيخ صديق ساخرا

- قرصة ناموسة ولا ضربه كرباج تيجى على ضهرك تنحل وبرك؟!

ناموا حتى أقبل الفجر، وذهب الشيخ ليؤذن في الناس للصلاة. لم يذهب غير محمد أفندي، وظل الآخرون نيام..

حضر العمدة مهرولا يلهث، ويركل النائمين في الجرن، المتمردين على الباشا صارخا فيهم:

- قوم فز انت وهو.. الله يخرب بيوتكم هتخربوا بيتي..

فرك عبدالرحيم الحلاق عينيه، ونظر إلى العمدة هواري وقال:

- ايوه يا حضرة العمدة ما درتش؟

رد العمدة هواري:

- مادرتشي بايه يا حلاق الغبرة

- الملك فاروق هج وسافر بلاد برة؟

- وبعدين؟!

- الأفندية بيقولولنا اننا ماعدناش هنشتغل في السخرة

رد العمدة ممتعضا:

- أومال مين اللي هيشتغل في السخرة يكونشي اطلع أبويا وأمي من التربة يشتغلوا هما!!

هز عبدالرحيم رأسه وقال:

- مش مصدقني؟ حتى اسأل الأفندية

أضاف عويضة أبو شلتوت وهو يقرب يديه ويبعدها:

- اسكت يا حضرة العمدة.. بلدنا هتبقى ديمقراطية..

اضطرب وجه العمدة، وظل صامتا برهة من الوقت، ثم توجه بحديثه لأبو شمروخ، الذي نهض لتوه على صراخ العمدة، وسأله:

- الواد ديه بيقول ايه يا ولاه؟

فرك أبو شمروخ عينيه، وقال وهو يتثاءب:

- اسأل الأفندية يا حضرة العمدة

رد العمدة وهو يضرب كفا بكف في ذهول:

- منهم لله الأفندية.. بوظوا دماغ العالم.. عزبة الباشا طول عمرها هادية.. وآخر التقاليع بيقولك عايزين يخلوها البتاع دي

ثم نظر بجواره إلى عبدالباسط الخفير وسأله:

- وهو الواد عويضة كان بيبرطم ويقول ايه يا وله؟

رد عبدالباسط وهو يهز كتفيه:

- أني عارف يا عمدة!.. أهو كلام والسلام

ضرب العمدة كفا بكف وقال يائسا:

آه يا بلد حافية يا ولاد الكلب.. دي آخرتها!

* * *

في القصر يجلس وحيدا في غرفته، على كرسيه الهزاز، فاتحا نوافذها ينظر إلى القمر، في ليل القرية الخريفي الموحش.. تتساقط زخات المطر.. يتطلع إلى السماء بعينين يملؤهما اليأس.. الأخبار الواردة من العاصمة، التي يحملها ذلك الراديو اللعين تزيد اضطرابه.. ورث خمسة آلاف فدان عن أجداده هو ورؤوف، الذي تركه يرتع ويلهو فيها دون حساب، منذ سافر إلى فرنسا ولم يعد.. لم يرث الأرض فقط، بل ورث من عليها من بشر وحجر.. لا تأتي المصائب فرادى، تنهال عليه كطوفان.. أصبحت الأمواج عاتية في بحر اليأس الهادرة أمواجه.. سوف يستولي هؤلاء الرعاع على أرض أجداده.

طرق مغاوري الجديد باب الغرفة المظلمة مستأذنا.. دخل، ووجده يجلس في غرفته يرشف الخمر بنهم، وبصوت منكسر، يبدو فيه أنه زاد سكره، ودون أن يلتفت إليه قال مراد:

- الرعاع هياخدوا أرضي يا مغاوري

اقترب مغاوري متقنعا الحزن:

- على جثتي وجثة عيالي لو حد هوب ناحية أرضك يا سعادة الباشا...

ثم بلهجة أقل حدة واصل حديثه..

- بس احنا لازم نفكر بالعقل

استدار مراد ناحيته، كأنه يرجوه أن ينتشله من قاع اليأس والإحباط القابع فيه.. تابع مغاوري حديثه بصوت منخفض:

- سعادتك تلم الحاجات الغالية وتبيعها وإن كان على مكن الزراعة والجرارات وخلافه.. أني من النجمة هتصرفلك فيها

استجاب مراد إلى نصائح مغاوري، وجمع أشياءه الثمينة، وغادر عزبة الباشا تحت جنح الظلام، يستره من أعين المترصدين، متفقا مع مغاوري الجديد على بيع ما تبقى. كان الاتفاق سريا، لم يصل إلى أذني فرج، الخفير النائم في حديقة القصر، بجواره بندقيته، ويخرج من فيه وأنفه أصوات قبيحة، ولم يدر حتى انتهى الأمر.

اعتلى الشيخ صديق المنبر، ليخطب في الناس خطبة الجمعة. وقال بعد أن حمد الله وأثنى على نبيه..

- إننا نعيش هذه الأيام ثورة مباركة، تعيد الحق لأهله. كنا نعيش في ظلام حالك، وأتى إلينا الأحرار بالأنوار تملأ الدور ضياء من العدل والحق. كنا نعاني من ظلم تيسير وأبيه من قبله وابنه من بعده، فجاء إلينا عدل نجيب وصحبه.. ماحدث هو انتقام من الله عز وجل من مراد وأبيه وجده.

ثم هز الشيخ صديق رأسه وقال:

- ايوه والله يا أهل البلد.. ربنا بينتقم منهم لأنهم كانوا ظلمة وكفرة

كمان.. وربنا راضي عننا علشان كده خد حقنا من الظلمة دول

همس عبدالرحيم الحلاق لأبو شمروخ بجواره:

- الحمد لله أول مرة ربنا يطلع راضي عننا وغضبان على الباشا!!

وكز أبو شمروخ عبدالرحيم في جنبه، وهو يحاول أن يقاوم الضحك، وهمس بصوت منخفض:

- اعمل معروف اسكت لو شافنا هيعاند وهنقعد في الخطبة للعصر واحنا ورانا شغل في الغيط

ثم رفع الشيخ يداه داعيا، والناس من خلفه يؤمنون:

- اللهم بارك في قائد ضباطنا الأحرار القوي الأمين محمد ابن نجيب، ووفق الضباط الأحرار الأبرار.. اللهم انتقم من فاروق.. اللهم انتقم من مراد وأهله

وبعد الصلاة، وقف مغاوري الجديد بجلبابه الصوف الأبيض ذي الأكمام الواسعة، وقال وهو يسبح بمسبحته الطويلة المذهبة:

- يا رجالة مراد ساب البلد وهج والحمد لله الحق رجع لأصحابه.. احنا ياما اتمرمطنا في السخرة عنده واتبهدلنا حتى اسألوا فرج

نهض فرج بلباس ليس أقل أناقة من مغاوري وقال:

- ايوه عندك حق يا أبو مدبولي والله يا أهل البلد ومالكم عليّ يمين ياما اتظلمنا من الواطى ديه ومن الملعون أبوه وكله من تحت راس اخواتنا وأهلنا وحبايبنا في البلد كنا نقوله الناس تعبانة مكنش بيسمع كلامنا داهية تاخده وتاخد أبوه مطرح ما راح

ثم عاود مغاوري حديثه:

- حاكم الملعون هو وأبوه الله يجحمه هما اللي قتلوه البنية بنت مدبولي الله يرحمه وهما اللي وزوا الحكومة تعتقل الأفندية.. قُل لهم يا فرج يا أخويا أني عملت ايه علشان الملعون مراد يطلع الأفندية من المعتقل..

أجاب فرج متلعثما:

- احنا مسبناهوش إلا لما اتصل عالحكومة وخرجهم

امتعض مغاوري من استخدام فرج كلمة (احنا) كان يتمنى جوابا من فرج يبدأ بـ (انت). همهم الشيخ صديق وهويسبح بمسبحته الخشبية القديمة، وقد بدا عليه الضيق:

- والنبي... !!؟؟ شوف يا أخويا الكلام؟؟!! دانتو عمركم ماركعتوها

نهض دياسطي أبو سنة، بجلبابه المرقع المتسخ، وبشعره الأشعث، وحاول الاعتداء على مغاوري، لكن أبناءه قطعوا عليه طريق الانتقام من أبيهم، وانهالوا عليه ضربا بالعصي، وخر مغشيا عليه، بالرغم من محاولات يوسف ومحمد أفندي الدفاع عنه، اكتفى الآخرون بالصمت، وظلوا يمصمصون شفاههم وفي أعينهم الحسرة على دياسطي، الذي ظن أن الوقت حان ليأخذ بثأره من مغاوري. لما فرغ ابناؤه من ضرب أبوسنة، انهال عليهم بالضرب، محاولا خداع الناس بطيبته المفاجئة ووداعته، ثم ساعد أبو سنة على الوقوف متأسفا، وهو ينظر بنظرة المنتصر لأهل القرية، الذين اتخذت وجوههم ألوان الهزيمة. وربت على كتف دياسطي قائلا:

- امسحها فيّ أني يا دياسطي يا بني

ظل العمدة هواري يراقب مايحدث صامتا.. ثم انفجر غاضبا وصاح في أبناء مغاوري، متوعدا ومهددا أنه لن يترك حق هذا الضعيف المسكين الوحيد. هاج المسجد وماج وامتلأ صخبا وضجيجا، وسط نظرات غاضبة من فرج،

حاول كتمانها، وفضل المراقبه من بعيد. رد مغاوري على العمدة هواري غاضبا وقال:

- اييه يا حضرة العمدة أنت مالك ومال عيالي ولا فاكرنا زي زمان؟ خلاص

رد العمدة هواري مستغربا وهو يضرب كفا بكف:

- أني برضه اللي يتقال لي كده يا ملاحظ أنفار مراد!!

- كان زمان وجبر يا هواري..

ثم استدار ناحية رجال القرية:

-ماينفعش ناس كانت أيام الملك الفاسد تفضل قاعدة لنا في أرابيزنا.. خلاص لازم يبعدوا علشان البلد تنضف ولا أنتو رأيكو ايه يارجالة؟

لم يرد الرجال، الذين ارتسمت الحيرة والغضب على وجوههم من مغاوري. رد العمدة وقد احمر وجهه من الغضب:

- يعنى أني بقيت من أيام الملك وأنت من أيام نجيب؟ آه يا زمن

استلم يوسف أفندي خيط الحديث وقال:

- يا أهل البلد مصر اتغيرت ماعدتش فيه فرق بين وزير ولا خفير وكمان هيلغوا الباشوية

رد أبو شمروخ:

- يا عم يوسف أفندي احنا بنكلم على بلدنا عزبة الباشا أنت تقول لي مصر.. احنا ما لنا ومالها.. ما كل حى في بلده ياجدعان..

ابتسم يوسف أفندي، ورد محمد أفندي:

- يا أبو شمروخ اللي بيحصل في مصر هو اللي بيحصل في بلدنا

ثم قال عبدالرحيم الحلاق ساخرا:

- سيبكم منه يا أفندية ده مربوط ورا البهايم!

* * *

هلت بشائر نهار الانتصار الحقيقي، بعد ليلة طال فيها الانتظار.. كانوا ينتظرون ويتأهبون للذهاب إلى البندر، بعضهم امتطى حماره، وآخر ذهب ماشيا يمتطي الفرحة، وترافق خطواتهم المسرعة السعادة، يستعجلون الطريق. عاد الحق إلى أصحابه.. عادت إليهم أرضهم المغتصبة.. استولى عليها أجداد مراد من أجدادهم، وها هي تعود ثانية.. لن يستغلوا بعد اليوم، ولن يستعبدهم الباشا، ولن يظلم أحد في دولة الحق والعدل والاشتراكية الجديدة. وقفوا أمام مديرية الزراعة، يحملون الأختام في أيديهم، في طابور الشوق الطويل، كل معه أوراقه. لكنها لم تكن كافية للحصول على الحلم، على كل منهم إحضار جنيه يدسه في الأوراق المقدمة.

وقف رجل يرتدي بنطلون وقميص، وفوق رأسه طربوش أحمر باهت، يتدلى من تحته منديل أبيض مبلل بالعرق على جانبي وجهه وعلى قفاه، يحمل تحت إبطه دفترا كبيرا، يحاول تنظيم صفوف الوافدين من القرية. قال وقد ساد الهرج والمرج المكان:

- نظموا نفسكم يا بهايم.. صدق البهايم عمرهم ماهيبقوا بني آدميين.. ادعوا بقى للي نضفكو وعاوزين يخلوكو بني آدمين

ثم قال بصوت منخفض:

- ماتنسوش الجنيه

رد عويضة ممتعضا:

ـ جنيه بحاله دا كتير.. يا حضرة الأفندي!

رد الرجل ممتعضا وغاضبا:

ـ ايه اللي كتير.. اللى يسمعك كده يقول ده الخمس فدادين اللي هاتخدهم دول وارثهم عن المرحومة أمك

رد عويضة وعلى وجهه الحرج والغضب:

ـ وايه لازمته الغلط بس يا حضرة الأفندي

أشار عبدالرحيم بيديه إلى الأفندي وقال:

ـ مالكش دعوة بيه يا سيدنا الأفندي وإن كان على الجنيه هتاخده وفوقه بوسة

أشار الأفندي ناحية عبدالرحيم، وقال محدثا عويضة:

ـ شوف الناس المحترمة

ظلوا واقفين في طابور الشوق، كل بأوراقه، والأهم بالجنيه لحضرة الأفندي مسئول المديرية. تأخر مغاوري في الحضور، ثم جاء بصحبته فرج. عندما لمحهما الأفندي الذي كان يزعق في الفلاحين، ابتلع ريقه بصعوبة، وأسرع ناحيتهما مصافحا مغاوري، أو كما لقبه لأول مرة الحاج مغاوري، عين أعيان عزبة الباشا. اندهش أهل القرية من تصرف الأفندي الغريب تجاه مغاوري، ونظر إليهم مغاوري الجديد نظرة متعالية، أربكت أفكار هؤلاء الذين ظنوا أنهم تخلصوا من الباشا ورجاله، والذين كانوا يمشون خلفه مثل ظله، بل كان ظلمهم لهم أقوى من ظلم الباشا نفسه. نادى الأفندي على الساعي أن يحضر كرسيا للحاج مغاوري ليستريح، فليس من المعقول أن يقف هكذا. أحضر الساعي كرسيا مسرعا، وجلس مغاوري، بينما ظل فرج واقفا بجواره يتصبب عرقا من الحرج، فهو ليس بأقل من مغاوري، ولكن الساعي الغبي،

بل الأفندي نفسه لا يعرف قدره. تابعت أعين الفلاحين مغاوري الجالس على الكرسي، واضعا ساقه اليمنى على اليسرى، يدخن سيجارة قدمها له وأشعلها الأفندي.. يتهامسون ويتغامزون ويتساءلون عن سر ذلك الترحاب من الأفندي بمغاوري.

تعرف الأفندي على مغاوري من قبل، واتفقا على بيع ماكينات الزراعة التي يمتلكها الباشا بعيدا عن أنظار قانون الإصلاح الزراعي الجديد. وكانت النتيجة الطبيعية أن ينادي الموظف على الحاج مغاوري ليستلم هو وأبناؤه كل منهم عقد الخمسة أفدنة، كأول عقود يستلمها فلاحو القرية.

وزع الفلاحون الشربات في القرية على بعضهم، وسط سخط العمدة هواري، الذي لم يستلم عقود خمسة أفدنة مثلهم، لحيازته خمسة أفدنة أيام الملك المخلوع. وقفوا أمام دار عويضة يسمعون الراديو والأغاني الوطنيه التي تمتدح نجيب.. يتبادلون الحديث عن الأرض الجديدة، وحضر العمدة الذي تغيرت هيئته وبدا مصفر الوجه. والذي زاد غضبه بعد سماعه الأطفال يغنون ويرقصون خلف فردوس، وهي في تجول شوارع القرية وتغني

"يامحمد يا نجيب يا حتة سكرة... خربت بيت فاروق بهمسة صغيرة"..

قال أبو شمروخ مستنكرا:

- اشمعنى أني أرضي تبقى في ديل الترعة؟!

رد الشيخ صديق مازحا:

- يعني كانت ورث اللي جابك.. ما تحمد ربنا

رد أبو شمروخ وهو يقبل ظهر يده وباطنها:

- الحمد لله ربنا يخليه لنا نجيب والظباط الأحرار

أحضرت زوجة عويضة الشربات، ووزعت عليهم، وشرب العمدة على

مضض، وقال عبدالرحيم لعويضة:

ـ ماحدش قدك واخد خمس فدادين على راس الترعة!!

رد أبو شمروخ:

ـ ما أرضك على كتف الترعة

ردعويضة وهو ينظر مزهوا ناحية العمدة:

هو احنا كده يا ملاك مايعجبناش العجب!!

حدث العمدة نفسه كاظما غيظه:

ـ آه يا بلد حافية يا ولاد الكلب بقى لكم أرض!

لاحظ الشيخ صديق غمغمة العمدة فسأله:

ـ بتقول حاجة يا حضرة العمدة!

رد العمدة ملوحا بيديه:

ـ ولا حاجة يا اخويا

فجأة، أتى مغاوري وسلم على الحاضرين، وبعدما شرب الشربات، قال وهو ينظر ناحية العمدة هواري، ويظهر حزنا مصطنعا:

ـ يا أهل البلد ماعدتش ينفع كده؟

رد الجميع:

ـ ايه الليماينفعش؟

ـ عايزين نغير اسم بلدنا..

ثم وجه حديثه ناحية الشيخ صديق:

- معقول يارجالة نسيب اسم تيسير على البلد؟

حدث العمدة نفسه وعلى وجهه الحسرة:

- عندك حق يا بن الحافية.. ما البلد بتاعة امك!

رد الشيخ صديق:

- عين العقل يا رجالة.. لازم نغير اسم البلد ونشيل اسم الملعون ديه

أتى فرج مهرولا، وقال وهو يلهث:

- عندك حق يا مغاوري يا اخويا

قال مغاوري ويده حول ذقنه، وقد أحاط به أبناؤه

- فكروا في اسم كده

رد مدبولي الصغير وهو يهز رأسه إلى أعلى:

- احنا هنسميها عزبة مغاوري

امتعض الجميع، وبدا عليهم الضيق الشديد، وقال العمدة هواري غاضبا:

- يا سلام.. ازاي وابوك مغاوري الجديد مش م البلد؟!

ورد شفيق بن فرج غاضبا هو الآخر:

- واشمعنى أبوك يا سي مدبولي هو احسن من أبويا في ايه؟؟!!

همس الشيخ صديق في سره:

- انعل أبوك لأبوه

رد مدبولي الصغير وقد احمر وجهه من الغضب:

- انت هتعمل مقام ابوك من مقام الحاج مغاوري

رد شفيق مغتاظا:

- مقام ابويا بمقام عشرة زي مغاوري الجديد

انفجر أولاد مغاوري غضبا، وأمسك مدبولي بخناقه، واندلعت معركة العصي بين أبناء مغاوري وأبناء فرج على أحقية تسمية القرية، وسط غضب وامتعاض العمدة هواري وأهل القرية. اختلط زعيق المتعاركين بصراخ النساء، وبصوت الأغانى الوطنية التي تصدر من راديو عويضة تمجد حركة الضباط الأحرار ونجيب..

غبار المعركة ملأ المكان.. تطلق النساء صرخات كأنها طلقات نارية من أفواههن، تقذف في قلوب الخصوم بالرعب وتزرع الثقة في قلوب من يؤيدونهن.. واتسعت أرض المعركة، وتخلت بعض النساء عن مشاركتهن بالصراخ فقط واشتبكن مع بعضهن.. مازالت المعركة مستمرة.. آثار الدماء على وجوه المتعاركين.. يحاول العمدة هواري فض الاشتباك، ولكن غبار المعركة والصراخ الشديد منع صوته أن يصل إليهم، فوقف فوق جدار عويضة وقال صارخا:

- بس يا جدع انت وهو. هتموتوا بعض.. سيب ياد أنت وهو خناق بعض..

ثم أشار إلى النساء..

- اخدلي يا بت انتِ وهي داتكو سوخنه

لكن دون جدوى، لم يستجب الفريقان للعمدة هواري، ولم يحاول أهل القرية فض الاشتباك، واكتفوا بالمشاهدة، وقال الشيخ صديق:

- ماحدش يحجز يا رجالة.. سيبوهم إلهي يموتوا بعض خلينا نرتاح..

استمرت المعركة حتى غابت الشمس وحل الظلام، وجاء متولي مرتديا

جلبابه، الذي يشبه لباس الدراويش فجأة، وهو يمسك مسبحته، ويتكئ على عصاه ويضرب بها الأرض، ويطلب من الجميع الكف. وقف الفريقان، كما أهل القرية، مستغربين من حضور متولي المفاجىء، فهو لم يترك مقام سيدي عوضين منذ وفاته. ساد الصمت، وبدأ غبار المعركة ينقشع، وتوقف صراخ النساء، ونزلت العصي.. وقف متولي في منتصف ميدان المعركة، وهو ينظر بحزن إلى الجميع، وتمتم بكلمات أغلبها لم يكن مفهوما، ثم قال بصوت عالٍ:

- انتو بتتعاركوا ليه يا أهل البلد؟

رد طرفا النزاع:

- مافيش ياسيدنا

صاح متولي غاضبا:

- ازاى وسيدي عوضين نايم في تربته بيتقلب من الزعل وبعتني اشوف انتم بتتخانقوا ليه

رد أبو شمروخ مرتعدا:

- مدد يا سيدي عوضين.. مدد.. حتى وهو نايم مش ناسينا.. مدد يا سيدي مدد

ارتجف طرفا النزاع، كما ارتجف الموجودون.. قال الشيخ صديق:

- سلامته سيدي عوضين ألف سلامة

ثم قال العمدة هواري مرتجفا:

- مدد يا سيدي عوضين يا مخاوي مدد

أضاف عبدالرحيم الحلاق التى ارتعدت فرائصه:

- حد داس لسيدي عوضين على طرف؟!

واستلم مغاوري الحديث محاولا الثبات، ليخفي رعبه:

- دا البلد عايشة ببركاته.. مدد يا سيدي عوضين مدد

وقال فرج متملقا:

- دا احنا من غيره ولا نسوى

ضرب متولي بعصاه الأرض بقوة، حتى غطى الغبار رؤوس الواقفين المرعوبين، ثم صرخ فيهم:

- سيدي عوضين زعلان

رد الشيخ صديق مرتبكا:

- ليه كفى الله الشر؟

- علشان مغاوري وفرج وعيالهم ماسكين في خناق بعض ومش عاملين حساب لمقامه.. مدد مدد سيدي عوضين مدد

حضر محمد أفندي وبصحبته يوسف، وقد سمعوا حديث متولي عن حزن وغضب عوضين المخاوي، فسخر محمد أفندي منه قائلا:

- طيب وانت ماجبتش سيدك عوضين معاك ليه يا متولي؟

اصفر وجه متولي، بينما تعالى الاستهجان لكلام محمد أفندي.. وضحك يوسف أفندي.. قال عويضة مستنكرا كلام محمد أفندي:

- بتتنأوروا على كلام سيدنا يا افندية؟!

وقال الشيخ صديق مستعطفا:

- سامحهم يا سيدي عوضين دول زي ولادك برضه

وصاح عبدالرحيم غاضبا:

- الجماعة الأفندية دول كل واحد منهم مفكر نفسه نص الدنيا

حاول يوسف أفندي الحديث، لكن الشيخ منعه ومنع محمد أفندي من التورط بأحاديث أخرى، سوف تسبب لهم مزيدا من المشاكل. زعق متولي متوعدا وغاضبا، وقد أنصفه الحاضرون، كما أنصفوا سيدي عوضين.

- عليكم لعنة الأسياد ليوم الدين

قاطعه الشيخ صديق محاولا تغيير الموضوع:

- وايه رأيك تسأل لنا سيدي عوضين نسمي البلد ايه ولا إن كان راضي بالاسم القديم نسيبه

ثم أشار إلى أهل البلد وسألهم:

- ايه رأيكم يا أهل البلد؟

ردوا جميعا:

- عين العقل

صب مغاوري وفرج لعناتهم على الشيخ صديق، لكنهم لم يقووا على رفض هذا الاقتراح، الذي سوف يودي بأحلام كليهما.

استاذن الشيخ صديق العمدة هواري، ليذهبا برفقة تهامي البقال إلى داره، لزيارة ابنه منصور المريض. انصرفوا وانصرف الجمع، منتظرين إجابة متولي. صب العمدة هواري جام غضبه، وقال محدثا نفسه وهو يضرب كفا بكف:

- انعل أبو الثورة لأبو اللي عملوها خلوا ولاد الحافيين يتحكموا في ولاد الأصول

ابتسم الشيخ صديق، بينما ظل وجه تهامي متجهما، ونظر العمدة إليهما، ثم قال مستنكرا:

ـ مغاوري الجديد الحافي اللي كان جاي البلد مفيش في وسطه لباس عامل راسه براسي!!

ضحك الشيخ صديق وقال مجاملا:

ـ هو حد يقدر يا عمدة دا انت نوارة البلد كلها

وصلوا دار تهامي، ودخلوا جميعا إلى المندرة، ثم نادى على منصور ليجلس بجوار العمدة والشيخ. جلسوا صامتين، وبعدما أتعبهم التفكير، سأل العمدة منصور ساخرا:

ـ اومال الشاي فين يا واد يا منصور ولا الشاي بتاعكم عجوز؟!

ارتسمت البسمة على شفاههم، لكنها لم تمكث ثوانٍ.. نادى منصور بصوت جهوري فيه غلظة على زوجته..

ـ الشاي فين يا بت؟

ضحك الشيخ صديق وقال لمنصور ساخرا:

ـ حمش يا واد يا منصور

وقال العمدة:

ـ ايوه كده لازم تكون حمش خصوصا إن مراتك غريبه مش من البلد.. عايزينك ترفع راسنا

طأطأ منصور رأسه، فقال العمدة مستغربا:

ـ ايه يا منصور داهية تكون البت دي ركباك؟.. حاكم نسوان كفر مصيلحي صعبين

سأله الشيخ صديق ضاحكا:

- وايه اللي عرفك يا عمدة؟!

رد العمدة:

- يا سلام يعني ماتعرفش إن أني كنت متجوز من حداهم..

رد الشيخ صديق باسما:

- وطلقتها ليه؟

- قلت انفد بجلدي.. ههه

ضحك الشيخ صديق، بينما ظل تهامي وابنه متجهمان. ودخلت زوجة منصور المندرة منخفضة الهامة، تنظر إلى الأرض، تغطي طرحتها وجهها الشاحب. قدمت الشاي وانصرفت مسرعة، فأغلق منصور باب المندرة، وسأله العمدة هواري مرتابا:

- خير يا بني؟

ابتلع تهامي ريقه بصعوبة، وقال متلعثما بصوت متحشرج

- نسايب الواد ده جايين النهارده

رد العمدة متعجبا:

- يا ألف أهلا وايه المشكلة؟!

رد الشيخ صديق وعلى وجهه الخجل:

- البت..

لم يكمل الشيخ صديق حديثه، إذ طرق الباب ودخل الضيوف المندرة. صافحوا العمدة والشيخ صديق، وعلى وجوههم علامات الحزن. ساد الصمت أجواء المندرة، ولم يعد يسمع غير صوت سعال الموجودين، فقطع

العمدة الصمت وقال مرحبا:

- نورتم عزبة الباشا يا رجالة؟

رد أحدهم بصوت فيه بعض من الشدة:

- ده نورك

بادر الشيخ صديق بالسؤال:

- خير يا رجالة؟

قال أكبرهم سنا، وقد احمر وجهه خجلا:

- عايزين ناخد بنتنا معانا

- ليه بس كفى الله الشر؟!

سعل الرجل، وبدا على وجهه الحرج الشديد، ثم سأل:

- بنتنا عندكم متجوزة بقالها قد ايه؟

رد الشيخ صديق:

- من عامناويل

انفجر الرجل غضبا، وقال بصوت يحاول فيه أن يتكتم غضبه:

- يرضيك بنتنا لسه بنت بنوت؟!

احمر وجه العمدة والشيخ صديق من الخجل، ثم وجه العمدة حديثه إلى منصور سائلا:

- الكلام ده بجد يا منصور؟

رد منصور متحديا بصوت خشن:

- قطع لسان اللي يقول كده يا حضرة العمدة

صاح تهامي غاضبا:

- ابني راجل وسيد الرجالة يا حضرة العمدة..

ثم وجه حديثه لمنصور..

- مش كده يا وله؟

رد منصور متحمسا:

- ايوه يا ابا..

تطلع العمدة والشيخ في أعين الضيوف الناظرة إلى الأرض، ماعدا كبيرهم، الذي قال غاضبا هو الآخر:

- يعنى بنتي هتفتري عليك يا منصور؟

ثم وجه حديثه للعمدة والشيخ صديق قائلا:

- اني بنتي لما جاتلي زيارة حكت لامها أنه مابيهوبش ناحيتها من يوم ماالتجوزها

زادت علامات الحرج على وجه العمدة والشيخ، وطأطأ تهامي رأسه خجلا، وقاوم منصور وصرخ متحديا:

- محصلشي دا أني أنام معاها ومع أبوها كمان

هز الرجل رأسه وقال ممتعضا:

- مالكش دعوة با ابوها.. بس انت اتشطر واقدرها!!

قال العمدة هواري وهو يحاول إخفاء ضحكاته:

- قالوا الجمل طلع ع النخلة.. قالوا ادي الجمل وادي الجمال

اصفر وجه منصور فجأة، فأكمل العمدة حديثه:

ـ احنا ندخل واحدة من قرايب البت معاها اوضتها ونشوف مين الصادق ومين الكداب

رد منصور وهو يسعل:

ـ بس اني لسه جاي من الغيط.....

رد الشيخ صديق مقاطعا:

ـ مابسش يا منصور يالا ادخل على مراتك واحنا مستنيين هنا في المندرة

رد أبوها:

ـ احنا موافقين يا حضرة العمدة

ثم نادى على أمها لتدخل معها، فاستأذن منصور ليذهب هو الآخر إلى ميدان القتال، فهمس العمدة في أذنه:

ـ خلي بالك ماتمرمطش سمعة بلدنا في التراب.. اني لسه عاوز اتجوز من حداهم.

دخل منصور وتبعته زوجته، من خلفهما الحكم (حماته).. انتظر العمدة والشيخ والضيوف وتهامي في المندرة.. واكتفى تهامي بالدعاء، بينما فتح العمدة موضوع أرض الإصلاح الزراعي، فقال أحدهم وعلى وجهه السعادة:

ـ ربنا يعمر بيته نجيب ورجالته

امتعض العمدة هواري من حديث الرجل، لكن الرجل واصل حديثه بحماس مفرط، وكأنه نسي ماجاء من أجله.

ـ بقالنا كرامة يا حضرة العمدة.. الله يلعنه مطرح ماراح فاروق ابن نازلي

غمغم العمدة في سره:

- والله بهايم ما انتوا فاهمين.. مشي ملك وبقى عندنا حداشر ملك كلهم ولاد ناس جعانة..

ثم قال بصوت عالٍ، وهو يشير ناحية تهامي قاصدا تغيير الموضوع:

- استعوق منصور شوفه اتأخر ليه؟

رد تهامي مرتبكا:

- شوية كده يا عمدة هو لسه لحق يعمل حاجة

ضحك العمدة وقال ساخرا:

- لسه ايه؟!.. داني كان زماني... هقول ايه رجالة اخر زمن..

ثم قال وهو يلوح بيديه..

- رجالة زمن نجيب!!

زاد قلق تهامي، وزادت دقات قلبه كلما تأخر الوقت. مر أكثر من ساعتين، ولم يلوح منصور برايات النصر ليرفع أبوه والعمدة والشيخ رؤوسهم عالية أمام الضيوف.. انتظروا، وساد الصمت ثانية، حتى سمع صوت صراخ حماة منصور يخترق آذانهم فصعقهم.. كانت تصرخ في منصور قائلة:

- طلق بنتي.. طلق بنتي.. لما انت مالكش في النسوان بتتجوز ليه؟

طأطأ العمدة والشيخ وتهامي رؤوسهم، وتمتم العمدة هواري:

- الله يخرب بيتك فضحت البلد.. وضيعت عليه جوازة

قال الشيخ صديق مطاطأ الرأس، كأنه أحد جنود هتلر المهزومين في معركه العلمين:

- خلاص يا جدعان زي ما دخلتو بالمعروف تخرجوا بالمعروف

رد تهامي مستسلما:

- اللى تشوفوه..

- البت تاخد عزالها وتروح مع أهلها يا تهامي

أومأ تهامي برأسه مستسلما، وعلى وجهه الحزن. قال العمدة:

- الجماعه ياخدوا بنتهم الوقتي.. الليل ستار علشان ماحدش يحس بحاجة.. وكمان ماحدش يجيب سيرة

رد الضيف:

- احنا ناس تعرف في الأصول يا حضرة العمدة.. وسر منصور في بير

خرج الشيخ بصحبته العمدة، يشقان ظلام الليل بعصيهم، ويتندران على الشباب هذه الأيام وما حدث لهم، متواعدين على أن يدفن سر منصور في صدورهم، ولا يصل إلى ألسنتهم.

وقف أهل القرية على شط الترعة يتندرون على المياه أيام الباشا، ويشتكون شحها في الترعة، واستيلاء كفر مصيلحى عليها بإقامة سدود في الترعة.. اقترح عويضة أن يذهب العمدة إلى نظيره في كفر مصيلحى، ويعرض عليه أمر المياه وموت الزروع.. رفض العمدة اقتراحه، وقال وهو يهز كتفيه

- ماليش دعوة يا مُلاك.. اللي هيسرى على الناس هيسري عليّ!!

رد أبو شمروخ غاضبا:

- اهي اومال عمدة ازاى ياولاد.. بقى خايف توصل لحد كفر مصيلحي؟

انفجر العمدة هواري، وانطلق وابل من السباب من فيه، كأنها قذائف تطلقها مدافع تشرشل:

- اتلم وخلي عندك أدب يابن أبو شمروخ والله طلع لك صوت

رد أبو سنة مندفعا بحماس:

- ايوه طلع لنا صوت يا حضرة العمدة.. احنا خلاص بقينا في عصر الأحرار

رد العمدة بلهجة يختلط فيها الامتعاض بالسخرية:

- أحرار.. طيب يا بن شرشيرة

قاطعهم عليوة حزينا:

- يعني هنسيب الزرع يموت ياناس!!

رد العمدة هواري:

- واني مالي

قال عبدالرحيم بلهجة حزينة يائسة:

- الله يرحم الباشا.. كانت الأرض ملكه.. بس كنا بنلاقي ميه وكنا عايشين

انفعل أبو سنة، وقال غاضبا موجها حديثه لعبدالرحيم:

- داهية تاخده وتاخد ايامه.. دا احنا لو هنموت من الجوع برضه احسن من ايامه.. بس هنعمل ايه عالم تموت في الذل!

ساد الحزن، وبدأ اليأس يأكل ماتبقى من أمل في إنقاذ الزروع، وارتخت السواعد وسقطت الفئوس على الأرض، وتدلت الرؤوس كأن عليها الطير. حتى حضر متولي بلباسه ومسبحته وشعره الطويل الأشعث، وقال مبتسما:

- سيدي عوضين راضي عنكم

رد الجميع، وقد عادت إليهم الروح، كما لو عادت إلى الزرع العطشان بعد

ريه، وبدأت أساريرهم في الانفراج:

- الحمد لله

ثم قال مغاوري الجديد من فوق ظهر حماره الأبيض الطويل، الذي يشبه الحصان العربي الأصيل:

- ياما انت كريم يارب.. اني قلت كده

ثم قال عبدالرحيم:

- على قولك.. اني قولت ابويا عوضين بيحبنا..

ثم ضحك وقال مازحا:

- داني حتى كنت بحلق له ببلاش

احمر وجه متولي غضبا، وقال وهو يكز على شفته السفلى وظهر سواد أسنانه:

- ابويا ايه يا حلاق الغبرة انت

حاول الشيخ صديق تهدئته وقال:

- اختشي يا عويضة وخلي معاك أدب.. أوليا الله الصالحين مابنقولش لهم يابا دول اسيادنا

عاد الهدوء إلى وجه متولي، وقال بصوت متزن:

- خلينا في موضوعنا.. أني كلمت سيدي على موضوع اسم البلد وطلع كان قرفان من الباشا وظلمه للعالم

ثم ابتسم وقال بصوت خفيض:

- أقول لكم على سر؟

ردوا جميعا:

- قول يا شيخ متولي

خفض الشيخ متولي صوته أكثر، وقال وهو يتوسطهم ويطالبهم بيده أن يقتربوا منه:

- سيدي عوضين هو اللي خلا فاروق ابن نازلي يهج ويسيب البلد والظباط الأحرار كلهم عارفين كده وأولهم محمد نجيب بس ماتجيبوش سيرة لحد

ردوا جميعا:

- مدد يا سيدي عوضين مدد

ابتسم الشيخ متولي، وبدا سعيد وقال:

- أومال ايه... محمد نجيب والجماعة اللي معاه كانوا يوماتي عند سيدي عوضين

هلل الحاضرين وزادت صيحاتهم:

- مدد يا سيدي عوضين مدد.. يا نصير الغلابة مدد.. يا حبيب الفقرا مدد.. يارفع راس بلدنا في العلالي مدد

انفرجت أسارير مغاوري وفرج، ثم قال مغاوري مستعجلا الإجابة:

- يعني قالك نغيره؟

رد الشيخ متولي بسرعة:

- ايوه

ابتسم مغاوري وقال مزهوا، وهو يهندم جلبابه الصوف:

- على بركه الله.. اني جالي ناس لحد البيت وقالولي انهم عايزين يسموا البلد باسمي علشان قال ايه شايفني كبير البلد

رد فرج غاضبا:

- مين قلالات الدم دول.. أني اللي كبير البلد.. مش صح يابلد؟؟

رد مغاوري الجديد:

- رجالة البلد كلها يا سي فرج

زاد غضب فرج وقال:

- رجالة بلد ايه يا سي مغاوري.. هو انت تعرف رجالة برضه.. دى زمانها بهانة

استشاط مغاوري غضبا، وصاح ومحاولا الاعتداء على فرج المتحفز هو الآخر:

- انت بتقول ايه ابن ستين كلب

رد فرج محاولا الخروج من مأزق وضع نفسه:

- اني مقولتش حاجة.. البلد كلها عارفة

نظر مغاوري في أعين أبنائه، وأعين الحاضرين، وبدا على وجهه الحرج. ثم قال موجها حديثه للحاضرين:

- اشهدوا يا رجالة البلد شوفوا ابن ستين كلب خدام الباشا بيقول ايه؟

رد فرج غاضبا:

- اني اللي خدام الباشا يا بن المطاريد!؟

حدث العمدة نفسه ساخرا وقد سمعه من حوله:

- لا اني اللي كنت بخدم الباشا!!

رفعت الفئوس، وشرع أبناء فرج ومغاوري في الاستعداد لمعركة جديدة، ساحتها شط الترعة، وغايتها اسم البلد، وسط امتعاض الجمهور، وحزن وأسى العمدة هواري على حال البلد. لكن متولي الصامت الهادئ، الذي تابع الحديث أمر بصوت فيه حكمة فيلسوف إغريقي قديم وشدة قائد عسكري في جيش هتلر:

- نزل المساحي يا جدع انت وهو

استجاب الفريقان، وهدأ المكان، وصمتوا ليسمعوا متولي.. وقف في المنتصف، وقال ممسكا مسبحته وهو ينظر إلى أعلى، ويقاطع كلامه تسبيحه:

- سيدي عوضين موافق

رد الجميع بصوت متلهف لإجابة:

- موافق على ايه؟

- تسموا البلد باسمه

رد عبدالرحيم:

- والله عين العقل احنا هنلاقي احسن من سيدنا

ثم قال الشيخ صديق:

- طب والله صح.. دي كانت غايبة عن بالنا ازاي تبقى بلدنا اسمها سيدي عوضين

نزلت كلمات متولي على قلب مغاوري وفرج كالصاعقة، وخاصة مغاوري الذي يملأ قلبه الغل من أهل عزبة الباشا.. يتذكر كيف عامله أهلها حين أتاهم صغيرا.. كانوا يرسلونه إلى السخرة طوال العام، ويتركونه يبيت في العراء دون

مأوى ولا ملجأ يعصمه من حرارة الصيف ولا برد الشتاء القارص.. ربما المبيت في الحقول يلتحف السماء الممطرة حتى دخل البرد بين أضلعه ليلج إلى قلبه فأصبح باردا لايشعر بأحد.. كما علمه قيظ الصيف الشديد القسوة.. إلى الآن يحلم بتلك الأيام السوداء، وينظر في أعين أبنائه فيخشى أن يتعرضوا لما تعرض له، فمازال أهل القرية يطلقون عليه الجديد.

* * *

إذًا أصبحت عزبة الباشا تيسير عزبةسيدي عوضين. طلب أهل القرية من متولي أن يطلب من زوجته الجنية أن تفتح لهم سدود الترعة التي أقامها كفر مصيلحي.. استشاط مغاوري غاضبا وقال:

- لما تبقوا نسوان وتلبسوا طرح تبقوا تطلبوا من الجنية

رد أبو شمروخ ممتعضا:

- احنا هنعمل ايه يعني؟

رد عليوة:

- الزرع بيموت ماقدمناش حد نستنجد بيه الا الست الجنية

ظل متولي صامتا يقلب الأمر، ثم قال وهو يهم بالرحيل:

- خلاص اني هكلمها الليلادي

رفع الشيخ صديق كفيه ودعا:

- ربنا يعمر بيتك..

ثم استدار ناحية الفلاحين، بعدما غادر مغاوري وفرج منكسي الرؤوس، وهمس قائلا:

- ماحدش يهوب ناحية كفر مصيلحي دلوقتي

رد مدبولي الصغير متحديا بصدر عار، يظهر شعره الكثيف:

- ليه يا ابا الشيخ داني اروح والراجل يدوس لي على طرف

ثم قال شفيق ابن فرج ضاحكا:

- ليه داني البس طرحة لو حد هوب لنا

صاح عويضة:

- اهي ماعدتش إلا كفر مصيلحي كمان.. دي حتى مافيهاش راجل

ضحك الشيخ صديق، وانتصرت الابتسامة على الحزن الكائن على وجه العمدة، الذي قال:

- بلاش موضوع الرجولة دية يا واد يا عويضة دلوقتي

رد عويضة وهو يهز كتفيه مستغربا ومستنكرا:

- ليه بقى؟

- كده اهو وخلاص

رد مدبولي الصغير:

- ليه يا ابا الشيخ دا احنا بلدنا كلها رجالة

رد العمدة ساخرا:

- الرجالة ماتت مع زعيم الأمة سعد باشا الله يرحمه

نظر عبدالرحيم في عينيْ الشيخ صديق، وسأل مرتابا:

- خير يا مولانا؟

رد الشيخ صديق ضاحكا:

- خير ياحلاق الغبرة

رد عبدالرحيم:

- انت مداري عننا حاجة

- حاجة ايه؟

- اني عارفك اقطع دراعي

- مافيش... مش عايز اتكلم

تعالت الصيحات:

- قول يا شيخ في ايه

رد الشيخ صديق مبتسما:

- لا اني مش هتكلم دي أعراض ناس.. يا عالم

رد عبدالرحيم الحلاق:

- قول يا مولانا هي في حاجة في بلدنا بتستخبى

رد الشيخ صديق بلهجة من اضطر:

- مافيش.. الواد منصور ابن تهامي

- منصور ماله؟ دا حتى هو واخد من هناك

خفض العمدة صديق صوته، وطلب منهم أن يلتفوا من حوله حتى لا تسمعه النساء اللائي يعملن في الحقل، ثم قال وهو يهز يديه ويتلفت على الترعة:

- المنيل طلع مالهوش في النسوان

رد أبو شمروخ:

- يا وقعة سوخة ازاي ديه؟

- اهو ديه اللي حصل.. سامحني يارب ماكنتش عايز اتكلم.. الواد متجوز من عامناويل ومراته لسه بنت بنوت

رد أبو شمروخ:

- ازاي وهو طول السنة السودة وعليه جسم يعرش على زريبة؟

رد العمدة:

- رجالة آخر زمن.. زمن نجيب والولاد اللي معاه!!

قال عبدالرحيم ساخرا، وهو يضرب صدره بقوة:

- الله يرحمك يا رجولة!!

قال مدبولي الصغير:

- يا فضيحة عزبة الباشا قدام كفر مصيلحي.. هيقولوا علينا ايه؟؟ بعتنا لكم عروسة سنة ونص ورجعت زي ما هي بشوكها

وكزه الشيخ صديق وقال:

- اسمها عزبة سيدي عوضين.. انسوا الباشا ديه خلاص

تسرب الحديث إلى أذن ست الدار، العائدة من دارها تحمل فوق رأسها زلعة الماء الكبيرة لتسقي النساء في الحقل.. لاحظ العمدة هواري تباطؤ خطواتها وهي تمر أمامهم وتلقي بأذنها لتسمع مايدور بين المجتمعين عند الترعة، فصاح فيها الشيخ غاضبا:

- امشي يا بت دتك مشش في ركبك

ردت ست الدار مستنكرة..

- اهي.. يعني اطير يعني ولا اطير

وصلت ست الدار إلى النساء في حقل الذرة ينقين الغلت. كن يسمعن وهيبة تنشد بصوتها العذب، الذي يذكرهن بصوت ليلى بنت عبدالتواب الطيب. صاحت فيهن بشيء من الخجل وكثير من الإثارة..

- واحدة تحططني

ردت فردوس التى تجلس على مصطبة الذرة:

- دتك حطيط يا ست الدار.. ايه ياختي مش عارفة تنزلي الزلعة من على راسك

أنزلت عديلة زلعة الماء من فوق رأسها، لكن ست الدار تحمل سرا سوف يساعد النسوة على إنهاء يومهم الشاق دون أن يدرين. طلبت منهن أن يبعدن الأطفال والبنات الصغيرات، حتى تدلي لهن بخبر، سوف يكفي نميمتهن موسم تنقية الأرز كله. أبعدن الأطفال والبنات متلهفات، فتمهلت ست الدار.. اشتعل لديهن الفضول، ثم قالت مبتسمة وهي تحرك فمها الواسع يمينا ويسارا، وتتبع حركة فمها يدها يمينا ويسارا:

- مادريتوش بالخيبة القوية؟

ردت النساء بصوت منخفض ملهوف:

- ايه يا مقصوفة الرقبة؟

- الجدع ابن تهامي البقال

بنفس الهمس، ولكن بلهفة مشتعلة أكثر، سألت النسوة:

- ماله؟

- يادي الكسوف. مش غادري اتكلم

ردت فردوس بصوت متقطع لشدة اشتعال فضولها، بسبب كلمة كسوف التي أطلقتها ست الدار:

- قولي يا ست الدار سرك في بير يا اختي

قالت بهانة:

- اني من عوايدي اشتري من الواحدة ومابعش لحد تاني.. قولي

ضحكت عديلة وضربت ست الدار على صدرها..

- قولي يا مفضوحة

ردت ست الدار مصطنعة الخجل:

- دلوقتي واني معدية، عرفت أن الجدع مالوش

كررتها إحداهن:

- مالوش في ايه؟

ردت ست الدار ضاحكة وهي تضرب بيدها على صدرها

- اني عارفة يا اختي

ردت فردوس وهى تخبط على صدرها بقوة، حتى اهتز:

- يادى الوكسة..

ثم وضعت يدها حول ذقنها وقالت:

- اسكتي يا بت ماتقوليش كده!

ردت ناعسة:

- ازاي يا ختي دا منصور جدع طول وعرض

قالت ست الدار ضاحكة:

- علشان كده البت الغريبة مراته وشها كان على طول مصفر

ردت فردوس بنبرة تشفي:

- يستاهل ده وجيعة رايح يجيب غريبة وسايب صبايا البلد

ردت عديلة:

- يادي الكسوف ديه فضيحة.. سنة ونص ماقربش ليها!

ردت فردوس:

- انتِ فاكرة ايه دول رجالة آخر زمن..

ثم قالت وكأنها تتذكر..

- الله يرحم زمان والنبي ما كان بيقوم من غير مايعمل خمس مرات

ردت ناعسة ساخرة:

- علشان كده نفد بجلده وهج!!

ردت فردوس غاضبة، وكأن ناعسة وضعت ملح على الجرح:

- يهرب ده مين يا اختي؟ لاهو اني زيك يا بلاص المش المدود

فجأه لمحت ست الدار منصور يمتطي حماره الأسود مطأطىء الرأس، فطلبت منهن الكف عن الحديث، حتى لا يصله. واستجابت النسوة لست الدار، حتى إذا مر بحماره أمامهن، انطلقت ضحكاتهن الخليعة الساخرة، فاحمر وجهه وضرب الحمار بعصاه على مؤخرته ليسرع، وكل منهن تحاول أن

تلكز الأخرى في جانبها لتنهاها عن الضحك، بالرغم من فشلها نفسها في كتم ضحكتها.

* * *

بجوار ساقية مدبولي، وتحت شجرة الجميز على شاطئ الترعة القبلية وسط الزروع، اجتمع الأفندية مع أهل القرية، لمحاولة فهم تلك الأخبار الواردة من العاصمة، عن إبعاد محمد نجيب. هم لا يعرفون غيره، وقد أحبوه لسمعته وما كانوا يسمعونه عنه في الإذاعة، فهو دائم الاستماع للمظلومين. اضطربت أفكارهم، وأصابهم القلق على مستقبل كانوا يرون حاضره حلما أيام الباشا وتحقق، ولكنه قد يصبح سرابا. الإشاعات المنتشرة في القرية تقول إن الضباط الأحرار انقلبوا على نجيب، لأنه يساند الفلاحين. وأن هؤلاء الضباط سوف يعيدون الباشا إلى الأرض. كان الحزن يكسو الوجوه، والأسى واضح في تجاعيد الشقاء على الأوجه الكادحة، التي فنت صحتها في خدمة الباشا. صارت وجوههم في الأرض، أيديهم على رؤوسهم، كأنهم أسرى حرب. أي حياة تنتظرهم؟.. هل يردون إلى سيرتهم الأولى؟.. لقد ذاقوا طعم الحرية، واستنشقوا هواء الكرامة والعزة.. كانوا صامتين غارقين في بحر المجهول.

وبعكس تلك الحالة اليائسة، التي تشبه وقت غروب الشمس في القرية في يوم من أيام الشتاء الماطر، كان محمد أفندي يبدي ابتسامة اثارت استياء أهل القرية واستغرابهم. سأله أبو شمروخ غاضبا:

- جرى ايه يا محمد أفندي انت بتتمسخر علينا ولا انت مش حاسس باللي احنا فيه؟!

رد محمد أفندي مبتسما:

- اني لا كنت ولا هكون لما اتمسخر على أهل بلدي

- اومال انت منشكح ليه كده؟

رد محمد أفندي، وهو يشير بيديه، وكأنه يشرح درسا لتلاميذ في مدرسة:

- لازم تعرفوا أن القائد الحقيقي للثورة جمال عبدالناصر مش محمد نجيب..

استغرب الحاضرون، بينما ظل يوسف أفندي صامتا، والصدمة ظاهرة على وجهه. عاود محمد أفندي حديثه:

- يعنى نجيب كان صورة.. انما عبدالناصر فهو البطل.. اني قابلته ايام حرب فلسطين واعرف انه مخلص وكمان على ايده أن شاء الله هنعيد الخلافة من جديد

بدا على الحاضرين الاستغراب من كلام الأفندي، وقال عبدالرحيم الحلاق:

- خلافة ايه دي يا محمد أفندي؟!

رد محمد أفندي بابتسامته الهادئة:

- مش انتوا كلكو بتحبوا النبي والصحابة؟

ارتفعت الأصوات:

- وعليه الصلاة والسلام.. بس مال اللى احنا فيه بالنبى والصحابة؟!

رد محمد أفندي مبتسما، وعلى وجه تبدو الثقة:

- عبدالناصر هيرجع الخلافة من جديد وهنعيش زي أيام الصحابة

رد عويضة:

- بس ايام الصحابة مكنش فيه راديو.. يعني عايزني ابيع الراديو يا محمد أفندي؟

ضحك محمد أفندي، ونظر ناحية يوسف أفندي، الذي زاد حنقه وغضبه، ثم قال:

- اني بقول إن ناصر هيرجعنا لأيام الصحابة علشان يسود العدل والرخاء

رد أبو شمروخ:

- يعني ناصر بتاعك ديه مش هياخد أرضنا تاني؟

رد محمد أفندي:

- ناصر بتاعي هو اللي عطاكم الأرض من الأساس

رد أبو سنة، وهو ينهض وينفض التراب عن جلبابه:

- يبقى كده الحمد لله قوموا يا رجالة شوفوا مصالحكم الأفندي طمنا خلاص

ثم قال عبدالرحيم:

- على رأيك أني اللي يتجوز امي اقول له يا عمي

نهض الجميع وهموا بالانصراف، فصرخ فيهم يوسف أفندي وقال غاضبا طالبا منهم الجلوس ثانية..

- النهارده يوم حزين على مصر كلها

عاد القلق إلى قلوب الفلاحين وجلسوا. سأله الشيخ صديق:

- ليه كفى الله الشر يابني؟

رد يوسف أفندي بصوت يملؤه الحزن:

- ضباط الجيش انقلبوا على نجيب علشان عايز يرجعهم تاني لثكناتهم،

وطبعا البهوات مش عايزين يرجعوا علشان يفضلوا متبتين في السلطة ولا هم عايزين أحزاب ولا عايزين ديمقراطية وكله بمساعدة قوى الرجعية

رد عبدالرحيم الحلاق صائحا:

- حرام عليك يا يوسف أفندي انت عايز بلدنا تبقى البتاعة اللي انت قلت عليها دي دامقراطية.. انت عايزنا نبقى كفرة على آخر الزمن

بهت يوسف أفندي من رد عبدالرحيم المفاجىء، وسأله بعدما استوعب صدمة المفاجأة:

- مين قال لك كده؟

أشار عبدالرحيم ناحية محمد أفندي وقال:

- اسأل محمد أفندي حتى

وضع محمد أفندي رأسه في الأرض، وعاود يوسف حديثه:

- الديمقراطيه يعني حكم الشعب للشعب.. يعني اني وانت واهل البلد نقدر ننتخب اللي يحكمنا ولو معجبناش نقدر نشيله

رد أبو شمروخ:

- والله كلامك عين العقل

ولكن الشيخ صديق تضامن مع محمد أفندي وقال ساخرا:

- كده مش هيبقى حاكم ده هيبقى أراجوز!

ضحك الجميع، وقال الشيخ صديق وهو يهم مسرعا بالنهوض:

- مش جايين تشوفوا العمدة؟

رد يوسف أفندي:

- ماله؟

- بعافية شوية.. العضمة كبرت

رد عبدالرحيم ساخرا:

- يبقى يلم نفسه ديه ماصبرش مراته الرابعة ماتت من هنا وبعدها جري على كفر مصيلحي

ضحك أبو شمروخ وهو يتطلع ناحية منصور ابن تهامي..

- نسوان كفر مصيلحي شداد وجرشين حتى اسألوا منصور؟

وضع منصور رأسه في الأرض، وسعل متظاهرا بعدم سماع حديث أبو شمروخ، فرد عبدالرحيم:

- على قولك دي البت بركته وشكلها هتجيب خبره قريب

ذهب الشيخ وبصحبته بعض من أهل القرية، بعدما تسرب الآخرون إلى زراعاتهم. وجدوه طريح الفراش شاحب الوجه، عيناه غائرتين. وبصوت تظهر فيه شدة التعب، رحب العمدة هواري بالضيوف وطلب منهم الجلوس. ساد الحزن على الوجوه، حزنا لرجل يغضبون منه أحيانا، ويشتكون له أحيانا، لكنهم لم يفقدوا أبدا حبهم له. لم يقطع الصمت إلا صوته يمزح:

- مش ناوي يا شيخ صديق؟

رد الشيخ صديق وعيناه الممتلئتان بالدموع تنظر إلى الأرض:

- ناوي على ايه يا حضره العمدة؟

- تتجوز يا راجل ولا انت خايف من بنتك؟

رد عبدالرحيم الحلاق ضاحكا:

- مايقدرش يا حضرة العمدة

حاول العمدة استجلاب ضحكة يطمئن بها ضيوفه، لكن غلبته الآلام

قال محمد أفندي:

- سلامتك يا عمدة

رد العمدة بصعوبة مازحا:

- ادي اللي خدناه من نجيب وعبدالناصر يا افندية كان ماله فاروق

ضحكوا وهموا بالانصراف، حتى إذا وصلوا إلى ديارهم، انطلق صراخ النساء من بيت العمدة، وعادوا إلى داره ثانية.. انهالت زوجات العمدة بالشباشب على زوجته الجديدة، متهمين إياها أنها السبب في وفاة العمدة هواري.. حاول الشيخ صديق إنقاذها، لكنه فشل.

أقيمت مراسم الجنائز المعتادة في القرية، ودفن العمدة هواري، ودفنت معه بعض الذكريات الجميلة لأهل القرية.. وبعد عودتهم، تندروا على أيامه ونكاته ومزاحه معهم، وضحكاته التي تشبه ضحكات الأطفال، ثم دعوا له بالرحمة.

أحيا موت العمدة هواري أملا قديما جديدا لدى مغاوري الجديد، وربما فرج أيضا..

* * *

التف أهل القرية أمام راديوعويضة، يستمعون إلى خطاب عبدالناصر.. أحبوه.. وصاروا لا يفوتهم خطابا له.. ينصتون لخطاباته، ويدعو له الشيخ صديق عقب كل صلاة، كما فعل من قبل مع سابقيه، فاروق ونجيب.. صوت

عبدالناصر حماسي وملهب لمشاعر الوطنية التي أيقظها.. يسمعون مديح محمد أفندي له، ولكن تلك الصورة الجميلة تلوثها كلمات يوسف أفندي المنتقدة. هذه الانتقادات مثل ذرات من التراب تلقى في بحر لن تعكره. حبهم لناصر جعلهم يتحملون سخافات عويضة وأوامره التي لا تنتهي. فهو يطالبهم بالصمت، وعدم اصطحاب الأطفال، وإلا سيغلق المذياع.

اليوم هو عيد الجلاء.. سوف يحتفل به ناصر في الأسكندرية. بدأت كلمة جمال، لكنه ما يلبث أن يبدأ حتى توقفه أصوات تبدو لآلاف.. الشعب يقاطع الرئيس بهتافات مؤيدة له. يستمع أهل القرية للخطاب، ولا يقاطعهم غير نباح الكلاب ونقيق الضفادع وعويل الذئاب.. يجلس في الأمام طفل صغير لا يصدر عنه إزعاجا مثل أقرانه، الذين يلهون بعيدا.. يخطب عبدالناصر عن الحرية والكرامة، حتى الهبت مشاعر أهل القرية، فهتف شريف، ذلك الطفل الصغير:

- احنا وراك يا جمال..

ثم رددها ثانية.. ثم رددها ثالثة.. حتى قام الفلاحون يرددون خلفه "احنا وراك يا جمال" يصيحون ودماء الوطنية تغلي في عروقهم، يريدون معرفة من أراد قتل ناصر.. سمع الأفندية خطاب ناصر، وظلوا صامتين. الحزن يضرب وجه يوسف، والحيرة والقلق والاضطراب على وجه محمد أفندي.. أثار منظر محمد أفندي الريبة فيهم.. يعهدونه مدافعا صلدا ومحبا لناصر. سأله أبو شمروخ:

- ايه يا محمد أفندي مالك شايل طاجن ستك ليه.. هو انت مش فرحان زينا؟

تابع عبدالرحيم مبتسما:

- ايوه لازم نفرح احنا في عهد عبدالناصر يابا

حاول محمد الرد، ولكن فرحة الفلاحين العارمة وهتافاتهم التي أخرجت النساء من بيوتهن والأطفال ليهتفوا معهم لناصر.. (يا جمال يا مثال الوطنية.. أجمل أعيادنا القومية... برياستك للجمهورية).. (يا جمال يا حبيب الملايين يا جمال ماشيين في طريقك ماشيين يا جمال، للخير رايحين للنور طالعين وياك يا حبيب الملايين)

اصطحب محمد أفندي يوسف أفندي، وتمشيا صامتين، كل منهما لا يعرف كيف يبدأ بالحديث.. حتى صاح محمد أفندي فجأة:

- دى مسرحية والله مسرحية من الديكتاتور..

ظل يوسف صامتا.. فعاود محمد حديثه، وكأنه يلح على يوسف ليصدقه..

- عبدالناصر ظالم مستبد عايز يستحوذ على كل شيء.. يؤسس لدولة الإله الحاكم الفرد الأحد الذي لا يسئل عما يفعل..

ظل محمد أفندي يتحدث، حتى صرخ في وجهه يوسف مطالبا إياه بالصمت، ثم قال بلهجة اليائس المعاتب:

- دلوقتي بس عبدالناصر ديكتاتور؟.. النهارده بس عرفتو انه ضد الديمقراطية؟!!

رد محمد أفندي بصوت منخفض منكسر:

- خدعنا

صاح يوسف:

- خدعكم ولا رجع في العهد.. مش ناصر اللي هيرجع الخلافة؟! للأسف موقفكم من الثورة ومساندتكم ناصر وخذلانكم الأحزاب السياسية ومحمد نجيب دمرتنا ودمرت البلد وادخلتها في نفق مظلم لا يعلم متى سنعبر ذلك النفق سوى الله

رد محمد أفندي غاضبا:

- هو الفشل مالهوش غير أب واحد؟ عايزين تعلقوا كل إخفاقات الوطن على شماعة الإخوان، المظلومة أيام الملك والوقتي.. الإنصاف يرحمكم الله

رد يوسف أفندي متنهدا، وفي حلقه مرارة:

- مين وقف مع الملك والانجليز غيركم أيام مظاهرات الطلبة؟ مين وقف مع صدقي وقال واكتب في الكتاب إسماعيلا؟ مين قال إذا كان الشعب مع الوفد فإن الله مع الملك؟ مين وافق الضباط الأحرار على قرار إعدام خميس والبقري؟ مين عمل مظاهرات ضدنا في الجامعات ومارس العنف ضد معارضي عبدالناصر؟ أقول لك ايه ولا ايه

ازداد امتعاض محمد أفندي، واحمر وجهه غضبا، وقال بصوت اخترق ظلمة ليل القرية:

- اخرس يا كافر

بهت يوسف أفندي، وعلت الصدمة وجهه، الذي ظل معلقا ناحية محمد أفندي. شعر محمد بالخجل، نظر إلى الأرض بعينيه الممتلئتين بالحزن لما قاله لصديق عمره.. أصابت الصدمه يوسف أفندي بالخرس، وحاول محمد أفندى تقبيل رأس صديقه، الذي اغرورقت عيناه بالدمع، وأسرع مهرولا إلى داره دون حديث. وهو يحاول إبعاد محمد عنه بيديه، حتى وصل إلى داره وأغلق بابه..

* * *

طُرق باب يوسف بعنف حتى كاد يتهشم، ففتح مسرعا، وجد ضابط واثنين من العساكر. صاح فيه الضابط غاضبا:

- تعالى معانا يا عدو الوطن

رد يوسف أفندي غاضبا:

- اني مش عدو الوطن.. انتم أعداء الوطن

ضحك الضابط، ووجه حديثه للعساكر ساخرا:

- هاتوا ابن الكلب ده علشان نعلمه الوطنية

رد يوسف وقد زاد غضبه:

- اني مش ابن كلب.. اني ابن الثورة

رد الضابط ساخرا:

- هاتوا ابن الثوره..

استجاب العسكريان لأوامر الضابط، وعلى وجهيهما الغضب الشديد من يوسف أفندي. قيداه واقتداه خارج داره، تودعه دموع وصراخ زوجته، ليرى بعدها محمد أفندي هو الآخر مقيدا بالسلاسل والعساكر تسبه. ابتسم محمد أفندي وبادله يوسف الابتسام، واقتادهم الضابط والعساكر إلى قسم الشرطة، مودعين كالعادة بصراخ النساء واستجداء الرجال للضابط، فهما لم يقترفا ذنبا. أمر الضابط الجنود بسحل المتهمين الخائنين، وجرهما خلف الجمال، حتى يكونا عبرة للقرية، فانهال الجنود عليهما بالضرب والسباب، وبصقا عليهما وصاحا فيهما غاضبين:

- بقى انتو عايزين تقتلوا عبدالناصر يا كلاب يا ولاد الكلب..

حاول الشيخ صديق تبرئة الأفندية..

- والله يا حضرة الظابط دول كانوا قاعدين معانا بيسمعوا خطاب الرئيس ومبسوطين

ثم أشار إلى أهل القرية، الذين أيقظتهم صرخات النسوة، وسأل:

- مش صح يارجالة؟

أومأ الجميع برأسه ليعضد كلام الشيخ دون أن ينطقوا. نظر الضابط بعينيه الحادتين إلى الشيخ وصاح:

- يعني انت المحامي بتاعهم؟

التزم الشيخ الصمت، فكرر الضابط السؤال، وانهال عليه بكرباجه من فوق حصانه.

لم تنم القرية.. اعتقل الأفندية بعد الثورة.. ظنوا أنه لم يعد هناك اعتقال لأحد، وخصوصا بعد خطاب ناصر: جلاء المحتل وعودة الكرامة والعزة للإنسان المصري.. جلسوا أمام دار يوسف أفندي والحيرة مرسومة على الوجوه الحزينة.. ضرب عبدالرحيم كفا بكف وقال مستغربا:

- يوسف ومحمد أفندي مايقتلوش فرخة وسامعين الراديو معانا

رد أبو شمروخ متهكما بحزن:

- نافوخي يا ناس محمد أفندي ويوسف افندي كانوا قاعدين فريحى عند عويضة

قال عبدالرحيم وكأنه تذكر أمرا:

- يكونشي الجنيه مرات الشيخ متولي طخت الطلقتين على عبدالناصر

رد الشيخ صديق، وعلى وجهه آثار ضربة كرباج احمر لها وجهه:

- انت اتهبلت يا ولا.. هي الجنيه تعرف تطخ رئيس

رد أبو شمروخ:

- ايوه الجنيه تقدر تعمل كل حاجة.. ايشحال انك شيخ مش عارف؟

ثم قال عبدالرحيم:

ـ والله الجنيه هي اللي عملت كده علشان تتنقم لجوزها.. أصل الجماعة الأفندية ربنا يفك سجنهم اتنأوروا عليه

رد عويضة مبتسما:

ـ يا جدعان بكرة الأفندية هيطلعوا علشان الحكومة عرفت مين اللي ضرب النار..

سأله الشيخ صديق متلهفا لإجابة تنقذه من حالة الحزن:

ـ مين؟

رد عويضة مبتسما:

ـ الإخوان المسلمين

سأل عبدالرحيم عويضة:

ـ ودول يطلعوا ايه؟؟

رد عويضة بثقته المعتادة:

ـ بيقولوا عملاء للإنجليز

رد أبو شمروخ غاضبا:

ـ يا سنة سودة يا ولاد.. الإنجليز مرة واحدة!

ثم قال الشيخ صديق وهو يضرب كفا بكف:

ـ يعنى بلدنا موعودة بالجماعة الشيوعيين الكفرة والإخوان العملا

رد عويضة:

- اني سمعت في الراديو ان الإخوان دول ناس إرهابيين عايزين ينقلبوا على الريس

رد عليوة:

- ربنا يقوي الريس ناصر عليهم

* * *

دعا مغاوري أهل القرية في داره الكبيرة المطلة على المصرف العمومى.. ذبح ثورين، بعدما طاف بهما أبناؤه في شوارع القرية، والأطفال من خلفهم يغنون والنسوة يزغردن ويدعين لمغاوري الجديد. سال لعاب الرجال منتظرين الانتهاء من طهي الثورين، ومن ثم الانقضاض عليهما. سوف يكون الشيخ متولي في مقدمة الحاضرين اليوم إلى دار مغاوري، حتى تحل البركة. وهناك ضيوف آخرون من خارج القرية، تتسرب الشائعات في القرية ـ والمعروف أن مصدرها كعادة كل الشائعات عبدالرحيم الحلاق ـ يقال إن هناك شخصية كبيرة ستحضر الوليمة، إنه الباشا مأمور المركز.

اجتمعوا أمام الدار على شاطىء المصرف، تحت شجرة الصفصاف، التي تتدلى فروعها حتى تلمس المياه.. هذه فرصة لا تعوض، سوف يأكلون لحوما لا يتناولونها عادة إلا عندما ينسون مذاقها.. أخذ الأطفال جانبا حتى ينتهي المضيف من إعداد الطعام، يلعبون نط البصلة.. يمرحون ويضحكون وتارة بيكي أحدهم، فيذهب إليه أبوه ينهره ويضربه، لأنه يجب ألا يبكي، بل لابد أن يثأر لنفسه من الأطفال الذين ضربوه.. يثير شريف إعجاب وأحيانا دهشة الجميع، فهو لا يلهو كما يلهو الأطفال دائما، بل يجالس الرجال. لمح الشيخ صديق الشيخ متولي يقترب ببطء، متكئا على عصاه.. أمر الجمع بالوقوف ليرحبوا بالشيخ.. لما وصل متولي، نظر إلى الجالسين بعينيه الضيقتين، وتطلع إلى الصامتين يقفون خاشعين ينظرون إلى الأرض، فأشار لهم بالجلوس بيده

التي تمسك المسبحة، فقال الشيخ صديق:

- مايصحش يا سيدنا ماحدش يقعد إلا لما سيدنا يقعد الأول..

ظلوا واقفين، ونهض عبدالرحيم الذي تعجل الجلوس، فجلس الشيخ متولي، بعدما أتى إليه مغاوري مسرعا ليرحب به. ثم همس إليه الشيخ صديق:

- الأفندية دول برضه زي ولادك..

ظل الشيخ متولي صامتا يسبح بمسبحته، ويراقب بطرف عينيه، ويتنظر الطعام الذي يجهزه المضيف.. عاود الشيخ صديق حديثه:

- وميرضكاش العيال يفضلوا في المعتقل طلعهم وانا اجيبهم لك يحبوا على ايديك

رد الشيخ متولي وكأنه يريد إنهاء الحديث:

- خلاص.. خلاص هيطلعوا..

ثم بادر بسؤال الشيخ صديق بصوت منخفض:

- هما الجماعة دول اتأخروا في الأكل ليه؟

ابتسم الشيخ ثم قال:

- أصل بيستنوا ضيوف جاية م البندر.. ناس بيقولوا مأمور المركز جاي

رد الشيخ متولي مستغربا:

- جاي يعمل ايه حدانا؟

رد الشيخ صديق وهو يضع يديه حول ذقنه:

- مش عارف يا سيدنا.. مغاوري الجديد شكله وصل..

ثم صمت لحظة، ونهض صائحا بصوت مرتعد:

- الهجانة جوم يا أهل البلد

نهض الجميع، وجروا وجرى معهم الشيخ متولي ناسيا عكازه، فنادى عليهم مغاوري ضاحكا:

- ارجعوا يا جدعان دول ضيوفنا..

رجعوا بخطوات متثاقلة مرتعدة.. ذكرياتهم المريرة مع الهجانة عادت تمر أمام أعينهم، ظلوا واقفين سيقانهم مرتعشة، ليرحبوا بضيف، ربما كانوا يعلمون بمجيئه.. نزل المأمور من فوق حصانه، يتطلع في وجوه الفلاحين، وبرفقته ثلاثة عساكر كانوا يمشون خلفه. ابتسم ابتسامة خفيفة مرحبة، وهرول مغاوري الجديد ناحيته منحنيا ومرحبا به..

- اهلا يا سعادة الباشا نورت سيدي عوضين

أومأ المأمور برأسه، وهمس أبو شمروخ في أذن عبدالرحيم:

- هما مش لغوا الباشوية يا ولاه؟

رد عبدالرحيم بصوت منخفض، وهو يضع يديه على فيه:

- اتلغت عن الشعب وهتفضل مع الظباط بس.. علشان مايصحش تعمل راسك براس ظابط

أشار المأمور إلى الجميع بالجلوس، وظل فرج صامتا، على وجهه الاستغراب، وهو يتطلع إلى مغاوري والمأمور.. جلس المأمور في مكان أعلى، وقدم إليه الطعام أولا، ثم قدم الطعام إلى أهل القرية أمام الدار، ليلتهم جميعهم اللحوم أولا.

لكن فرج ظل على حاله الصدمة التي تعتريه، يراقب الضحكات المتبادلة بين المأمور ومغاوري، والعساكر واقفين يحرسون حصان المأمور. ولما انتهى

المأمور من طعامه، وقف، وبصوت خشن يحاول تليينه بابتسامة مزيفة على وجهه..

- عاملين ايه يا أهل سيدي عوضين؟

رد عويضة وهو يحك قفاه:

- بخير يا سعادة الباشا مبسوطين لما شفناك

ابتسم المأمور وسأل:

- ايه رأيكم في الثورة وعبدالناصر؟

رد الجميع، بعدما علت وجوههم ابتسامة طمأنينة:

- الله يعمر بيته وبيت الظباط الأحرار

ثم قال مغاوري:

- والله يا حضرة المأمور عزبة الباشا قصدي عزبة سيدي عوضين كلها مع الثورة.. وخصوصا اني.. ده حتى الولية مراتي وعيالي بيدعوا لعبدالناصر.. ربنا يخليه لنا عبدالناصر زعيم الثورة ويسامح نجيب علشان مايصحش اللي كان عايز يعمله ديه..

همس عبدالرحيم في أذن الشيخ صديق:

- دا اللي يسمع كلام مغاوري يقول دا اني اللي كنت دراع الباشا اليمين!

رد عليه الشيخ صديق هامسا في أذنه:

- ولا يمكن كان شغال في السخرة طول السنة!

ابتسم المأمور، ثم قال وهو يهز رأسه موجها حديثه إلى مغاوري:

- انت من رجالة الثورة المخلصيين يا حاج مغاوري ربنا يكتر من أمثالك

ثم وجه حديثه إلى أهل القرية:

- بشرى ليكم يا أهل سيدي عوضين.. الحاج مغاوري الرجل الثوري المحترم أصبح من النهارده عمدة بلدكم..

ساد الصمت، وكأن على رؤوسهم الطير، ولم يعد يسمع غير أصوات الأطفال يلهون على شاطىء المصرف. بعدما استوعبوا الصدمة، أطلقت النسوة زغاريد متقطعة تأبى الخروج من أفواههن، وهلل الرجال، بينما اكتفى فرج بابتسامة جاهد كثيرا لترسم على وجهه المتجهم. وزع العمدة مغاوري على أهل البلد الشربات، وأهدى المأمور خنجرا ذهبيا، كان من مقتنيات الباشا، ثم ودعه متمنيا له التوفيق. امتطى المأمور حصانه، وانصرف وهو يتفقد الهدية، دون الاكتراث للفلاحين الذين يشيرون إليه مودعين.

عاد الفلاحون إلى ديارهم يضربون كفا بكف، بينما عاد فرج إلى داره صامتا، الدهشة تعلو وجهه لا يصدق ما يحدث. هو يعرف المأمور منذ كان ضابطا صغيرا، يزور الباشا تيسير وينحني بين يديه طالبا منه الرضا.. يتذكر أبيات الشعر التي ألقاها هذا الضابط يمدح فيها تيسير باشا.. يكاد يجن مما حدث ولا يصدقه، لولا أنه كان أمام ناظريه.

* * *

عرج الفلاحين على دار عويضة ليسمعوا أم كلثوم.. فتح عويضة الراديو ثم أغلقه ثانية، ووجه حديثه إليهم سائلا بابتسامة ثقة:

- شوفتوني يا بقر كنت بكلم جناب المأمور ازاي؟

رد عبدالرحيم الحلاق ساخرا:

- ايوه شوفناك اول ما جه المأمور وديل الجلابية في سنانك

امتعض عويضة أبو شلتوت، وتدخل أبو شمروخ ليخفف إحراج عويضة حتى يفتح الراديو..

- كلنا جرينا.. ده حتى انت كنت هتفعص عيل صغير وقع واحنا بنجري

رد عبدالرحيم وهو يضحك:

- ماجريش ليه والشيخ متولي ذات نفسه جري من غير عكاز

زادت الضحكات وتعالت، وهم يتذكرون الشيخ متولي وهو يجري خائفا.. أمرهم الشيخ صديق بالكف عن الضحك وعدم الاستهزاء بمتولي، حتى لا ينتقم الأسياد من البلد، ثم قال بصوت منخفض مرتبك:

- مغاوري الجديد بقا عمدة بلدنا اه يا بلد!!

رد أبو شمروخ وهو يمصمص شفتيه من الحسرة:

- مغاوري راجل واعي عرف يلبد في زواريق المأمور زي ما كان لابد في زواريق الباشا

رد الشيخ صديق بصوت يبدو فيه اليأس وهو يهز رأسه:

- اللي زي مغاوري من سلالة القرود بيعرف ينط كويس من شجرة ويحط على شجرة تانية!!

ارتدى العمدة مغاوري الجديد جلبابه الأبيض الحرير، ولبس حذاءه الجلد اللامع، وبيده منشته من ريش النعام، ومع قليل من العطر من زجاجة عطر الباشا التي مازال يحتفظ بها.. مشط شعره الأبيض المجعد فارقا إياه من المنتصف.. ركب الكاريته التي اشتراها خصيصا لتناسب مكانته الجديدة، وانطلق الحصان يجرها، يشق بها ضباب الصبح، ويجول في الحقول الندية، يردد الأغاني خلف مذياعه المتطور الجديد صغير الحجم. يفحص بعينيه

السوداوتين الضيقتين الحادتين أجساد النسوة اللائي انطلقن إلى حقول الأرز لتنقيته من الغلت.. الضباب الكثيف لا يساعده على الرؤية الواضحة.. يلقي عليهن السلام وهن يرددن بضحكات متقطعة خليعة، تشعره برجولة يحاول استعادتها من براثن ست الحسن أم العيال. كم يريد الفكاك منها، ولكنه لا يقوى على مواجهتها. لقد حقق أحلامه، لكن مازال لديه حلم يتمنى تحقيقه، وهو الزواج من بنت بنوت، تعيد اليه أيامه التي ضاعت مع تلك الرقطاء الدميمة.. لكنه على يقين أنها أمنية مستحيلة.. ممكن أن يزرع الأرض أرزا ويحصد قمحا، لكن مستحيل أن يفك أسر حلمه هذا.. خلفه يمشي عبدالباسط الخفير، يحمل بندقيته حانقا غاضبا يتكتم غيظه، وبجواره يمشي مدبولي الصغير يبرم شاربه الكثيف ويضحك، يردد بصوته القبيح المتحشرج: "ماحلاها عيشة الفلاح متهني البال ومرتاح.." قال عبدالباسط محدثا نفسه المغتاظة:

- دي عيشة ما يعلم بيها إلا ربنا!!

سأل مغاوري عبدالباسط دون أن يلتفت إليه:

- بذمتك يا ولاه يا عبده اني صوتي مش احسن من صوت عبدالوهاب؟

تمهل عبدالباسط لحظات، يحاول فيها جاهدا أن يخرج من فيه مديحا لصوت قبيح يذكره بالغربان فوق الأشجار، تنذر أهل القرية بموت أحد أبنائها قريبا..

- ايوه يا عمدة ده حتى صوتك ولا صوت الست أم كلثوم

التفت إليه العمدة غاضبا:

- ست مين يا عديم الربابة!

ابتسم عبدالباسط محاولا التهدئة:

- اهي يا عمده.. يعني ماينفعش نهرج معاك

صاح مدبولي الصغير غاضبا:

- ليه هي القوالب نامت والانصاص قامت.. ولا القطط كلت ولادها

نظر عبدالباسط إلى الأرض وعض نواجذه. ساد صمت تخلله صوت العمدة القبيح يغني.. حتى مر أبو شمروخ ممتطيا حماره وساقاه تتدليان من جانب الحمار الأيسر، يجر خلفه بهائمه ويغني هو الآخر: "فدادين خمسة.. خمس فدادين".. ثم أشار بيديه ناحية العمدة، وعلى وجهه التفاؤل بصباح يوم جديد:

- سلامو عليكو يا عمدة

صاح العمدة غاضبا بصوت اخترق الضباب، ليصل إلى آذان الفلاحين في الحقول:

- هو يعني العمى سبك على نواضرك؟!

رد أبو شمروخ مستغربا:

- ليه بس يا حضرة العمدة؟

- بقى انت يا ولاه مش شايفني؟

- ايوه شوفتك

- اومال يا ابن الواطي يا قليل الربايه مابتنزلشي من عالحمار ليه واني معدي؟ لأ وكمان راكب جمالي

- اهي يا عمدة.. ودي فيها ايه يعني؟

زاد غضب العمدة، ورفع يديه عاليا لتهوي على وجه أبو شمروخ الشاحب النحيل، ثم أشار إليه بيديه:

- غور دتك داهية تاخدك وتاخد البلد عالم بهايم تخاف ماتختشيش..

ظل أبو شمروخ واقفا مكانه، عيناه البائستان الدامعتان تنظران في عيني العمدة وهو يتحسس وجهه.. وظل عبدالباسط الخفير صامتا، أصابته الدهشة والاستغراب والحزن.. بينما ارتسمت ضحكات متعالية على وجه مدبولي الصغير، وقال ساخرا:

- ابن ابو عرام بسلامته راكبلي جمالي!!

رد أبو شمروخ ودموعه على وجهه تنهمر:

- ايوه ابو عرام يا مدبولي

- اهي مدبولي حاف كده؟

حدث عبدالباسط نفسه في غيظ:

- الله يرحم ابوك كان جاي م الصعيد حافي الشق في رجله يدخل تعبان! الله يرحمك يا عمدة هواري.. أيامك مش هتتعوض!

رد أبو شمروخ وهو يمسح دموعه متحديا:

- ايوه حاف اومال يعني عايزنى اقولك ايه؟

- تقول لي ايه يعني!.. هو انت عايز تعمل راسك براسي ولا يعني عايز تربط حمارتك جانب حمارة ابن العمدة. والله لو مامشتش دلوقتي لاكون طخك وانت عارف احنا هنا الحكومة..

دفع عبدالباسط أبو شمروخ لينصرف بعيدا، وهو يربت على كتفه ويترجاه أن يبتعد عن الشر، وانصاع أبو شمروخ وامتطى حماره وجر بهائمه خلفه ودموعه تنهمر.

* * *

اليوم الجمعة، امتلأ المسجد بالمصلين، أتوا ليسمعوا خطبة الشيخ صديق المعتادة. لكنه تأخر على غير عادته. منذ قرابة الثلاثين عاما لم ينقطع مرة واحدة عن خطبة الجمعة. أصاب المصلين القلق على شيخهم، فترك عبدالرحيم المسجد، وذهب إلى دار الشيخ التى بجواره.. وجده شاحبا مصفر الوجه، يقاوم مرضه ليذهب إلى المسجد، لكن المرض وسنه الكبير هزما إرادته. فعاد عبدالرحيم إلى المسجد ثانية، وقد تعلقت أعين المصليين به، فأخبرهم وجهه الحزين بما يمكن أن يخبرهم به لسانه. نظروا إلى بعضهم، ثم توجهوا بأعينهم الحائرة ناحية عويضة أبو شلتوت، فهو يفك الخط ونال حظا من التعليم لم ينله غيره في كتاب الشيخ صديق. احمر وجهه وحاول إخفاء عينيه، لكن أعينهم حاصرته.. طلب منه تهامي البقال:

- قوم يا عويضة اخبطنا خطبة كده من عندك.. اهو الجو خلالك.. الشيخ تعبان ومحمد أفندى في المعتقل

ابتلع عويضة ريقه بصعوبة، وقال وهو يسعل:

- بس اني ماعملتش حسابي

رد عبدالرحيم الحلاق:

- هو يعني الشيخ صديق بيعمل حسابه دا بيطلع ع المنبر يقول الكلمتين اللي حداه وكان ربك بالسر عليم

ثم قال أبو شمروخ محفزا عويضة:

- قوم يا عويضة انت قديها وقدود.. قول اي حاجة تيجى في دماغك.

وقف عويضة متباطئا، ساقاه المرتعشتان لا تساعدانه على إظهار تماسكه أمام المصلين. لكنه اعتلى المنبر، ووقف يتطلع فيهم بنظرات مشمئزة، يقلد فيها الشيخ صديق حين تتغير هيئته ويتجعد وجهه ويوزع الاتهامات على المصلين.

بدأ عويضة خطبته المرغم عليها وهو يسعل وقال:

الحمد لله..

أشار بيديه وانتظر برهة، تفحص فيها الوجوه. ثم عاد مكررا..

الحمد لله..

وسكت ثانية ثم عاد مكررا.. الحمد لله..

بدأ المصلون يمتعضون ويقلقون ويسخرون منه، حتى قال مدبولي الصغير ساخرا وهو يشير ناحيته:

- غير يا مولانا

زاد حرج عويضة، وتصبب وجهه عرقا غزيرا مسحه بكم جلبابه، ثم قال وكأنه تذكر أمرا هاما:

- اتقوا الله.. اتقوا الله.. اتقوا الله

انقلب قلق المصلين واضطرابهم إلى ضحكات ساخرة على خطيب، اضطره مرض الشيخ صديق لاعتلاء المنبر، وقال عبدالرحيم وهو يضحك:

- ايه انت علقت.. اقلب على حاجة تانية وهو انت ماخدتش في الكُتَّاب غير الحمد لله واتقوا الله

عاود عويضة خطبته بصوت عالٍ، فيه شيء من حزم مصطنع:

- اتقوا الله. وخلي بالكم انت وهو.. ربنا شايف كل واحد منكم.. وعالم بيعمل ايه.. ايوه والله.. يعني اللي بيعدي على أرضي يسرق درة ربنا هيكسر له رجله ورقبته كمان وجايز ينسخط قرد.. إذا كان راجل ولا مرة..

زادت سخرية المصلين وتعالت ضحكاتهم، حتى سمعها الشيخ صديق

المريض في داره. استغل عويضة أبو شلتوت المنبر للدفاع عن أرضه.. تتشاجر معه زوجته (أم حسونة) دائما لسهره بجوار الراديو واستيقاظه من نومه متأخرا، مما أعطى الفرصة للبعض لسرقة أرضه..

قال عبدالرحيم وهو يضحك:

- طيب والله لاخلي العيال الصغيرة تنحل لك الدرة بتاعك يابن أبو شلتوت

عاود الخطيب المزيف حديثه:

- عمر الحرام ما بينفع.. ايش حال الحلال مابينفعش يبقى الحرام هينفع؟ وخصوصا لو كان جاي من سرقة الدرة بتاعي

ارفعوا ايديكم للسما وادعوا وقولوا آمين ورايا بس بضمير يا عالم يا كافرة حاكم اني عارفكم ماعندكوش ضمير حتى وانتو بين ايدين ربنا.. داهية تاخدكم

اللهم شل رجل أي حد يهوب ناحية الدرة بتاعي..

رد المصلون:

آمين

وأقام الصلاة ووقف إماما، والناس من خلفه يصطفون يقاومون ويسيطرون بصعوبة على ضحكات متمردة تتمنى الخروج، حتى قرأ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخشون في دين الله أفواجا.. جاء صوت طفل يخترق صوت عويضة صائحا:

- يدخلون في دين الله افواجا..

لكن عويضة واصل قراءته مستكبرا، حتى انتهى من الصلاة، فالتفت

المصلون ناحية صاحب الصوت، الذي حاول رد عويضة، فنهض الطفل من مكانه واتجه ناحية القبلة وقال بصوت منخفض:

- اسمها يدخلون في دين الله.. مش يخشون يا ابا عويضة

أشار عويضة ناحية الطفل مشمئزا، وقال محاولا إخفاء خجله

- ماتقعد قعدت مقعد انت واللي جابك.. شوف يا اخويا الولا ابن الكلب العيل لسه ماطلعش من البيضة ويبجح.. عيال آخر زمن!!

ثم وجه حديثه إلى المصلين

- حاكم دي من أمارات يوم القيامة لما تشوف عيل صغير يرد على راجل كبير وبيبجح

رد الطفل ماسحا شعره بيديه، وعيناه تلمعان ببريق:

- اني باقول اللي مكتوب في القرآن

ثم استدار ناحية المصلين، وقال بصوت عالٍ:

- ابقوا حتى اسألوا الشيخ صديق ذات نفسه

رد عويضة:

- يعني غلطنا في البخاري يا خي

ثم صاح العمدة مغاوري الجديد ممتعضا من جرأة الطفل:

- اقعد يا بن ستين كلب

ثم وجه حديثه ناحيه أبيه:

- ما تربي ابنك يا عبدالصادق ولا عايزني أربيهولك؟!

ثم سأل المصلين بصوت عال:

- يا جدعان مش يدخل زي يخش؟؟

رد الجميع بصوت واحد:

- ايوه يا حضرة العمدة

- يبقا خلاص بطل لماضة يابن عبدالصادق.. دا ابوك لسه لحد دلوقتي حافي مافيش في وسطه لباس!

هرول عبدالباسط الخفير مسرعا، يحمل فوق كتفه بندقيته، يتجه ناحيه دار الشيخ صديق، ليزف له خبرا سعيدا قد يعيد الأمل إلى قلب الشيخ، الذي نال منه المرض. فتحت له عائشة الباب، فسألها عن الشيخ متلهفا، فأدخلته إلى غرفته المطلة على المسجد، يراقب منها أهل القرية، ويراقب المسجد الذي يعتبره جزء أصيلا من جسده، يغضب عندما يجد أحدهم يدخل إلى المسجد بقدميه متسخة أو يصطحب طفلا مازال صغيرا. يوصي دائما من يزوره بنظافته.. يبكي أحيانا لعدم قدرته على القيام بنظافة المسجد كما كان. ظل قرابة الخمسين عاما يخدم المسجد ويقوم بنظافته، حتى قبل أن يكون خطيبا..

دخل عبدالباسط منحنيا أمام الشيخ الراقد على سريره، فاتحا نافذة غرفته، وصافحه مقبلا يديه، وألقى بندقيته على الأرض وقال محاولا صد دموعه المتأثره لمرض الشيخ، ليزف له الخبر:

- عندي لك خبر هيخليك تقوم تجري زي الحصان

رد الشيخ بلسان متثاقل:

- ايه هو يا عبدالباسط؟

- جات إشارة عند مغاوري الجديد بتبلغه إن الأفندية أُفرج عنهم وعلى وصول

انفرجت أسارير الشيخ صديق، ثم نادى بصوته المتعب على ابنته، فأتت إليه مسرعة..

- محمد افرجوا عنه وجاي في الطريق روحي جهزي نفسك واقعدي في دارك وبالمرة بلغي البت مرات يوسف

ارتسمت بسمة على وجه عائشة الشاحب، البائس الحزين منذ غاب زوجها. ولكنها ـ بعدما ألقت نظرة على أبيها الراقد على فراشه ـ عاد وجهها إلى سيرته الحزينة وانصرفت. عاود الشيخ صديق حديثه مازحا رغم ألمه:

- شوف يا اخويا البت لما قلت لها جوزك راجع زادت النص

ضحك عبدالباسط..

- ربنا يفرحك ويفرحها على طول يا شيخ ويقومك بالسلامة

رد الشيخ صديق بصوت يائس:

- خلاص يا عبدالباسط ماعدتش في العمر حاجة

رد عبدالباسط:

- ماتقولشي كده ياشيخ صديق ربنا يقومك للبلد بالسلامة

ضحك الشيخ ضحكا كالبكاء:

- اني رايح لحبايبي خلاص.. ما عاوزشي حاجة من العمدة هواري ولا العمدة شاهين؟

تنهد عبدالباسط وتحسس شعره الأبيض:

- فكرتني بالغاليين الله يرحمهم راحوا وسابولنا مغاوري الجديد يتحكم في البلد كلها..

بدأت دموع عبدالباسط تنهمر بغزارة، وكأنه حضر إلى الشيخ ليفرغ هموما تملأ قلبه، وعاود حديثه:

- والنبي يا شيخ ماتقلبش المواجع

رغم الآلام التزم الشيخ الصمت، لإحساسه برغبة عبدالباسط في البوح والفضفضة. وواصل عبدالباسط حديثه الحزين:

- آه يازمن لما يتحكم العبيد في الأسياد.. مغاوري اللي كان جاى البلد حافي بقى عمدة البلد وعمال يبهدل في الخلق.. أني بقيت كاره نفسي وكاره الدنيا كلها بسببه

رد الشيخ صديق:

- معلشي استحمل يا عبده

- استحمل ايه خلاص ماعدتش قادر.. لما بدخل داري وبلاقيني وشي في وش مراتي لا عيل ولا تيل.. بقول استحمل ليه لا حيلتى عيل يورثني ويشيل اسمي ولا حيلتى حاجة..

انفلتت الدموع من عيني الشيخ المجهدتين وهو يسمع كلام عبدالباسط الخفير.. لم يعهد عليه الضعف من قبل، لكنه الزمن استطاع إخضاعه. نظر عبدالباسط إلى وجه الشيخ، وجد دموعه تنهمر، أحس بالحرج؛ فقد أتى ليخفف عن الشيخ، لا ليشركه في حزنه المدفون في قلبه منذ سنين، لم يبح به لأحد. دنا منه وألقى نفسه في حضنه وبكى الاثنان بكاء مريرا، لعله يغسل بعضا من أحزانهما.. حتى طرق الباب بقوة، فقال الشيخ صديق مبتسما:

- افتح يا عبدالباسط الباب للأفندية قلبي حاسس انهم وصلوا

دخل الأفندية، دموعهم تسبق كلامهم، وارتميا في حضن الشيخ الراقد على فراشه يقبلان رأسه ويمسحان دموعه، فقال الشيخ محاولا التماسك أمامهما:

- أهلا بالأفندية

رد يوسف أفندي بصوت حزين، لا تبدو فيه فرحة الإفراج عنه:

- سلامتك ألف سلامة يا ابا صديق

تبعه محمد أفندي:

- احنا ماروحناش دورنا لما عرفنا انك بعافية شوية يوسف قال لي تعالى نحود على الشيخ الأول

حاول عبدالباسط التخفيف عن الأفندية:

- الشيخ كويس اهو مفيش فيه حاجة زي الحصان دا حتى كان بيكلمني على عروسة

ضحك الأفندية وقال محمد أفندي مازحا:

- ايوه كده يا ابونسب يا رافع راسي

ارتسمت بسمة على وجه الشيخ وقال متنهدا:

- الواحد من زمان مافرحش إلا النهارده

رد عبدالباسط داعيا:

- إلهي تفضل فرحان علطول يا شيخ

رد الشيخ صديق:

- اني كده ارتحت.. لما اموت هلاقي حد يزعل عليّ

رد يوسف متأثرا بحديث الشيخ:

- ماتقولشي كده يا ابا صديق

كلمة (يا ابا) التي قالها يوسف، تسر قلب الشيخ.. لطالما تمنى ولدا من صلبه يخلد اسمه بعد مماته، ويعمل في خدمة المسجد من بعده. لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

قال محمد أفندي

- ربنا يخليك لنا يا ابا صديق

ابتسم الشيخ صديق وقال:

- اني ماشي ماعدتش قاعدلكم فيها عايز اروح لحبايبي.. خلى بالكم من نفسكم وسيبوكم م السياسة.. كلوا عيش وراكم عيال

رد عبدالباسط ناصحا هو الآخر:

- ايوه صحيح يا افندية خلاص كده كل حي يشوف مصالحه ويبعد عن الشر ويغني له

ابتسم يوسف أفندي وقال مازحا:

- يعني عايزنا نمشى جنب الحيط يا عبدالباسط

رد عبدالباسط بقوة:

- ايوه مش احسن لما تروحوا ورا الشمس

اشتد الألم والتعب على الشيخ صديق، وقال وهو يتأوه من الألم:

- لو ليّ خاطر حداكم ابعدوا عن المدعوقة دي علشان تعيشوا..

ثم قال وهو ينتزع بعض الابتسام على وجوههم الحزينة:

- قوم يلا انت وهو روح دارك..

حك الأفندية قفاهم وبدا عليهما الخجل، عاود الشيخ حديثه الضاحك:

- قوم يا جدع انت وهو بلاش لكاعة..

* * *

استيقظ الأطفال على نداء أمهاتهم وقت صياح الديكة، للذهاب إلى الحقول في رحلة العذاب اليومية لتنقية الدودة من حقول القطن. لا أحد يستطيع أن يتأخر عنها وإلا قُدم أباه إلى المحاكمة والسجن. يذهب الأطفال حفاة، يحملون فوق رؤوسهم طواقي بيضاء من القماش، لتعصمهم من شمس لا ترحم. لا يحلمون ولا يأملون، خطواتهم القصيرة متثاقلة، لايفكرون في مستقبل بقدر تفكيرهم أي يوم من أيام الجحيم ينتظرهم.

يغطي الضباب المكان، وكأنه يبدي انزعاجا لحالة هؤلاء الأطفال البؤساء، الذين يفكرون في الخولي ويومه وحاله، حتى يصلوا إلى الحقل، فيجدوه كعادته، ينتظرهم بمراسم السباب والسخرية والضرب. اصطفوا بجوار بعضهم، يتطلعون إلى وجه الخولي النحيف وعينيه الضيقتين.. كل واحد أمام خطه، لتبدأ مراسم التعذيب رسميا، ويصيح فيهم بصوت قوي خشن:

- وطي يا ابن الكلب انت وهو

ينصاع الأطفال سيئوا الحظ لأوامر الخولي الممتعض دائما..

- والله اللي مش هيشتغل كويس واللي هيجى من وراه علام هخلي وقعت امه سودة.. فاهمين؟؟

لم يرد الأطفال، انحنوا على أعواد القطن الخضراء يقلبونها يمينا ويسارا، بحثا عن علامات، إن فشلوا في إيجادها ووجدها (الفرار) سوف يكون العقاب شديدا من الخولي، الذي تقمص دور عبدالوهاب، وبدأ في غنائه اليومى القبيح يخرج من فيه رزاز يتطاير على وجوه الأطفال، لا يستطيعون مسحه إلا خلسة..

همس علي ابن عبدالرحيم الحلاق ساخرا بصوت منخفض:

- يا اخي اتنيل دا انت صوتك ولا صوت كلبة الشيخ متولي

نجح علي في جلب ضحكات بخيلة تأبى الخروج على وجوه الأطفال، فقطع الخولي غناءه وصاح غاضبا:

- باه.. انت يا واد يابن عبدالصادق النجار مفيش فايدة فيك؟

رفع شريف رأسه محدثا الخولي، وليريح ظهره المتعب، وقال متحديا:

- اني عملت ايه يعني؟

- وكمان بتبجح معايا؟ طيب والله يا ولاد الكلب لتاخدوا الوش كله موطيين

تغيرت وجوه الأطفال، وزادت اصفرار وبؤسا، وقال علي:

- الوش طويل قوي يا حضرة الخولي

رد الخولي:

- بطل لماضه يابن الكلب وانت عامل زي ابوك كده

حدث علي نفسه بصوت حزين:

- والله لقايل لابويا ماعد يحلقلك بالمسنية

ظلوا يقلبون أعواد القطن، يتمنون لحظة نهاية الوش الذي لا ينتهي، خائفين من المراقب النشط خلفهم.

عين الخولي حسونة ابن عويضة أبوشلتوت فرارا خلف الأطفال، ليراقب ويقلب أوراق القطن خلفهم، فيرضى عنه عويضة ويجلسه في مقدمة الناس بجوار الراديو

- وعلامة يا حضرة الأفندي

ارتعدت فرائص الأطفال.. قلوبهم البريئة يملؤها الرعب، وكل منهم يدعو الله أن تكون تلك اللعينة ليست من خلفه.. قطع الخولي غناءه وقال غاضبا:

- ورا مين يا واد يا حسونة؟

رد حسونة وهو يشير ناحية عماشة. نزلت كلمات حسونة على قلب عماشة الصغير كأنها صخور ألقيت عليه من فوق جبل، وانهار في البكاء بأنفاس متقطعة لاهثة، وأخذ يضرب على صدره مستعطفا الخولي.. اقترب منه الخولي رافعا عصاه الغليظة، وانهال على جسده النحيف، وعماشة يتأوه ويطلب منه أن يقبل يده ليتركه..

- غصب عني والله يا حضرة الخولي ماشفتش من الشبورة

رد الخولي وهو مازال يضربه:

- ليه اتعميت يا ابن أبو شمروخ وانت عامل زي ابوك مش شاطر إلا في ركوب الحمار جمالي..

فجأة وقعت عينا الخولي على وهيبة، تحمل فوق رأسها قلة وتتهادى بخطوات ضيقة واثقة، تقبل ناحيته.. نظرت إليه بعينيها السوداوتين اللامعتين الواسعتين، وقالت بصوتها الناعم وهى تشير بيديها ناحيته، فبدا ذراعها الأبيض:

- صباح الخير يا حضرة الخولي..

ضحكت في استحياء، فسقطت عصا الخولي، ورد بهمهمات غير مفهومة، وكأنه نسى مفردات الكلام. فزادت ضحكاتها واحمر وجهه الأسود، وأخذ يحك أنفه وقفاه. عاودت:

- سماح المرة دي والنبي يا حضرة الخولي عشان خاطري..

رد الخولي وهو يعوج طاقيته على جانب، مبرزا بعضا من شعره المجعد:

- علشان خاطرك بس انتِ يا ست الحسن والدلال..

سامح الخولي عماشة فورا، بعدما ألهبت وهيبة قلبه بنار الغرام، فتغير وجهه البائس العابس دائما، وغزت البسمة وجهه، وانطلق في الغناء والتلحين وعيناه مرسلتان تتفحصان جسد وهيبة الممتلىء قليلا، وخطواتها المتبخترة.

وسط هذا الجو الرومانسي لعاشق ولهان، سلبت منه وهيبة قلبه وانطلقت مبتعدة، صاح حسونة بصوت عالٍ اخترق حالة الخولي الحالمة:

- وعلامة وشاشي.. جايبه المعاون ماشي

ارتبك الخولي واضطرب حلمه.. ارتعدت فرائص الأطفال ثانية.. كم تمنوا أن تمكث وهيبة كثيرا معهم. تغير وجه الخولي وعاد إلى سيرته الأولى، وقال مبديا غضبا شديدا:

- ورا مين؟

رد حسونه مبتسما ابتسامة بلهاء

- عماشة يا حضرة الأفندي

اقترب الخولي من عماشة المرتعد، وانهال عليه ضربا. توسل عماشة الخولي مستعطفا إياه:

- معلهش يا حضرة الخولي وحياة وهيبة يا حضرة الخولي..

توقف الخولي محدثا نفسه:

- حلفتني بالغالية..

ثم أطلق تهديده متوعدا من يخطىء.

تكاد تقسم ظهور الأطفال، يستنجدون بالخولي ليرحمهم ويلتقطوا أنفاسهم المتعبة ويمسحوا عرقهم، وخاصة بعدما انتهوا من الوش الطويل اللعين. لكن الخولي، صاحب القلب القاسي عليهم، المرهف مع وهيبة، أبى وصاح فيهم

- انى ماعدتش بسمع حد بينادي على علام ليه؟

نادى الأطفال على العلامات التي يجدونها في أوراق القطن الخضراء بأصوات بائسة يائسة، تتخللها دموع القهر تتساقط على الأوراق. طلب شرقاوي مستعطفا:

- عايز اشرب يا حضرة الخولي؟

رد الخولي ساخرا:

- مين قال عايز اشرب؟

رد الشرقاوي رافعا يديه السمينتين:

- اني يا حضره الخولي والنبي عطشان

ضحك إلى الخولى وقال ساخرا:

- انت يا ابن بهانة؟ دا انت زي امك عايز ترعة مية علشان تقضيك.. امك بهانة ولا بقرة أبو شمروخ!

ثم سأل ثانية:

- مين عطشان تاني يا بهايم يا ولاد البهايم؟

التزم الأطفال الصمت خشية تعرضهم لسخرية كتلك التي تعرض لها شرقاوي، حتى غلبهم العطش ونشف ريقهم، فقال علي:

- عطشان يا حضرة الخولي..

كرر الأطفال ما قاله علي، فامتعض الخولي وقال غاضبا:

- يعني كلكم عطشانين.. ليه واكلين حمرة ع الصبح!!

بكى الأطفال محنيو الظهر، فقال الخولي بصوت لا تنقصه القسوة:

- محادش رايح يملا مايه واللي عايز يشرب يمد بوزه في القناية ويشرب

رد شريف:

- مية القناية وحشة يا حضرة الخولي وفيها تعابين

رد الخولي:

- يبقى ماحدش يقول لي عايز اشرب

رد علي بصوت يائس مكتئب:

- خلاص اني هشرب من القناية..

ونوى من بعده الأطفال على مضض، حتى أقبل طيف من بعيد يحمل قلة ماء.. انتظر الأطفال.. وهيبة سوف تفرج عنهم. أقبلت وهيبة لتنقذهم من عاشقها المتيم، في جو بعيد كل البعد عن الرومانسية، ابتسم الخولي وتغيرت هيئته وقال مغازلا:

- عطشان نفسي اشرب من قلة الحبايب

ردت وهيبة بضحكات ألهبت مشاعره، فعاود غزله:

- يا قلة الحبايب.. وحشتنى مايتك

ردت وهيبة وهى تتبختر:

- عايز تشرب يا حضرة الخولي؟.. عينيّ

رد الخولي مضيقا عينيه الضيقتين أصلا:

ـ تسلم عنيك انشاء الله اني..

ضحك الأطفال بأصوات عالية مستغربين منظر الخولي، فصاح فيهم بصوت متشنج:

ـ مين اللي عايز يزردع؟

رفع الأطفال أيديهم، فأعطت لهم وهيبة القلة.. دنا منها الخولى محاولا لمس يدها، لكنها ابتعدت قليلا.. أعطت له القلة، فلمس يداها بأطراف أصابعه، شرب، وحين انتهى تجشأ بصوت عالٍ.

فجأة، أتى رجل يمتطى حمارا أسود اللون مسرعا، يرتدي قميصا وبنطلونا مرفوعا إلى أعلى الركبة بقليل، يحمل فوقه طربوش قديم يتدلى من تحته منديل يغطي قفاه، ماسكا حذاءه بكلتا يديه. اتجه ناحية الخولي والأطفال، وصاح في غضب دون سابق إنذار:

ـ الله الله يا حضرة الخولي

ارتبك الخولي وقال مضطربا:

ـ أهلا يا حضرة المعاون..

ثم صاح في الأطفال بصوت عالٍ:

ـ وطي يا بن الكلب انت وهو..

ظل الأطفال واقفين رافعي ظهورهم يتطلعون ناحية المعاون باستغراب ودهشة، بينما ارتبكت وهيبة وأسرعت مبتعدة بخطوات سريعة، ليس كتلك التي أتت بها. سأل المعاون الخولي مستنكرا، وهو يشير ناحية وهيبة:

ـ مين دية يا حضرة الخولي؟

طأطأ الخولي رأسه واحمر وجهه مضطربا، وعاود المعاون ساخرا:

- عامل لي أنور وجدي وسايب شغلك وبتتمسخر مع الست ليلى مراد.. مقطوع منك يومين ياسي أنور أفندي.. اني رايح اقعد تحت السجرة اما اشوف الشغل بقى..

ذهب المعاون ليجلس تحت ظل شجرة تعصمه من بأس شمس يعاني منها الأطفال.. وانفجر الخولي غضبا مهددا لهم ومتوعدا:

- وطي يا بن الكلب منك له ومحدش يقول لي انه عايز يزردع بعد كده.. فاهمين؟

رد علي بصوت منخفض:

- اهي واحنا مالنا حد قال لك تتمسخر وتبصبص

وتحت ظل الشجرة، جلس المعاون يراقب وهيبه التي تبتعد، يفحص جسدها ممصمصا شفته السفلى، محدثا نفسه متنهدا:

- ادي النسوان ولا بلاش.. مش الولية اللي كاتمة على نفسي.. أموت واتجوز فلاحة

* * *

مازال ذرة أبو شلتوت يسرق، حتى بعد خطبته الشهيرة، التي دعا فيها على السراق الملاعين، الذين تسببوا له في السخرية والمعايرة من زوجته وهي تضرب بكفيها على وجهها، وتهدده أنها ستقطع ملابسها من أعماله الساذجة..

- روح شوف أبو شمروخ خليه يعلمك.. حد يسجر يعدي أرضه.. ولا روح اتعلم من رجالة البلد

زاد غضب عويضة أبو شلتوت من سخرية زوجته المتواصلة منه، وسخرية

رجال القرية لسرقة أرضه دائما. لابد من فكرة تنقذه.. لابد من حيلة.. أخذ من بيته لحافا أبيض يلتحف به، وذهب إلى الحقل في ليلة شديدة الظلام تفتقد القمر. الأمر ليس بسهل على عويضة، فهو، كما تعايره زوجته دائما، يخاف من خياله، فكيف سيمكث في حقل مسكون كحقله، بالقرب منه قتلت ليلى وظهرت عفريتتها.. لكن ما لاقاه كان أقوى من الخوف بداخله، وإن لم يمنع ساقيه ويديه من الرجفة.. غطى نفسه بلحافه الأبيض، واستلقى على السكة العمومية التي يأتي من خلالها السراق..

اقترب صوت اثنين، يبدو أنهما جاءا لسرقة الذرة.. أعد عويضة نفسه، واقترب الصوت حتى أصبح يسمعه بوضوح.. كانا رجلين يمتطيان حمارين، قال الأول:

- كانت ليلة انما ايه يا واد عبدالرحيم

رد عبدالرحيم:

- ايوه ياواد عليوه ياحلاوة البندر

- نسوان البندر ولا لهطة القشطة..

ضحك الاثنان، وتعالت قهقهاتهما، ثم قال عبدالرحيم:

- الجماعة البندر دول عايشين مش احنا

مازالا يضحكان ويتبادلان القفشات، حتى توقف الحماران وحاولا الرجوع إلى الخلف.. ضرب عبدالرحيم الحلاق الحمار وقال ساخرا:

- حاااا امشي يكونشي انت كمان شربت بيرة

لمح عليوة بطرف عينه جسدا ملفوفا بثوب أبيض، مستلقيا على السكة، يتقلب أمام الحمارين. جحظت عيناه وانهمر العرق من جبينه، وأشار إلى

عبدالرحيم. ساد الصمت وكأنهما أصيبا بالخرس.. حاولا الرجوع إلى الخلف.. ثم صرخ عبدالرحيم الحلاق بصوت متقطع مرتعب:

- صوّت يا ولا

صرخ عليوة:

- الحقونا ياهو

زاد عبدالرحيم:

- عفريتة ليلى يا ناس

سقطا من فوق الحمارين، وهرولا مسرعين، تتخبط أقدامهما ببعضها، من يسقط أرضا يتعلق بجلباب الآخر، حتى لا يتركه وحيدا يواجه العفريتة..

وصلا إلى مدخل القرية، وصرخ الاثنان بصوت المستغيث من موت محقق:

- الحقونا يا ناس.. عفريته ليلى طلعت لنا.. غيتونا يا هو..

ثم خرا مغشيا عليهما، وأهل القرية يسرعون لنجدتهما.

بعد أن أفاقهما أهل القرية، أخذ عليوة يوجه لومه إلى عبدالرحيم:

- منك لله اني قلت لك بلاش نروح من السكة دي

سأل يوسف أفندي وهو يفرك عينيه الحمراوتين:

- ايه اللي حصل يا عبدالرحيم؟

رد عبدالرحيم وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- العفريتة يا يوسف أفندي طلعت لنا

رد أبو شمروخ:

- استرها يارب على البلد.. ومالها كانت عايزة ايه؟

رد عليوة وهو يهز كتفيه:

- مش عارف

فقال فرج مدعيا الحكمة:

- اوعوا حد يكون زعلها فيكم

قال محمد أفندي:

- قوم ياجدع انت وهو روح دارك وانتم يا جدعان كل حي يروح خليهم يستريحوا

رد يوسف ممتعضا:

- منهم لله طيروا النوم من عنينا وضيعوا فرحتنا بقرار عبدالناصر

رد منصور ابن تهامي البقال:

- قرار ايه يا افندية؟

ابتسم محمد أفندي وهو يفرك عينيه المغمضتين:

- الصباح رباح يا منصور مش وقته

فقال أبو شمروخ غاضبا:

- هو انتم كده يا افنديه فاكرين انكم عايشين مع بهايم مش عايزين تعرفونا حاجة

ابتسم يوسف وقال وهو يضحك:

- يعني دا وقت كلام ماسخ يا أبو شمروخ

قال منصور:

ـ مانتم مش عايزين تعرفونا اللي بيحصل في بلدنا

ـ عبدالناصر أمم القناة

قالها يوسف محاولا فك حصارهم، لكن أبو شمروخ حاصره بسؤال:

ـ قناة ايه دي يا يوسف أفندي وأمم ايه؟

ـ قناة السويس كانت ملكيتها للإنجليز والفرنساويين وعبدالناصر رجعها لنا تاني

ـ ربنا يباركلنا في عبدالناصر ويخليهولنا

ـ بس ده قرار متسرع من عبد الناصر هيجر علينا مشاكل كبيرة محناش قديها دلوقتي..

قالها محمد أفندي موجها حديثه ليوسف.. جلس الأفندية على شاطئ الترعة، مستسلمين لحالة الفضول التي غلبت أهل القرية لمعرفة ماحدث اليوم، وخصوصا مع غياب عويضة على غير عادته.

ـ ده قرار ذكي من ناصر أعاد الحق لأهله.

قالها يوسف أفندي..

ـ الأخبار بتقول إن فرنسا وانجلترا ومعاهم اليهود بيحضروا الحرب

رد بها محمد أفندي.. فرد أبو شمروخ مبرزا صدره العاري كثيف الشعر:

ـ احنا في عهد عبدالناصر يا ابا

انفجر الرجال غضبا، وقال عليوة بصوت يملؤه الحماس:

ـ ليه؟ مصر مافيهاش رجالة.. ده احنا كنا لبسنا طرح كلنا لو حد لمس تراب بلدنا

ثم زاد أبوسنة:

- على جثتي لو لمسوا تراب بلدنا.. ليه هي سايبة ولا سايبة.. عبدالناصر ربنا يكرمه رجعلنا كرامتنا وأرضنا واحنا معاه مش هنسيبه حتى لو هنموت علشان بلدنا إذا حد هوب ناحيتها..

قال عبدالصادق النجار:

- عبدالناصر رجعلنا أرضنا اللي كان واخدها الباشوات وطرد الخواجات من أرضنا.. مش بعد مايرجعها لنا هنفرط فيها تاني

* * *

أرسل العمدة عبدالباسط الخفير إلى عبدالرحيم الحلاق، لكي يقص له شعره في داره، فلم يعد من المقبول أن يقص شعره على الجسر كباقي الفلاحين في القرية. ذهب عبدالرحيم إلى العمدة، وأخذ يقص شعره ويهذب شاربه الكبير، سأله ضاحكا:

- ايه اللي اني سمعته امبارح ديه يا ولاه عبدالرحيم؟

رد عبدالرحيم مبتسما:

- عفريتة طلعت لنا.. اني شبهت عليها.. شكلها كده عفريتة ليلى

اصفر لون العمدة وقال:

- وانت شوفتها ازاي؟

رد عبدالرحيم ضاحكا:

- دي كانت لابسة ابيض في ابيض وشعرها طويل واسود

- احفظنا يارب..

قالها العمدة مغاوري وهو يبصق على الأرض، لكن دفعه فضوله ليعرف المزيد:

- بيقولوا العفريتة جرت وراكم؟

- ههه تجري ورانا ازاي يعني ياحضرة العمدة..

قالها عبدالرحيم متفاخرا ومبرزا صدره إلى الأمام..

- دى وقفتنا.. سألتنا انتم جايين منين.. ومتأخرين ليه.. واني رديت عليها وقلت لها.. وانتِ مالك انتِ نيجي زي ما احنا عايزين نيجي بكيفنا.. بس ربك والحق.. الولا عليوة كان بيسكتني.. ده طلع خواف قووي.. انما اني ما خلتلهاش ايوة والله يا حضرة العمدة..

ابتسم العمدة مغاوري وقال:

- يعنى انت ماخفتش يا ولاه؟

- اخاف ايه دي ياعمدة..

وبلهجة متحدية:

- دى قالت لي اني رايداك يا سي عبدالرحيم.. قلتلها اني مابتجوزشي عفاريت يا بت انتِ.. ابعدي بعيد عني.. ايوة والله قلت لها كده.. حتى اسأل الولاه عليوة.. قوله البت العفريتة ماكنتش بتعيط وبتبوس ايدين عبدالرحيم علشان يتجوزها ولا اقولك بلاش تسأله اصله كداب مش هيقول الحقيقة

رد مغاوري ساخرا:

- كت اجوزها

رد عبدالرحيم:

- على رأيك أهي احسن من بقرة أبو شمروخ اللي على ذمتي.. على فكرة يا عمدة.. سألتني عنك وقالت لي سلملي على عمدة بلدنا.. شكلها حاطه عينها عليك...

قالها عبدالرحيم وضحك، وارتبك مغاوري وتغير وجهه، وقال منهيا حديث الحلاق:

- انت بتقول ايه يا حلاق الغبرة؟ انت.. شوف انت بتهبب ايه عشان مش فاضي

ارتبك عبدالرحيم، وتذكر ماضي مغاوري وحكاية ليلى، وصمت برهة، وعاد بعدها بضحكة تحاول تغيير موضوع قديم جديد وقال:

- بس انت عليك شنب يا عمدة انما ايه!

رد مغاوري مبتسما وهو يتحسس شاربه

- بجد يا ولاه؟؟!

رد الحلاق متملقا:

- اومال ايه شنب يقف عليه الصقر..

ثم قال هامسا في أذنه:

- والنبي عريس وسيد العرسان ماتيجي اما اجوزك يا عمدة

وكزه العمدة في جانبه بقوة وهو ينظر خلفه.. أتت ست الحسن وملأت بجسدها المكان، وقالت بصوت خشن:

- ازيك يا ولاه يا حلاق الغبرة؟

رد عبدالرحيم تحيتها، وهو ينظر اليها ويراقب العمدة الذي تغيرت هيئته وأصبح وجهه باهتا، وانصرف وهو يضرب كفا بكف محدثا نفسه:

ـ مراتك ركباك يا مغاوري!!

* * *

حمل عليوة فأسه، وامتطى حماره، وذهب إلى الحقل. اليوم لديه أنفار (زمال) أتوا لتنقية أرض القطن من الغلت.. اصطفوا على الخطوط، كل على خطه.. يحرثون الغلت بين أعواد القطن الصغير بفئوسهم بعناية.. ترتفع الفئوس إلى أعلى وتتهادى على الأرض، لتشقها وتنزع الغلت، دون المساس بأعواد القطن، في حركات بديعة منسقة، كأنهم فرقة موسيقية تعزف لحنها بقيادة مايسترو ينظم أداءها.. يغنون تارة، يمزحون تارة، ويسخرون من بعضهم تارة، ولكن مشاكل المحصول والأرض هي شاغلهم وعنوان أحاديثهم.. يستشيرون بعضهم، فلا أحد يبخل بالنصائح على الآخرين، وقد يتطوع بالإدلاء بها دون سؤال، ليظهر قدراته الفائقة، لتكون مجالا للتفاخر بينهم. قال أبو سنة وهو يضرب الأرض بفأسه:

ـ أرضك لسه طرية يا ولاه

رد عليوة:

ـ مين قالك كده يا أبو سنة؟

رد أبو سنة ساخرا:

ـ والنبي انت ما بتفهم حاجة الأرض لسه طينة

ـ هو مش فالح الا في الصرمحة مع الحلاق في البندر..

قالها أحدهم وهو يضحك، فرد عليوة:

ـ ما انتم بهايم مابتفهموش حاجة.. عمركم ماشفتم نسوان البندر ولا شربتم بيرة ودخلتم السيما

رد أحدهم:

- هو احنا فاضين للمسخرة زيك يا عليوة

رد عليوة مازحا:

- انتم بتستخسروا ومايهونش عليكم أصلا تدفعوا مليم احمر

رد أبو سنة ساخرا:

- واحنا ايه اللي يخلينا نتدلى البندر ونرجع في انصاص الليالي علشان تطلع علينا عفريتة تسيب ركبنا

ضحك الفلاحون، وقال أحدهم وهو يغمز بعينه للآخرين دون عليوة:

- بتقول عليوة أول ما شاف العفريتة خد ديله في سنانه وجري وعبدالرحيم فضل واقف ماخافشي

رد عليوة غاضبا:

- يا سلام يا ولاه.. ومين قالك كده تكونشي العفريتة!!

رد أبو سنة ضاحكا:

- البلد كلها بيقولوا كده..

سأله آخر:

- اومال ايه اللي حصل يا عليوة؟

تنهد عليوة وشرع ماسحا عرقه بكم جلبابه:

- اني والولاه المزغود كنا راجعين من البندر واحنا ماشيين على راس أرض عويضة لقينا عفريتة لابسة ابيض في ابيض.. ربكم والحق اني خفت في الأول ساعة ماشفت الولا الحلاق رجليه بترتعش

وبيصوت.. بس شيء إلهي.. ايوه والله مابكدب.. قال لي متجريش يا ولاه.. فضلت واقف مكانى وعبدالرحيم جري.. قعدت ابص على العفريتة.. سألتني انت جاي من هنا ليه يا سيد الرجالة.. رديت عليها قلت لها وانتِ مالك اجي مطرح ماجي.. نزلت عينها في الارض.. وقالت لنفسها يا ارض انشقي وابلعيني.. وقامت قايلالي.. اني مش قصدي ازعلك يا عليوة.. اني خايفة عليك عفريتة تانية تخطفك.. قلت لها مالكيش دعوة.. ردت عليه.. لا اني رايداك يا عليوة وعايزة اتجوزك.. ربكم والحق البت ليلى زي لهطة القشطة والشيطان لعب في دماغي بس في الآخر قلت لها اني مش بتجوز عفاريت وسبتها ودنّتي مروح..

استمتع الفلاحون برواية عليوة الشيقة، كأنها فيلم يشاهده بعضهم في السينما عندما (يتدلون) إلى البندر.. لم يقاطعه أحد، يريدون للفيلم نهاية كأفلام إسماعيل ياسين التي يعشقونها.. لكن عليوةكتب نهاية كنهايات أفلام فريد شوقي.. سبقه عبدالرحيم الحلاق بكتابةسيناريو مشابه، ولكن تتبدل الأدوار، فالبطل في فيلم عليوة كومبارس في فيلم عبدالرحيم وهكذا.... بعد انتهاء عليوة من فيلمه، انفجر الجميع بالضحك، وقلد أبو سنة عبدالرحيم:

- صوّت ياولاه

وقلد الآخر عليوة:

- روحلنا يا هو

ظلوا يسخرون وعليوة يرد على سخريتهم بسباب لا ينقطع، حتى أتى أبو شمروخ ممتطيا حماره يحمل فأسه، بعدما طلعت الشمس وأرسلت إنذراتها لهؤلاء الكادحين المازحين، بسوء نيتها في يوم شديد الحرارة.. صاح عليوة في أبو شمروخ غاضبا

- اهي انت جاي امتى يا أبو شمروخ!

رد أبو شمروخ وهو يتثاءب ويفرك عينيه:

- يا سلام يا اخويا.. يعني مش عارف!!

رد أحدهم:

- ايه اللي حصل

رد أبو شمروخ بصوت فيه الحزن والأسى:

- الجماعة الخواجات عدوا على بلدنا امبارح

ضحك الجميع، وقال عليوة ساخرا:

- الجماعة الخواجات عدوا على بلدنا ازاي يعني؟!

وزاد أبو سنة:

- يكونشي الجماعة دول خطفوا مراتك من جنبك يا ولاه

يزيد غيره:

- والنبى الجماعة الخواجات دول لو خطفوا مراتك من جنبك يبقوا عملوا فيك معروف

احمر وجه أبو شمروخ من الغضب، وقال بصوت حزين:

- يا بهايم الخواجات ضربوا بورسعيد وأهالينا بيموتوا هناك..

تهاوت الفئوس على الأرض من أثر الصدمة.. لقد أعادت الثورة إليهم النخوة والشعور بالوطن والموت من أجله.. يسمعون خطب ناصر، فتؤجج تلك المشاعر.. اجتمع الخواجات ليسقطوا ناصر، هكذا كانوا يرددون.. لقد عرفوا طريق الحرية وخبروا معالمه، لن يحيدوا عنه مهما كانت العوائق. قال أبو

سنة بصوت غاضب:

- يا سنه سوخه ياولاد ازاي ديه!! الخواجات جايين يضربونا تاني ويقعدوا في ارضنا.. مستكترين علينا عبدالناصر هو يعني الكحكة في ايد اليتيم عجبة يا ناس!!

ردآخر متحديا:

- مش هيقعدوا في أرضنا حتى لو انطبقت السما عالأرض ليه نسوان احنا.

وقال أبو شمروخ متحمسا ومتحديا:

- احنا في عهد عبالناصر يا ابا.. خلاص احنا فوقنا مش هنفرط في بلدنا ابدا

اتفقوا على الذهاب إلى بورسعيد، لكن أبو شمروخ نصحهم في نبرة حكيم أنه لا يجب الذهاب إلى بورسعيد إلا عندما يطلب منهم الأفندية، الذين سبقوهم إلى هناك. هكذا أخبره الأفندية.

القرية تترقب الأخبار، والقلوب معلقة بالسماء، تدعو لناصر ورجاله أن تنصر السماء المستضعفين.. إن كانت فرنسا وانجلترا واليهود اجتمعوا على مصر وناصر، فالله خلقهم وخالق كل البشر وهو على كل شيء قدير، سوف يخسف بهم الأرض، وسينتصر الحق. هكذا قال الشيخ صديق بصوته الواهن المريض، ليحفز ويشد من أزر رجال ونساء القرية، وحتى أطفالها الذين توقفوا عن اللعب واللهو، ليسمعوا الأخبار الواردة من بورسعيد، يتساءلون في براءة لماذا تلك الحرب، ولماذا أتى هؤلاء من آخر العالم ليقتلونا في ديارنا.. ولماذا يقتل إنسانا آخر..

التفوا حول راديو عويضة، يسمعون عبدالناصر في الجامع الأزهر يخطب

في الناس بحماسه المعهود، ويؤمنون وراء شيخ الجامع وهو يدعو ومن خلفه يؤمن المصريون.. اللهم انصر المصريين.. نعم إلى النهاية يا جمال.. سر على بركه الله يا جمال.. حتى بدأ خطاب عبدالناصر، وساد الصمت، والتصقت الآذان بجوار الراديو يستمعون..

وانتهى عبدالناصر من خطابه الحماسي كعادته، وهو يحث المصريون على القتال.. (سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل ولن نستسلم أبدا) وقف أبو شمروخ هاتفا، كما هتف الشيخ في الجامع الأزهر: نحن وراك يا جمال، وردد الجميع من خلفه بحماس والدموع تنهمر من أعين الرجال والنساء، بينما ذهبت فردوس وصوت بكائها يسبقها إلى الشيخ متولي، تطلب منه التوسط عند سيدي عوضين، ليسخر الجن من أجل الدفاع عن مصر.

ظلت القرية تحبس أنفاسها، رجالها يدعون الله، ونساؤها يقدمون النذور لسيدي عوضين.. يسمعون الأغاني الوطنية التي يذيعها راديو عويضة أبو شلتوت.. (دع سمائي فسمائي محرقة.. دع قنالي فمياهي مغرقة.. واترك الأرض فأرضي صاعقة) بينما توقف أطفالها عن اللهو والمرح، حتى أتى الأفندية بالبشرى، التي جعلت الرجال يسبقون ظلهم مفتخرين بمصريتهم وبعبدالناصر قاهر الأعداء..

ذبحت فردوس ديكًا روميًا، وأهدته لصاحب الفضل في الانتصار، الوطني الكبير المهموم بأوجاع البلد حتى وهو يرقد بسلام، سيدي عوضين المخاوي. سبقت زغاريد فردوس جسدها عند مقام سيدي عوضين، هللت وأطلقت الزغاريد ثانية، ومتولي يسبح بمسبحته الشهيرة، وعيناه تتطلعان إلى الحلة، يحاول استكشاف مافيها حتى يكون الاستقبال بقدر مافيها..

- ألف مبروك يا سيدي متولي

رد متولي ومازالت عيناه معلقتين فوق رأس فردوس:

- مبروك يا فردوس

ردت فردوس بعد زغردوة:

- اني جابية لسيدي عوضين ديك رومي بحاله

رد مبتسما وعيناه نصف مغلقة:

- مدد يا سيدي عوضين مدد

ساعد متولي فردوس في إنزال نذرها من فوق رأسها، وطافت حول المقام وصدرها المكتظ يهتز أمامها، وتلمس بيدها مقام سيدي عوضين، ثم تلمس جلبابها، لتنال بركة سيدي عوضين، بينما قلب متولي أسير الديك الرومي، لعابه يسيل ينتظر رحيل فردوس..

قدم عويضة الشربات لأهل القرية وفتح الراديو، ليسمعوا الأغاني الوطنية، ويرددوا خلف المطربين (أمانة عليك أمانة، يا مسافر بورسعيد، أمانة عليك أمانة، لتبوس لي كل ايد، حاربت في بورسعيد).. والنساء يزغردن.. والأطفال يصفقون ويلعبون. حمل أبو سنة يوسف أفندي، وحمل آخر محمد أفندي، وطافا بهما والأطفال والرجال والنساء يرددون خلف أبو شمروخ:

- تحيوا مين تحيوا مين

وهم يردون:

- يوسف أفندي

- تحيوا مين

- محمد أفندي

- وحبيبكم مين

- جمال عبدالناصر

ثار عويضة وقال مهددا:

- والله لو مسكتوش يا بهايم لاكون قافل المخروب ديه

رد منصور مستغربا:

- ليه كده يا عويضة ايه اللي حصل احنا مش كنا كويسين؟

رد عويضة ممتعضا:

- هو يعني يوسف ومحمد بس اللي حاربوا

رد أبو سنة ساخرا:

- عايز تفهمنا انك حاربت انت كمان!

رد عويضة:

- ايوه حاربت يا اخويا

استغرب الرجال جواب عويضة، وسأله أبو شمروخ:

- ازاي وانت مافتش البلد خالص؟؟!!

رد عويضة:

- اني بعت الجنية اللي كانت بتحرس الدرة

بهت عبدالرحيم الحلاق وعليوة، بينما تحولت الأنظار ناحيتهما. أكمل معاتبا أهل القرية كعادته:

- علشان تعرفوا يا بهايم اني بيني وبين ربنا عمار.. ربنا بعتلي جنية قاعدة في الغيط بتحرس الدرة بتاعي.. حتى اسألوا حلاق الغبرة وعليوة..

طاطأ الرجلان رأسيهما، في محاولة فاشلة لإخفاء أعينهم عن أهل القرية. سأل أبو شمروخ عليوة مطلقا ضحكاته:

- اهي اومال ايه حكاية الجنية اللي كانت رايداك دى يا عليوة؟..

استمعت زوجة عليوة لحديث سيد أبوشمروخ، فأطلقت صرخات متعاقبة، قطعت حالة السعادة التي تعيشها القرية، ثم شقت جلبابها وأهالت التراب على وجهها، وأمسكت بجلباب زوجها الواقف مصفر الوجه صامتا، تهزه يمينا فيستجيب، وتهزه يسارا فيستجيب، أمام أهل القرية..

- مين اللي رايداك يا سبعي.. مين يا ترباس الباب!؟

قال أبو شمروخ ساخرا:

- رد يا سي أنور وجدي.. رد يا نجم السيما!

رد عليوة بصوت منخفض منكسر، وعيناه تراقب أهل القرية في خجل:

- اعقلي يا ام العيال.. داني لا عشت ولا كنت يا جاموسة. ماتصدقيش ايوها حد.. حتى اسألي عبدالرحيم

ظل عبدالرحيم صامتا مضطربا، ورد بهمهمات غير مفهومة.. بينما انطلقت الضحكات من جديد، بعدما توعدت زوجة عليوة زوجها، قاهر قلوب العفاريت كما حكى لرجال القرية. لكنه اضطر للتراجع عما قاله، حتى لا تتركه زوجته يرعى المواشي ويعمل في الحقل وحيدا..

قطع المشهد صراخ في القرية يخترق الأصوات الضاحكة، ليقذف في قلوبهم الخوف. إنها صرخات تعلن عن وفاة أحد أبناء القرية.. انطلق الرجال يطاردون مصدر الصوت، حتى وصلوا إلى دار الشيخ صديق، تلحقهن النساء بصراخهن. ماكان يخشى منه رجال القرية ونساؤها وأطفالها قد وقع، وحلت المصيبة وأعلن الحداد في القرية.. مات الشيخ صديق ليلحق بأحبابه كما أراد.. مات الشيخ صديق عند سماعه خبر طرد الاحتلال الثلاثي.. لم يقو قلبه المريض على تحمل فرحة، لم يعتدها كثيرا في حياته.. مات الشيخ وهو يراجع

شريط ذكرياته منذ كان طفلا صغيرا، ماتت أمه وتزوج أبوه من أخرى عانى معها الويلات فكبر قبل الأوان.

لم يعد يسمع غير بكاء الأطفال ونحيب النساء على الشيخ صديق.. كونت النساء الحلقات وتوسطت فردوس بجلبابها الأسود النسوة بجلابيبهن السوداء الكئيبة، يبكين وينوحن ويلطمن الخدود ويشققن الجيوب ويهلن التراب على وجوههن.. لم تبذل فردوس مجهودا كبيرا لتشعل فيهن الحزن المتقد على الشيخ صديق.. لكنها لاحظت توقف ست الحسن عن مراسم العزاء المعتادة، فنهرتها وقالت لها غاضبة

- صوتي يا اختي وردي له الجميل

نظرت ست الحسن إلى الأرض، وقالت بصوت حزين:

- كنت بالقط نفسي يا فردوس هم احنا كان عندنا أعز من الشيخ

ردت فردوس بصوت ممتعض فيه بعض من الغيرة:

- ادعيله وصوتي بضمير..

عاودت ست الحسن نواحها وصراخها، مسرعة في الاستجابة لطلب فردوس، بينما حمل الرجال النعش على الأكتاف يبكون خلفه، وهو يلقون نظرات الوداع على الشيخ صديق.. أجهد النعش حامليه ومن خلفه، فهو يهرول مسرعا إلى المقابر، وسط اندهاش وسعادة أهل القرية. يكاد النعش يطير، هكذا كانوا يتخيلون، يبدو أنه سعيد بلقاء ربه. ولما انتهوا من دفن جثمان الشيخ صديق، عادوا إلى مكان العزاء، الذي أقامته القرية، وجلسوا يمصمصون شفاههم حسرة وحزنا على الشيخ. قال عبدالرحيم الحلاق بصوت حزين وعيناه ممتلئتان بالدموع:

- الله يرحمك يا ابا الشيخ عمري ما عيطت على حد قد ماعيطت عليه

رد عويضة أبو شلتوت:

- ربنا يبشبش الطوبة اللي تحت راسه

ثم قال أبو شمروخ باكيا:

- واحنا شايلينه وراحين به الترب كان بيطير شكله من الاوليا

رد عبدالرحيم:

- ايوه عندك حق كان طول عمره طيب..

ثم اشار إلى مغاوري الجديد وقال:

- إنما المقصوف عمره ديه ولا هيورد على جنة ولا هيشم ريحتها

قال عليوة بشيء من السخرية، رغم دموعه المنهمرة:

- يوم ميتمه مش هيرضى يروح وهيفضل متبت كده اهو ومش هيخش التربة علشان عارف اللي مستنيه

تمردت ابتسامة خاطفة على وجوههم الحزينة، وقال عبدالرحيم الحلاق هامسا بصوت منخفض:

- دريتو باللي حصل؟

رد عويضة:

- خير يا عبدالرحيم؟

- المغدور خد ارض الولاه سلامة الغريب وضع يد

- ازاي؟

- زق البت بهانة على الواد سلامة ليلة امبارح في الغيط، وهو معلق الساقية وقام طب عليه هناك وقاله تسيب الارض دلوقتى ومايطعلش

عليك صبح في البلد والا هادبحك وهرميك في المصرف العمومي..
الولاه خد نفسه.. ومشي من سكات.. علشان مايتفضحش في البلد..
والناس تقول ده مغاوري مسكه بيحب في الغيط.. منه لله البعيد

رد أبو شمروخ بصوت حزين على الشيخ وسلامة الغريب:

- الولاه الغريب عمري ماشفته شرع في واحدة

قال عليوة وهو يمصمص شفتيه، ويضرب كفا بكف:

- سلامة بيتحرج من خياله يبقى هيحب ويتمسخر ازاي!!

رد عويضة:

- الواد طول عمره عايش معانا.. ماهوش في الحب والمسخرة

وقف مغاوري الجديد واتجه ناحيتهم، وأمرهم بصوت غليظ غاضب:

- اقطم يا جاموسة منك له عايزين نسمع الفقي

التزموا الصمت، وبدأ الفقي بالتلاوة، وسط تكبيرات الرجال مع كل آيه يرتلها الفقي ممتلىء البدن، الذي يرتدي لباسا أزهريا ويتنفس بصعوبة. تحت قدميه يجلس صبي يشعل له النرجيلا ويقدم له الخرطوم، وبجواره جلس مغاوري الجديد وفرج يتبادلان النرجيلا. يمتلك الفقي صوتا ملائكيا يشق بتلاوته ظلام الليل وسواد القلوب، فتخرج من أعماقهم التكبيرات والآهات، ويغوصون في بحر الآيات، يرتلها فتهتز رؤوسهم مستمتعة ويطلبون منه إعادة تلاوتها، فيقبل طلبهم على مضض فهو ملتزم بقدر محدد (ربع). لكن صيحات الناس وتكبيراتهم تزيد من حماسه، فيطلق العنان لحنجرته، ليزيد من تكبيراتهم المشجعة.

للفقي طقوسه الخاصة قبل التلاوة.. عندما يحل على القرية يذبح له

مغاورى ديك رومى (معتق)، وبعدما ينقض عليه ويتركه عظاما خاوية، يحبس بكوب شاي ثقيل وبعض من أنفاس الحشيش في النرجيلا المعدة خصيصا له.. يردد دائما أن الحشيش يزيد من حلاوة صوته ويمنحه عذوبة.

بعدما انتهى من سورة الفاتحة، طلب منه الحضور بإلحاح تلاوتها ثانية، ثم لحقها بأول سورة البقرة في نفس واحد، ليستعرض صوته وقوته، كعادته في المآتم. لكنه حاول ولم يستطع، فظهر الضعف على وجهه المحمر.. همس عبدالرحيم الحلاق:

- الأكل كاتم على منافسه

رد أبو شمروخ:

- يعني الأكل كان هيخلص من الدنيا مش يسيب شويه لنفسه زي الشيخ صديق الله يرحمه ما كان بيقول

رد الجميع بصوت حزين:

- الله يرحمه

استراح القفي بضعة دقائق، ليلتقط أنفاسه وليستريح صوته المجهد، ويشرب أكوابا متعاقبة من الينسون، ثم عاود تلاوته، فعاد صوته العذب ينتزع من القلوب الآهات، وعاد الاستمتاع إلى أهل القرية، يهزون رؤوسهم كأنهم في حلقات ذكر حول مقام سيدي عوضين..

* * *

انتهى يومهم الدراسي في مدرسة كفر مصيلحي، فعادوا إلى القرية يحملون حقائبهم الممتلئة، وجلسوا تحت شجره الجميز العتيقة على شاطىء الترعة، بجوار ساقية مدبولي المهجورة، يلتقطون أنفاسهم، ويستمعون إلى علي عبدالرحيم وهو يقلد المدرسين، وخاصة مدرس العربي، ذا البدن النحيف

والوجه الشاحب والأذن الكبيرة، والذي يفرق شعره من المنتصف. ضحك الأطفال بقلوب بريئة، تقبل على حياة تفتح ذراعيها مرحبة بهم.. طالما قال لهم أباؤهم في بيوتهم ومعلموهم في المدارس إن المستقبل لهم، لن يشاركهم فيه أجنبي كما كان أيام الملك.

ظل علي يقلد مدرس العربي، وهو يمسك عصاه ويغمض عينيه ويكز على شفتيه عندما يهم بضرب أحدهم. وسط تلك الضحكات البريئة، نهض شريف وأمسك بعود من الحطب كأنه ميكرفون، وتنحنح وقال بصوت هادىء منخفض، علا تدريجيا:

- أيها الأخوة المواطنون.. بسم الأمة رئيس الجمهورية.. مادة واحد.. تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية

انطلقت ضحكات الأطفال، ثم قال عماشة ابن سيد أبو شمروخ مازحا:

- ايوه يا سي عبدالناصر

وقال علي عبدالرحيم ساخرا:

- الله يرحم ابوك يا سي شريف دا انت ابوك حتى مايعرفش يقولها

رد شريف غاضبا:

- وانت مالك ومال ابويا يابن الحلاق

كاد شريف وعلي يشتبكان بالأيدي، لكن الأطفال حالوا دون ذلك، ثم قال حسونة ابن عويضة:

- وايه يعني يا ولاه يا علي.. ما ابويا قابل عبدالناصر وش في وش

نظر الأطفال إلى حسونة مستغربين، فعاود حديثه..

- والله ولو مش مصدقيني اسألوا ابويا.. ابويا سلم عليه وباسه من هنا

ومن هنا وحتى عبدالناصر سأله انت فين يا عويضة يا اخويا..

استغرب الأطفال حديث حسونة، الذي يبدو كاذبا، رغم أن وجهه لا يظهر ذلك على الإطلاق، بل إن الجدية واضحة في لهجته.. سأله شريف:

- وهو يعرف ابوك منين؟

رد حسونة:

- ابويا كان معاهم أيام الثورة يا بهايم

رد الجميع:

- يا كداب

رد حسونة:

- اهي مش مصدقيني والله ابويا كان معاهم وكمان عبدالناصر قبل الثورة كان بيجيب الظباط ويقعدوا حدانا علشان الملك مايقبضش عليهم.

التزم الأطفال الصمت، غير مصدقين ما ذهب إليه حسونة، الذي يكبرهم قليلا.. ثم قال شريف، وكأنه تذكر شيئا هاما:

- عارفين لما اكبر عايز اموت اليهود

رد علي ضاحكا:

- وايه يعني يا سي شريف.. داني بصبعي الصغير اموتهم كلهم

رد حسونة:

- والله لو سابوا ابويا لوحده لا هيكسر عضمهم وهيعدمهم العافية

ضحك عماشة ابن سيد أبو شمروخ وقال ساخرا:

- انت بتقول ايه يا حسونة!!؟؟ ده خالتك فردوس لو بصت لهم هيموتوا كلهم من عنيها الصفرا، زي ما موتت بقرتنا

رد حسونة:

- يابهايم.. اسرائيل دي زي النملة لو عايزين نفعصها برجلنا مش هتاخد حاجة

تعالت ضحكات الأطفال البريئة، ثم وقف شريف ممسكا حجرا، وطرق على الساقية المهجورة بإيقاع فهمه الأطفال، فصفقوا مهللين مرددين خلفه:

آه لو تقابلني في أول يونية سنة ألفين

راح تلتقاه حاجات أنتيكه راح تلبسنا احنا الاتنين

القرد هيولد عجل وكلب البحر هيبقى حمار

اللمبة مش راح تولع إلا اما نعمرها خضار

القرد هيمسك صاحبه وهيقوله تحية اسيادك ايه

ظل شريف يغني بصوته العذب البرئ، والأطفال يرقصون ويرددون من خلفه، وانقلب المكان الهادىء إلى صاخب ممتلىء بغنائهم وضحكاتهم ورقصات حسونة ابن عويضةأبو شلتوت، التي تشبه رقص المجانين..

فجأة التقط عماشة حقيبته، وهرول مسرعا وهو ينادي عليهم محذرا:

- اجري يا لا ابويا جه

التفت الأطفال ناحية السكة الوسطانية، فوجدوا أبو شمروخ كعادته يمتطي حماره ويغني، فطلب شريف من زملائه أن يبقوا في أماكنهم، حتى اقترب أبو شمروخ وصاح فيهم غاضبا:

- انت بتعمل ايه عندك يا بن الكلب انت وهو؟

التقط الأطفال حقائبهم وفروا مسرعين بعيدا عن عصا أبو شمروخ الغليظة، وأبو شمروخ من خلفهم يطاردهم بحماره الهرم الأعرج، والأطفال أمامه يضحكون ويسخرون من حماره ومنه، وسط صيحاته الغاضبة ولعناته المتواصلة وضرباته لحماره.. ويصيح فيهم:

- بقى انتم قاعدين تحت الساقية بتقلدوا الجماعة الأفندية العواطلية!!

وفشل أبو شمروخ في اللحاق بهم، وفروا جميعا إلى ديارهم بأنفاس لاهثة..

* * *

نضبت الترعة من الماء، وذبل الزرع، وذبلت أعين النساء من البكاء على زراعة أنفقوا عليها من جهدهم وعرقهم ومالهم.. أقامت كفر مصيلحي السدود على رأس الترعة، ذهبوا إلى الشيخ متولي لكي يتوسط إلى زوجته الجنية، لكنها كما أخبرهم ماتت.. يا لسوء الحظ الذي لا يمل من مطاردتهم الدائمة، فهو رفيق ملاصق لهم منذ ولدتهم أمهاتهم، نجحوا في التخلص من الباشا، لكنهم لم ينجحوا من التخلص منه.. الزروع ذبلت من شح المياه، حتى العمدة مغاوري لم يستطع إقناع نظيره في كفر مصيلحي بالإفراج عن بعض المياه تسقي زرع القرية وتعيد إلى الفلاحين أنفاسهم الضائعة اللاهثة في التفكير، بحثا عن حياة لزروع تمنحهم الحياة.. انتظروا الماء كانتظار الأم ابنها المفقود في الحرب، لكن لا الإبن عاد ولا كفت الأم عن الانتظار.

غابت الابتسامة عن وجوه الجميع في القرية، الرجال عند الترعة ينتظرون المياة، والنسوة يطفن حول مقام سيدي عوضين يقدمن النذور.. لم يحضر المعاون منذ الجفاف، وصارت شائعة في القرية بمجاملته كفر مصيلحي، وخاصة بعد زواجه منها. ولما اشتد اليأس وساد ظلام البؤس والشقاء على ليل القرية، وضاقت الحلقات، وأصبح لا محيص من الانتحار لأجل الحياة، ذهبت

فردوس إلى الرجال عند الترعة بخطوات صغيرة عاجزة، فقد نال منها الزمن كما نال من الكثيرين.. ولما وصلت إلى البؤساء عند الترعة، يجلسون القرفصاء، يضعون أيديهم فوق رؤوسهم كأسرى الحرب، صاحت فيهم بصوتها الذي مازال يحتفظ ببعض من ماضيه

- عليه العوض في الرجالة.. قاعدين زى الولايا.. هتخليكم قاعدين لما النسوان يروحوا يفتحوا السدود.. روحوا خلوا رجالةكفر مصيلحي يعلموكم!

ألهبت كلماتها الغاضبة حماس الرجال، وخاصة الشباب.. حمل سيد أبو شمروخ فأسه، وصاح في الرجال:

- اني رايح افتح الترعة وايوها حد هيكلمني هشق بطنه..

انتفض الجميع.. رجال كفر مصيلحي من أمامهم وزراعتهم الذابلة من خلفهم، لا شيء يبكون عليه. انتفضوا انتفاضة اليأس التي لا تبقي ولا تذر.. ساروا ناحية رأس الترعة، حيث السدود، والغل في أعينهم، يضعون الفئوس والشقارف، ويحمل أولاد مغاوري البنادق. ولما وصلوا إلى السدود، لم يكن عليها غير نفر قليل يحرسونها، فروا هاربين يحملون ذيول جلابيبهم في أفواههم.. انقض رجال سيدي عوضين على السدود كأنها كأنها أعداؤهم اليهود، كما أخبرهم عبدالناصر يحملون مشروعا ضدهم. ظل رجال سيدي عوضين في الترعة، في محاولاتهم لإهالة السدود، التي أخذت من جهدهم الكثير، حتى جرى الماء ناحية عزبة سيدي عوضين فرحة، كأنها تكره كفر مصيلحي لسجنهم لها.

سمعوا أصواتا متوعدة تخترق ظلمة الليل.. إنها أصوات رجال كفر مصيلحي الغاضبة.. احتشدوا لمواجهة المحتلين، سمعوا إطلاق نار في السماء، فرد عليها مدبولي الصغير.. وبدأ الجمعان يتبادلان إطلاق نار في الهواء، كل

طرف يريد اختبار قوة الآخر، حتى التقيا، وتداخلت الأصوات الغاضبة، واشتبكوا في معركة المصير لأهل سيدي عوضين، ومعركة الكرامة لأهل كفر مصيلحي.

في خلفية المعركة، دخلت النسوة من القريتين في المعركة بصراخهن المحفز، وظلت المعركة حتى أطل النهار دون توقف، حتى غلب الطرفين التعب وزادت الإصابات وتعبت النسوان من الصراخ، فارتموا على شط الترعة، واكتفى كل فريق بتوجيه السباب والتهديد والوعيد للفريق الآخر.. لكن سرعان ما تندلع المعركة من جديد، مع سخرية أحد رجال كفر مصيلحي من رجال عزبة عوضين، متهما إياهم بقلة الحيلة والعجز، ومذكرهم بواقعة منصور ابن تهامي البقال، وكيف أنه لم يستطع مجاراة إحدى نساء قريةكفر مصيلحي. انتفض الرجال للثأر لكرامتهم هذه المرة، ورد عبدالرحيم الحلاق السخرية متهما نساء كفر عليوة (بقلة الأدب وفراغة العين) نهض الجمعان المشتبكان من جديد، واشتبكت الأيادي المتراخية جراء مجهود ليلة البارحة.. حتى صراخ النساء فقد كثيرا من القوة. اكتفى بعض الرجال بالسباب وتوجية الإهانات بعد أن نال منهم التعب والإجهاد، فلم تعد الأيادي قادرة على حمل الفئوس، بينما ظلت المناوشات بين أولاد العمدة مغاوري وبعض من رجال كفر مصيلحي، بإطلاق أعيرة النيران في الهواء، حتى أخطأت طلقة، وأصابت قدم أحد رجال كفر مصيلحي..

ولى مدبولي الصغير الأدبار عائدا إلى سيدي عوضين، وتبعه إخوته، بينما ظل باقي الرجال يقاومون إجهاد ثلاث ليالٍ ساهرين عند الترعة، يقاومون غضب رجال قريةكفر مصيلحي، الذي منحهم قوة إضافية.

بدأ رجال سيدي عوضين يتراجعون ويفرون من أرض المعركة بخسائر فادحة في الكرامة والدماء.. طاردهم رجال كفر مصيلحي يريدون الثأر، لكنهم توقفوا عند مداخل سيدي عوضين. ارتمى رجال سيدي عوضين على

الجسر أمام دار عويضة أبو شلتوت، النسوة تساعدهم في تضميد جراحهم، يضعون على جروحهم الطين وهباب الفرن، بينما ظل عويضة في داره لم يخرج، مما أثار استياء واستغراب الجميع. لم يذهب عويضة إلى الترعة، ولم يظهر الأفندية إلى الآن.. نادى أبو شمروخ والدماء تسيل من رأسه على عويضة، خرج عويضة عيناه تدمعان، وجهه شاحب، تحت جفونه لون أسود يرسم خطا، وقال والدموع في عينيه بصوت متحشرج:

- اليهود دخلوا سينا

زاد استغراب الحاضرين، وظن بعضهم - كالعادة - أن عويضة أبو شلتوت قد مسه الجن. مادخل مايحدث لهم باليهود؟.. هل ظن أن كفر مصيلحي يهود؟.. لكنه عاود حديثه، بعدما رفع صوت مذياعه القديم المتهالك. كان مذيع الإذاعة البريطانية يعلن أن اليهود دخلوا سيناء. أصاب الذهول الجميع، ووقفوا كأن على رؤوسهم الطير، غير مصدقين. ثم كسر عبدالصادق النجار الصمت:

- اهي ازاي يعني دا احنا نرميهم في البحر والنبي سيدي عوضين وكفر مصيلحي لو اتلموا وراحوا هيكسروا دماغتهم بالنبوت..

أسرع عبدالرحيم الحلاق كالمجنون ناحية يوسف أفندي ومحمد أفندي، ليزيحا الضباب الكثيف من أمام أعين أهل القرية. دق الباب ودخل، فوجد الرجلين معا ملاصقين لراديو يوسف أفندي الصغير.. سألهم غاضبا، يتمنى إجابة غير تلك التي سمعها من عويضة:

- الكلام ديه حقيقي يا افندية؟

صمت الأفندية برهة، ثم قال يوسف أفندي:

- خير يا عبدالرحيم؟

- اللي انتو بتسمعوه

- اليهود حاولوا يتقدموا وياخدوا سينا بس مصر وقفت لهم..

تنهد محمد أفندي..

- ادعي يا عبدالرحيم ربنا يسهل وندخل تل ابيب الليلة ونخلص على اليهود أعداء الله ورسوله

عادت الابتسامة على وجه عبدالرحيم، وأسرع ناسيا إرهاقه وتعبه ليلة البارحة، وتوجه إلى الجالسين أمام دار عويضة وقال ساخرا:

- سيبكم منه يا جدعان عويضة مش عارف حاجة هو شكله كده يتربط ويا الجاموسة..

لم يظهر عويضة غضبه وغيظه كعادته، بل ظل وجهه بائسا عابسا. وانصرف الناس إلى ديارهم، بعدما أنساهم خبر الأفندية ما حل بهم من تعب وإرهاق وإجهاد، وحتى زروعهم، بينما ظل عويضة بجوار الراديو يلاحق الأخبار المتسارعة، قلبه يكاد ينفطر على ابنه حسونة، وعلى بلده. وهناك في دار يوسف، جلسا محمد ويوسف ينصتون لأخبار متناقضة متضاربة غير واضحة. عاد شباب القرية الذي يدرس في القاهرة محطم الخطوات، على وجوههم عرف أهل القرية ما حل بمصر.. سأل عبدالرحيم الحلاق شريف ابن عبدالصادق النجار:

- خير يا شريف أفندي.. جرى ايه لمصر يا بني؟

ألقى شريف ومن معه حقائبهم على الجسر بحركة يائسة، وقال باكيا:

- اليهود دخلوا سينا

ذهل الجميع، وقال أبو شمروخ صارخا في وجه شريف:

- بتقول ايه يا بن ستين كلب انت؟؟

ثم أمسك عبدالرحيم بياقة قميص شريف، وقال مستنكرا حديثا يعلمه من قبل، لكن قلبه لم يطاوعه على تصديقه:

- بتقول ايه يا افندي انت وهو ديه جزاة عبدالناصر خلاكو افندية متعلمين ومتنورين ده رد الجميل يا أفندية يا بتوع المدارس؟!

ثم ثار أبو شمروخ وهو يكاد يبكي:

- اليهود!! ده احنا نروح نرميهم في البحر بالنبوت.. اومال ايه.. احنا في عصر عبدالناصر يا ابا

ظلوا هكذا غير مصدقين، يتحدثون بأصوات عالية تحاول كتمان المرارة على كرامة أهدرت.. لم يصدقوا أنها ضاعت على يدي ناصر.. ناصرهم على الظالمين من قبل..

* * *

قال عبدالرحيم، معاتبا يوسف ومحمد أفندي بصوت مخنوق يائس، يوشك على البكاء:

- بقى كده يا افندية تخبوا علينا؟ انتم مفكرينا بهايم خلاص

طأطأ الأفندية رأسيهما، وجلس الجميع تحت ظل شجرة الجميز، لا يريدون العودة إلى ديارهم، يشعرون في حاجتهم الماسة لبعضهم الآن. جاء فرج يتكئ على عصاه، وقد نال منه الزمن، ونظر إلى الجالسين وهمس بصوت منخفض لم يسمعه غيره:

- الله يرحمك يا جلالة الملك من بعدك ضاعت البلد

جلب يوسف الراديو وظلوا بجواره.. سوف يلقي الزعيم الملهم خطابا

هاما للأمة.. بدأ في خطابه.. نبرات صوته فيها انكسار وذلة.. لم يعهدوه هكذا، مازالت خطاباته الساخرة المتحدية لليهود في الأذهان.. سيلقيهم في البحر ويضربهم بالنبانيت.. كان لديهم الاستعداد لتصديقه، حتى لو حدثهم أن البحر لم يعد موجودا كما النبوت. الدموع تنهمر من أعين الجميع على كرامة الوطن، النساء يبكين والأطفال، وهم يسمعون خطاب ناصر.. قد يغير الخطاب حالهم ويتبدل من ألم إلى أمل ومن حزن إلى فرح، ومن ذلة إلى عزة للوطن.

لكنه بادرهم بتخليه عن السلطة.. انفجروا بالبكاء والغضب، وانقسموا إلى فريقين، منهم مؤيدلتنحيه، وآخر ـ وهم أكثرية ـ وقفوا يرددون خلف شريف..

ناصر ناصر ولا رئيس إلا ناصر.. يا جمال الشعب معاك.. احنا الشعب واخترناك.. ياجمال يا حبيب الملايين

* * *

عاد حسونة حافي القدمين، شاحب الوجه، أشعث الشعر، كث اللحية بلباس عسكري رث، تحتفظ جيوبه ببعض من رمال سيناء مازالت عالقة بها.. لما وصل داره، ارتمى في حضن أمه باكيا.. تفحصت جسده بلهفة، غير مصدقة عودته ثانية. وهرول عويضة عائدا من الحقل.. لم تتذوق عيناه طعم النوم منذ سمع ذلك الخبر السيء.. أطلقت أم حسونة الزغاريد فرحة بعودته، وذبحت ذكرين بط، أحدهما سوف ترسله إلى الشيخ متولي، لتشكره على عودة حسونة سالما.. مدد يا سيدي عوضين مدد، قالتها وهي تحمل ذكر البط في الحلة فوق رأسها، ومن خلفها الأطفال يقفزون في محاولات عابثة للوصول إلى الحلة، لم يكتب لها النجاح..

ارتدى حسونة جلبابه الأبيض الصوف الجديد، ذا الأكمام الواسعة،

وهذب شاربه، حتى أصبح خيطا أسود رفيعا تحت أنفه العريض، ومشط شعره الأسود الناعم. ذهب الجميع إلى دار عويضة للتهنئة بعودة حسونة سالما.. جلسوا أمام داره، وأحضرت أم حسونة الشربات، وسأل عبدالرحيم الحلاق مستفسرا من حسونة عما حدث. رشف حسونة رشفة شاي بصوت عالٍ، ثم قال بعدما تنهد..

- وهو ايه اللي حصل؟

استغرب الجميع جواب حسونة، ثم قال أبو شمروخ:

- اللي حصل للجيش بتاعنا يا حسونة؟

رد حسونة وهو يحك قفاه:

- احنا ماحاربناش من الأساس

زاد استغراب الناس، فأردف حسونة:

- بس إن كان عليّ.. اني فضلت واقف على الجبهة لوحدي.. زمايلي سابوني ومشوا.. واني قلت لازم اكسر عضم الجماعة اليهود دول.

رد عبدالرحيم الحلاق وهو يتكتم ضحكاته:

- فضلت تحارب لوحدك يا ولاه؟

زاد حماس حسونة، وقال هو يبرز صدره إلى الأمام:

- اومال ايه يا ابا عبدالرحيم.. اني فضلت اضرب في اليهود واسوقهم زي الغنم قدامي لحد ما وصلوا تل ابيب

أفلتت الضحكات من بعضهم، وسأله أبو سنة:

- ازاي يعني؟

رد حسونة:

- صلوا بينا على النبي.. زيدوا النبي صلاة.. في الأول ماالخبيش عليكم كنت خايف، وخصوصا لما شفت الطيران اليهودي جريت واستخبيت تحت الجبل..

ضحك حسونة ثم أردف..

- اني لقيت الطيار بيشاور عليّ قمت واخد ديلي في سناني وجاري متداري عند الجبل والمدفع معايا وقمت ضارب الطيارة فوقعت قدامي جات طيارة تانية قمت موقعها قعدت اوقع طيارات للصبح لحد ما خلصت على طيارات اليهود كلها..

ساد الصمت تماما، وظل الفلاحون فاغرين أفواههم مستمتعين بحديث حسونة.. سأله أبو سيد ضاحكا:

- خلصت على الطيارات كلها ياولاه؟!

- ايوه يا ابا شمروخ.. ولما خلصت عليها واتأكدت بنفسي خدت البندقية بتاعتي وسقت العساكر اليهود قدامي زي ما انت بتسوق بهايمك لحد ما وصلت اسرائيل..

سأله علي عبدالرحيم ساخرا:

- وماكملتش ليه يا حسونة؟

- الذخيرة اللي معايا خلصت

ضحك علي وقال مازحا:

- والنبي ولا أدهم الشرقاوي يا ولا يا حسونة!!

وقال أبو شمروخ:

- والنبي اللي خلف ما ماتش طالع لابوه

قال عبدالرحيم الحلاق بصوت منخفض:

- انت وابوك عاملين زي القرش الممسوح

تنهد أبو شمروخ وقال:

- دتك ايه يا ولاه يا حسونة خرجتنا شوية من الهم اللي ركبنا من يوم المصيبة ما حلت علينا

رد عبدالصادق النجار بنبرة حزينة:

- والنبي لاهناخد بتارنا ولو هنربط على بطننا.. الأرض عرض.. أني عندي تلت صبيان مستعد اقدمهم شهدا لاجل بلدهم.

ضحك عبدالرحيم، وقال لعبدالصادق:

- بقى عندك تلاتة.. ادعي لسيدي عوضين اللي خلاك خلفت الرجالة

تنفس عبدالصادق النجار الصعداء بعدما انتهى شريف ابنه من دراسته في كليه الحقوق.. لطالما طالبه أبوه أن يبتعد عن السياسة (يبعد عن الشر ويغني له) لكن حب شريف لوطنه كان أقوى من حبه لأبيه.. لم يكن يمر أسبوع إلا ويلقى القبض عليه، وينال حظه الوافر من التعذيب، ثم يفرج عنه ليعود إلى نشاطه وسط الطلبة في الجامعة، محفزا ومثيرا لإعجاب زملائه.. صرخاته وسط الطلبة صائحا فيهم أن الوطن يناديهم تدوي في أركان الجامعة.. ما من أيام أقسى على نفس عبدالصادق من تلك التي قضاها بعد سماعه خبر اعتقال بعض الشباب الجامعيين المحتجين على الأحكام المخففة لضباط الجيش، المتسببين بهزيمتنا النكراء من الصهاينة. عند سماعه الخبر، لم يساوره الشك في أن ابنه المشاكس الذي يأبى العيش في الظل واحد من هؤلاء. على الفور ارتدى جلبابه القديم البالي، الذي لا يمتلك غيره، وامتطى قدميه مطلقا ساقيه

للريح، ليلحق بالقطار المتجه إلى القاهرة، وهو يدعو الله أن يخفف العذاب الذي سيلاقيه ابنه على يد رجال عبدالناصر. بحث عنه في السجون ولم يجده (فالدبان الأزرق لن يعرف طريقه) هكذا قال له أحد الجنود الواقفين على حراسة أحد السجون، فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة. ولما مضى أكثر من شهرين من العذاب لعبدالصادق وزوجته، أفرج عن شريف، ليريا النور الذي غاب منذ اعتقل، ولتتوسل إليه أمه أن يبتعد عن تلك اللعينة الخبيثة التي أبعدته عنها معتقلا..

بعد حصوله على ليسانس الحقوق، لم يمكث شريف طويلا في القرية، فالوطن ناداه ولابد أن يلبي، مثل أصدقائه في القرية، علي عبدالرحيم، وعماشة أبو شمروخ، وغيرهما.. ذهبوا جميعا إلى الجيش، يحملون معهم حبهم للوطن وإيمانهم به. ودعهم الأهالي بالدعاء وبعض من دموع تلمع في أعينهم على فلذات أكبادهم، ثم أحضر سيد أبو شمروخ عربته الكارو، وركبوا ليوصلهم إلى البندر، ومن هناك سيركبون القطار.. طلب علي عبدالرحيم من شريف أن يغني:

آه لو تقابلني في أول يوليه سنة ألفين

راح تلتقي حاجات انتيكه راح تاخدنا احنا الاتنين

ظلوا يغنون ويمرحون، وسيد أبو شمروخ يغني معهم، وعيناه تلمعان بالخوف على ابنه وبالفخر به.. كبر عماشة وسوف يصبح جنديا في الجيش..

قال علي مازحا:

- ياسلام يا شريف أفندي هو احنا ممكن نعيش لحد سنه ألفين؟

تلقف عماشة أبو شمروخ الكلمة وقال:

- احنا فين وسنة ألفين فين يا ولاه

رد شريف واثقا:

- طبعا هنعيش لسنة ألفين ولسنه تلت تلاف كمان

ضحك الجميع، ونزلوا من الكارو مودعين بقبلات وأحضان ودموع سيد أبو شمروخ، وركبوا القطار..

ذهب شريف إلى الصاعقة، وتفرق الآخرون إلى أسلحة مختلفة، لكن جمعهم حلم يراودهم جميعا، حلم الانتقام من الصهاينة المعتدين، ليمحوا عارًا يلاحقهم كظلهم، يطاردهم في منامهم وفي قيامهم.

* * *

استيقظت القريةعلى خبر في الراديو، يلقيه المذيع بصوت حزين، كأنه قنبلة انفجرت في وجوههم، يعلن موت الزعيم جمال عبدالناصر. أحست القرية باليتم، لم يعد للفلاحين من ناصر بعد اليوم.. مات ناصرهم.. مات دون استئذان.. مات قبل أن يحقق حلمهم باسترداد سيناء من اليهود.. عاد الفلاحون من حقولهم بعد سماع الخبر، أقاموا سرادق عزاء، وحمل الرجال نعشا رمزيا طافوا به القرية وهم يبكون، والتفت النساء المتشحات بالسواد حول فردوس التي هزمها المرض والزمن، لكنها قاومتهما وحضرت لتقود بنفسها مأتم النساء.. أطلقت النسوة الصراخ من قلوبهن، وهن يبكين وينحن ويهلن التراب على أنفسهن، وفي منتصف الدائرة تجلس فردوس تبكي وتصرخ بصوت مريض عاجز، وتنوح والنسوة من خلفها يرددن..

(كان لنا سبع تهيبه السبوعة، والسبع مات واحنا تاكلنا الضبوعة.. كان لنا سبع تهيبه الناس، والسبع مات واحنا صبحنا بلاش)..

وما أن جن الليل واتشحت القرية بالسواد، بصراخ وبكاء ونواح، شاركت السماء بالدموع تبكي ناصر.. استمع أهل القرية لأم كلثوم ترثي ناصر، بصوتها الشجي الذي أصابته وفاة ناصر بالحزن.

(عندي خطاب عاجل إليك.. من أرض مصر الطيبة.. من الملايين التي تيمها هواك.. من الملايين التي تريد أن تراك)

تدفقت الدموع من أعين الجميع، وأغمى على عبدالصادق من شدة بكائه.. أفاقه عبدالرحيم الحلاق ببصلة، وقال له محاولا أن يهون عليه الفاجعة، رغم دموعه المنهمرة هو الآخر:

- ايه جرى ايه يا عبدالصادق يا اخويا كلنا رايحين ماحدش مطول..

ثم حاول استحضار ضحكة، وقال:

- انت اتجننت ولا ايه ياولاه يا عبدالصادق مش ديه عبدالناصر اللي اعتقل شريف ابنك قبل كده؟

رد عبدالصادق النجار بصوت متحشرج، وعينان ذابلتان من الدمع:

- غصب عنه يا عبدالرحيم عبدالناصر مكنشي يدرى وحتى لو يدرى اهو زي ابنه.. عبدالناصر هو اللي خلالنى كرامة يا ناس مين لينا بعده

ثم قال أبو شمروخ باكيا:

- كان نفسه يحرر الأرض وياخد بتارنا

قال يوسف أفندي، محاولا أن يبدي تماسكا:

- هناخد بتاره وتارنا من الصهاينة وهنرفع رأسه في قبره

قال محمد أفندي محدثا نفسه بصوت لم يسمعه غيره:

- هو السبب في الهزيمة وازهاق أرواح إخواننا سيد قطب وعبدالقادر عودة وغيرهم.. ولا دول مش بني ادمين زيه؟ الحمد لله مات الزعيم الملهم عليه من الله ما يستحقه وليلقى ربه وليقتص لنا الله

مازالت النسوة يرتدين جلابيبهن السوداء، لا مكان لأفراح بعد وفاة

ناصر، فالقلب إذا فرح خان. لابد من الثأر لكرامة وطن، دهسته أحذية الصهاينة المعتدين. حتى رجال القرية لم تعد الابتسامات تحط على وجوههم الشاحبة البائسة.. فلاسعادة والوطن يغتصبه اليهود..

فردوس، التي أجهز عليها الزمن، ووضع علاماته على وجهها وصوتها.. عندما حضر رجال القرية ونساؤها لزيارتها قبل وفاتها بيومين، وكانت طريحة الفراش.. طلبت من محمد ويوسف أن يجلسا بجوارها، وقالت بصوت حزين:

- البلد أمانة يا افندية

أومأ الافندية برأسيهما، وقال أبو شمروخ:

- خليك في نفسك يا فردوس.. ربنا يقومك بالسلامة للبلد

ردت فردوس بصوت يائس:

- اني خلاص مش عايزة من الدنيا حاجة المهم البلد

رد عبدالرحيم الحلاق مازحا:

- والنبي اللي يشوفك يا فردوس يقول أنور السادات اللي بيكلم

ردت فردوس بابتسامة، نجح عبدالرحيم في استجلابها:

- داتك قطيعة يا حلاق الغبرة.. يعنى مافيش فايدة فيك ابدا

رد عبدالرحيم الحلاق ضاحكا:

- حتى وانتِ بتموتي لسانك طويل

قال يوسف أفندي بصوت يبدو فيه اليأس:

- والله يا ست فردوس مش هناخد بتارنا من اليهود إلا لما ينتهى عام الضباب بتاع السادات!

رد أبو شمروخ:

- الله يرحمك يا عبدالناصر من بعده بقينا غلابة وملطشة

رد محمد أفندي غاضبا:

- عبدالناصر سبب النكسة وسبب كل البلاوي

رد عبدالرحيم الحلاق مستفهما:

- يعنى احنا هنحارب يا افندية ولا لا؟

رد يوسف أفندي:

- السادات مش عايز يحارب

رد أبو شمروخ غاضبا:

- ازاي؟ ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة.. زي ما ناصر قال

رد يوسف أفندي يائسا:

- يظهر أن عام الضباب مش هينتهي وسيظل الضباب طويلا في سماء البلد

ردت فردوس بصوت غاضب وهى تزعق في النساء:

- اسمعي يا بت انتِ وهي.. وصيتي قبل ما اموت.. ماتقلعوش الاسود أبدا من عليكم ولا تناموا لرجالتكم العرر دول.. طول ما الدنيا ضباب كده ومش قادرين يجيبوا تارنا من ولاد الكلب.

رد عبدالصادق النجار:

- إن كان علي وفي سنى ده عايز اروح احارب

رد أبو شمروخ:

- البركة في شريف وعماشة وعلي وجدعان البلد

رد عبدالصادق:

- السادات مش ناوي يحارب.. شريف لما بينزل اجازة بسأله يقول لي.. مش باين لها حاجة. آخر مرة كنت بتكلم معاه كان هيعيط وقال لي احنا عايزين نحارب ياابا

رد عبدالرحيم الحلاق:

- الواد علي ابني بيقول لي نفس الكلام.. العيال على نار عايزين ياخدوا بتار البلد

رد عبدالصادق:

- اني مستعد اضحي بعيالي وبنفسي ومراتي كمان فدا بلدنا بس هما يسيبونا نوري ولاد الكلب دول مقامهم

العار يلاحق القرية، كما يلاحق مصر. لن يمحوه غير دماء وتضحية شبابها، ملوا الانتظار.. ينتظرون بدء معركة الكرامة، لكن الضباب استمر طويلا في سماء القاهرة. لا يبدو أن شيئا يلوح في الأفق، وشريف وزملاؤه في معسكرات الجيش يحترقون شوقا لمقاتلة اليهود.

حتى أعلنت الإذاعات عن اقتحام المصريين لخط برليف الحصين المنيع.. ارتبك الجميع غير مصدقين.. منعتهم خبرتهم السابقة مع الإذاعة أيام هزيمة يونيه أن يصدقوا الإعلام. لكن سرعان ما تأكد الخبر، وعلمت القرية أن شبابها لمست أقدامهم رمال سيناء.

عمت الفرحة القرية، فرحة مشوبة بحذر الخوف على أبنائها الذين رفعوا أعلام الوطن فوق رمال سيناء. خرجت النساء إلى الشوارع يزغردن ويبكين فرحا، بينما ذهب الرجال إلى مقهى عويضة أبو شلتوت الجديد، الذي افتتحه

قبيل الحرب بأيام.. يستمعون بإنصات إلى الإذاعة

"لقد عبرت قواتنا المسلحة الضفة الشرقية من قناة السويس"

هلل الرجال، وذرفت العيون دموع الفرحة.. يبدو أن الدموع شريك مهم لهم، يحضر في الفرح كما الحزن.. احتضنوا بعضهم البعض، وهم يبكون بأصوات عالية. الأمر لا يصدق لم يتوقع حدوثه.. احتضن محمد أفندي يوسف أفندي، ودموعهما تنهمر بغزارة غير مصدقين ما حدث.. وقال يوسف صارخا:

- أخيرا مصر هترفع راسها تاني

رد محمد أفندي:

- الله أكبر ولله الحمد

رفع أبو شمروخ يديه وقال باكيا:

- خدنا بتارك يا مصر خدنا بتارك يا ناصر.. الله اكبر

ثم قال عبدالصادق النجار هو يحتضنه باكيا:

- الله اكبر عاشت الرجالة.. عاش شباب البلد.. قلوبنا معاكم

ثم دعا عبدالرحيم الحلاق وهو يبكي فرحا:

- ربنا ينجيك يا علي يا بني وتخلص على ولاد الكلب انت وزمايلك

صاح عبدالصادق النجار فرحا:

- ولادك رجالة يا عزبة سيدي عوضين.. ولادك أبطال

ثم قال عويضة معاتبا ابنه حسونة، بصوت تمتزج فيه الفرحة العارمة بالحزن

- شايف الأبطال؟

طأطأ حسونة رأسه خجلا، ثم قال أبو شمروخ

- ادعولهم يا رجالة

وقف عويضة وسط المقهى وصاح:

- الفطار عندي الليلة يا اهل البلد.. لولا اننا في صيام كنت شربتكم كازوزة

رد أبو شمروخ ودموع الفرحة ترقص في عينيه:

- قهوتك وشها حلوع البلد يا عويضة

ثم قال عبدالرحيم الحلاق رافعا يديه إلى السماء:

- اللهم انصر ولادنا ويرجعولنا منصورين مرفوعين الراس

رد الجميع بصوت يملؤه الحماس:

- آمين

ثم أشار أبو شمروخ ناحية العمدة مغاوري، الذي يمر على أرضه بعيدا متكئا على عصاه منحني الظهر

- ماكنوش ياخدوا دهوا كنا ارتحنا منه.. مش عايز يسيب الدنيا ابدا

* * *

كان شريف فدائيا بالصاعقة، ينفذ عمليات خلف خطوط العدو، شجاعته وبسالته وحبه الشديد لبلده وقوامه الممشوق وعضلاته المفتولة أهلوه لذلك.. أتت اللحظة التي حلم بها.. لطالما هتف بها أيام الجامعة مع الطلبة، حين كان يقود المظاهرات المطالبة بالثأر من الأعداء.. الآن أصبح حلمه حقيقة.. أقلته طائرة إلى سيناء خلف خطوط العدو، وأنزلته ومن معه.. صاحوا جميعا بصوت واحد:

ـ الله أكبر وتحيا مصر.. الله أكبر وتحيا مصر

سجدوا على الرمال وقبلوها، وصاح شريف بصوت قوي هز جبال سيناء

ـ تحيا مصر.. تحيا مصر

تفرقت الكتيبة، كل منهم يعرف مهامه.. قتل شريف اثنين من الجنود بالسمكي وأصاب آخرين.. لكن طائرة صهيونية كشفتهم وأطلقت نيرانها ناحيتهم.. اختبئوا خلف أحد التبات الحصينة.. وجد شريف نفسه يتذكر أصدقاءه في القرية المجندين في كتائب أخرى.. تذكر ساقية مدبولي.. ارتسمت على وجهه الغارق في العرق ابتسامة وردد هامسا..

آه لو تقابلني في أول يوليه سنه ألفين

حتى نالت منه قذيفة، فهوى إلى الأرض ممسكا برمال سيناء مبتسما.

* * *

خرج يوسف ومحمد أفندي، وقد وضع الزمن لمساته على وجهيهما، وابيض شعرهما، وانحنى ظهراهما.. تمشيا، فقادتهما أقدامهما إلى ساقية مدبولي، وجالسا تحت ظل شجرة الجميز التي نالها من الزمن ما نالهما.. دون أن يتحدثا دخلا في نوبة بكاء، لايعلمان سببه.. ثم قال محمد أفندي وهو يتنهد:

ـ الحمد لله سينا رجعت يا يوسف

رد يوسف:

ـ مش سينا بس يا صديق العمر اللي رجعت.. مصر كمان رجعت

ابتسم محمد أفندي وقال:

ـ فاكر يا يوسف زمان

رد يوسف:

- زمان.. !! عايزنا نرجع زي زمان قول للزمان ارجع يا زمان على رأي أم كلثوم.. لو عاد بنا الزمن كان زمانا بنحارب ع الجبهة

ضحك الاثنان، وقال يوسف مازحا وهو يتحسس شعره الأبيض:

- فاكر يا محمد.. صدقي باشا؟

رد محمد أفندي ضاحكا:

- ودي حاجات تتنسى بس اللي كان صعبان عليّ أهل البلد الغلابة اللي بهدلهم الباشا تيسير.. وخصوصا الله يرحمه الشيخ صديق..

ضحك الاثنان حتى دمعت أعينهم، وقال محمد أفندي وهو يمسح على شعره الأبيض:

- كانت ايام حلوة!! فيا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

ساقيه مدبولي المهجورة مكانهما المفضل قديما، عادا إليه ثانية، يقضيان يومهما تحت الجميزة العتيقة، يعتنيان بها كأنهما يتوسلان إليها أن تصمد في وجه الزمن، ولا تنحني كما انحنى الآخرون.. منظر أحفادهما يلهون ويلعبون ويمرحون بابتسامات بريئة تثير فيهما ذكريات الماضي.. تنهد يوسف ساندا رأسه إلى الشجرة، وخالعا حذائه ممددا ساقيه، وقال بصوت فيه شجن، وهو يشير ناحية الأطفال:

- خايف عليهم قوي من اللي جاي

تنهد محمد أفندي، وقال بصوت واهن يظهر فيه المرض:

- رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه!



عزبة الباشا

رد محمد أفندي غاضبا :

- هو الفشل ما لهوش غير أب واحد؟ عايزين تعلقوا كل مشاكل الوطن على شماعة الاخوان المظلومة أيام الملك والوقتي. الانصاف يرحمكم الله.

رد يوسف أفندي متنهدا، وفي حلقه مرارة :

- مين وقف مع الملك والانجليز غيركم أيام مظاهرات الطلبة؟؟ مين وقف مع صدقي وقال واكتب في الكتاب إسماعيلا؟؟ مين قال إذا كان الشعب مع الوفد فإن الله مع الملك؟؟ مين وافق الضباط الاحرار على قرار إعدام خميس والبقري؟؟ مين عمل مظاهرات ضدنا في الجامعات ومارس العنف ضد معارضي عبدالناصر؟ اقولك مين ولا مين ولا مين.

هنا رواية من أعماق الريف، عبر أحداثها يروي الكاتب جزء من تاريخ مصر، دون أن يخرج عن إطار القرية ومشاهدها المجسدة، وأكنة أهلها، وأغنيات البنات على الترعة.. الفلاح، والأفندي، وشيخ الجامع.. العمدة والخفير.. الألفاظ التي لن تسمعها إلا في "عزبة الباشا" الريف النائي عن مفردات المدينة.. رواية تحكي عن "ليلى" الحلوة زينة الصبايا.. عن قصص حب تخفيها الحقول، وغزل مختلف بمفردات المكان.. عن غدر وتخطيط وليل بهيم وعواء ونقيق.. عن الأرض، تلك المعلم الأول لفلاحيها والمحرك لحياتهم.. عن السياسة، التي تغير حياة الجميع، حتى من هم بمعزل عن محفلها.. هنا عمق الوطن، يبهر بجماله، ويغيظ بمغالطاته، ويرسم البسمة رضا بسماحة أهله.. هنا "عزبة الباشا"

تصميم أحمد مراد



